قام الطالب بالتصحيح المطلوب
والله الموفق

د. ...
١٤١٥/١١/١٨هـ

نشهد بأنه بعد قيام الطالب بتصحيح ما طلبت منه تصحيحه
المناقشة د: والدجيب محمد الرسيدي

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
فرع العقيدة

السلفية وأعلامها في موريتانيا

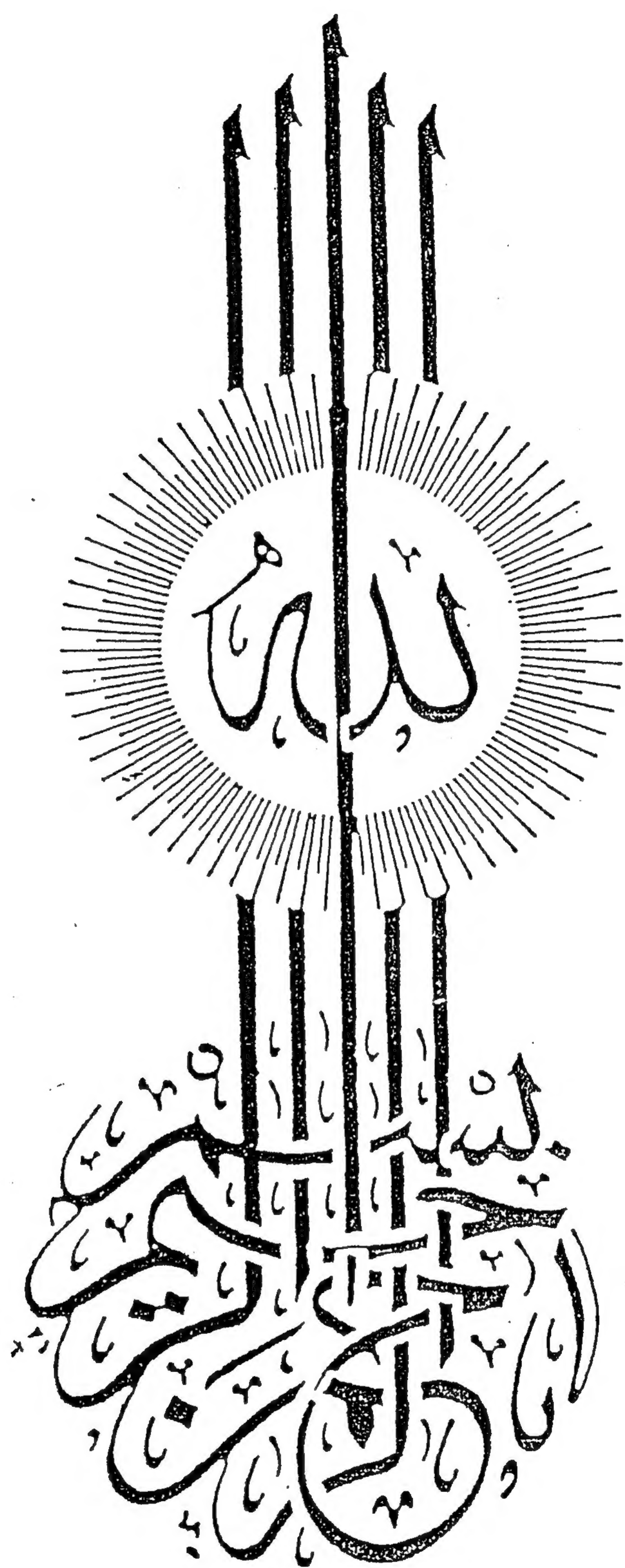
بحث مقدم لنيل درجة الماجستير
من كلية الدعوة وأصول الدين



اعداد الطالب
الطيب بن عمر بن الحسين الجكني

إشراف
فضيلة الدكتور/ أحمد طلعت غنام

الجزء الأول


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص لرسالة الماجستير بعنوان السلفية وأعلامها في موريتانيا

تشتمل هذه الرسالة على مقدمة وتمهيد واثنى عشر فصلا وخاتمة وملاحق وفهارس وقد خصص التمهيد للتعريف بموريتانيا وأطوارها التاريخية. وتناول الفصل الأول التعريف بمفهوم السلف والسلفية، والقواعد التي تبنى عليها الدراسات السلفية وتعرض الفصل الثاني للتعريف بحماة العقيدة السلفية في بلاد شنقيط ـ وهم المرابطون ـ والأسس التي قامت عليها الدعوة المرابطة، وبين الفصل الثالث منهج المرابطين العقدي، وتناول الفصل الرابع دخول الأشعرية في المغرب وانتشارها في موريتانيا، ورسم الفصل الخامس صورة لعودة الفكر السلفي للمنطقة، وقد خصص الفصل السادس لتعريف بالشيخ سيدي بابه ومنهجه في العقيدة وعرض في الفصل الثامن للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار ومنهجه في العقيدة وأثره في موريتانيا، وبين الفصل التاسع نشاط تلاميذ الشيخ الأمين في الدعوة السلفية في موريتانيا، وخصص الفصل العاشر للشيخ بداه بن البصيري ونشاطه ومنهجه في العقيدة وتناول الفصل الحادي عشر المدارس السلفية المتفرعة عن مدرسة بداه بن البصيري، وتعرض الفصل الثاني عشر للمؤسسات السلفية الأخرى في البلاد، وأما الخاتمة فقد عرض فيها لأهم نتائج البحث.

وقد أصلت هذه الرسالة البعد التاريخي والأطوار والمراحل والانتصارات والانتكاسات التي مر بها السلفيون في موريتانيا وفي المنطقة بوجه عام، وبينت الصراعات والمعارك التي دارت بين السلفيين والطوائف المخالفة لمنهج السلف وعقيدتهم، مثل إحراق المرابطين لكتاب إحياء علوم الدين للغزالي والصراعات والمعارك التي خاضوها ضد الموحدين ودعوتهم الخلفية وغير ذلك، كما أنها ترجمت للأعلام السلفين في تلك البلاد وهي مهمة جديرة بالإهتمام حتي لا تبقي جهود علماء السلفية في مجاهل التاريخ وليظل الفكر السلفي وحماته حقيقة ناصعة وبارزة، وأهم النتائج التي تم التوصل إليها في هذا البحث كالتالي:-

١ ـ إن الإسلام دخل في موريتانيا ما بين عامي ٦٢ ـ٦٤ هـ خلافا لما ذهب إليه كثير من الباحثين، من أنه لم يدخل في تلك البلاد إلا بعد نهاية القرن الأول للهجرة، ودعمت ما ذهبت إليه بكلام العارفين بالتاريخ، وبعض الوقائع التي تؤكد ذلك.

٢ ـ إن العقيدة السلفية قامت في المنطقة منذ دخول الإسلام فيها، وتعززت وتوطدت على يد المرابطين طيلة فترة حكمهم.

٣ ـ إن سبب إحراق المرابطين لكتاب إحياء علوم الدين للغزالي يعود بالدرجة الأولى إلى ما تضمنه الكتاب من الفكر الصوفي الفلسفي، وليس للخلاف المذهبي في الفقه دخل في هذه القضية.

٤ـ إن دعوة ابن تومرت قامت علي الزيف والخداع والابتداع وسفك الدماء وأن السلفية أغتيلت في المنطقة ـ ظلمًا وعدوانًا ـ على يدابن تومرت ثم على يد أتباعه من بعده.

٥ ـ إن السلفية عادت إلى البلاد بعد عهد المرابطين على يد الإمام ناصر الدين وتوطد ذلك علميًا وعمليًا في مدرسة الشيخ محمد بن حبيب الله (المجيدري) والشيخ سيدي بابه حتي أصبح للعقيدة السلفية وجود قوي مؤصل إلى الآن.

٦ ـ إن العقيدة الإسلامية في القطر الموريتاني لم تكن ذات مسار واحد وإنما ظل يتنازعها مذهبا السلف والأشاعرة على مر العصور.

إن العقيدة السلفية الآن في موريتانيا لها جذور عميقة في الساحة العلمية والتعليمية وهي في ازدياد ملموس يتمثل في عدد من المدارس والمعاهد التي تتبنى المنهج السلفي وتدافع عنه بشجاعة وحماس.

والله أعلم



الطالب	المشرف	عميد كلية الدعوة وأصول الدين
الطيب بن عمر بن الحسين	د/ أحمد أبو السعادات	د/ عبدالله بن عمر الدميجي

٣٦٩٨

أقدم شكري وفائق تقديري واحترامي لشيخي الفاضل سعادة الأستاذ الدكتور أحمد طلعت غنام ، الذي تفضل مشكوراً بالإشراف على هذه الرسالة ، وصبر علي صبراً جميلا ، ومنحني من وقته الثمين الشيء الكثير، وأمدني حفظه الله - بتوجيهاته المفيدة ، وإرشاداته القيمة السديدة، التي أنارت لي الطريق التي سرت عليها ، حتى أنهيت هذا البحث.. فجزاه الله عني خير الجزاء وأمد في عمره ، ونفع بعلمه ، وختم لي وله بالصالحات.

كما أتقدم بجزيل الشكر وعظيم التقدير إلى سعادة المشرف الثاني فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد أحمد أبو السعادات الذي تفضل مشكوراً بقبول إكمال الاشراف على هذه الرسالة فأسأل الله عز وجل أن يجزيه خير الجزاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

كما أتقدم بجزيل الشكر وعظيم التقدير إلى القائمين على أمر جامعة أم القرى ورابطة العالم الإسلامي، اللتين قامتا بالتنسيق والتعاون فيما بينهما ، من أجل مساعدتي على إكمال دراستي حتى تم قبولي في الدراسات العليا.. فأرجو من الله عز وجل أن يزيد هاتين المؤسستين عزاً ورفعة ، وأن يجزي عني القائمين على أمرهما أحسن الجزاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وأكرر شكري وتقديري للقائمين على أمر كلية الدعوة وأصول الدين والدراسات العليا بجامعة أم القرى ، وإدارة المنح الدراسية برابطة العالم الإسلامي. على ما يبذلونه من الجهود المتواصلة في خدمة العلم وطلابه، وأخص منهم أصحاب السعادة والفضيلة الدكتور علي بن

نفيع العلياني، عميد الكلية، والدكتور أحمد عطية الله الزهراني، وكيل الكلية سابقاً، ورئيس قسم العقيدة حالياً والدكتور عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجي، وكيل الكلية حالياً، والدكتور أحمد الناصر الحمد عميد الدراسات العليا، والشيخ مراد سليمان عرقوسي مدير إدارة المنح الدراسية، برابطة العالم الاسلامي، جزى الله الجميع خير الجزاء. على ما قدموه من مساعدة جليلة في قبولي في الجامعة وما أسدوه من خدمات وما بذلوه من جهد متواصل في خدمة طلاب العلم ، وتوفير كل ما يسهل لهم طريق الحصول على الإستفادة العلمية المنشودة. فجزاهم الله عني وعن طلبة العلم أحسن الجزاء ، وأمدهم بعون من عنده وبارك في جهودهم ، وأمد في أيامهم ، إنه على كل شيء قدير..

وما كان لي أن أنجز هذا العمل إلا بعون من الله - تعالى - ثم بمساعدة قوم آزروني فيه ، وشدوا عضدي ، سواء من داخل جامعة أم القرى ، أم من خارجها ، فلهؤلاء مني جميعاً جزيل الشكر وخالصه ، وعظيم التقدير ووافر الثناء ، وأرجو من الله العلي القدير أن يجزيهم عني أحسن الجزاء ، إنه على ما يشاء قدير.

ثم أتقدم بجزيل الشكر وفائق التقدير إلى شيخي الفاضلين الكريمين، فضيلة الأستاذ الدكتور محمد بن سيدي الحبيب، وفضيلة الأستاذ الدكتور محمد سيد أحمد المسير، على تفضلهما بقبول مناقشة هذه الرسالة وقراءتها، وتقويمها، فأسأل الله عز وجل أن ينفعني بتوجيهاتهما السديدة، وأن يجعل ما قدماه من وقت وجهد في ميزان حسناتهما، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

❊ ❊ ❊

المقدمـــــــة

الحمد لله ربِ العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبدالله الذي بعثه الله رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.. وبعد:

فقد شاءت قدرة الله عز وجل أن يسر لي بمنه وكرمه ، الإلتحاق بقسم العقيدة في الدراسات العليا ، بجامعة أم القرى ، بمكة المكرمة ، رعاها الله تعالى بفضله.

وبعد نجاحي من السنة المنهجية ، أخذت أفكر في موضوع مناسب يصلح للكتابة ، فوقع اختياري بعد إجالة الفكر ، وإمعان النظر ، والبحث ، على موضوع [**السلفية وأعلامها في موريتانيا**].

سبب اختياري لهذا الموضوع :

يعود السبب في اختيار هذا الموضوع إلى رغبتي في المساهمة في بيان منهج السلف وعقيدتهم ، والتعريف بأعلام الفكر السلفي في بلاد شنقيط ، والتنويه بهم ، لأن في ذلك نصراً للحق ، وتشجيعاً لأهله ، واعترافاً لهم بالجميل.

هذا في حين أن العقيدة السلفية لم تنل حظاً من الدراسة في هذا البلد لا من أهله ولا من غيرهم ، ولا يكاد الجيل المعاصر يعرف شيئاً عن العقيدة السلفية في هذا القطر ، لخلو المكتبات من أي دراسة مرجعية علمية ، تتناول العقيدة في هذه المنطقة ، وإن حوت هذه المكتبات شتاتاً من مؤلفات الشناقطة التي قلما تتحدث عن الجانب العقدي السلفي.

ولا نرى ضرورة لعرض الأسباب التي جعلت الباحثين في الدراسات الإسلامية لا يتوجهون ولو قليلا إلى البحث في الإتجاهات العقدية ، والدينية ، بوجه عام في هذا البلد ، على الرغم من أن علماء الشناقطة ما حلوا بقطر من الأقطار الإسلامية إلا وخلفوا فيه ذكراً حسناً ، واستأثروا بإعجاب أهله.

ولما كان هذا الموضوع بحاجة إلى الدراسة رأيت أن أكتب فيه لأضيف إلى المكتبة الإسلامية إضافة متواضعة على قدر جهدي ، ربما كانت قاصرة ، ولكنها على كل حال جديدة في موضوعها ، غير مسبوقة في مجالها.

وقد حاولت أن نبدأ البداية الصحيحة بالتأصيل لمنهج السلف وعقيدتهم ، وأن نؤسس من منظوري - القاصر - لتاريخ الفكر العقدي السلفي في بلاد شنقيط ، ونلقي الضوء على المسار العقدي في المنطقة ، لا حباً في ركوب الغرر ، أو الخوض فيما غم ، بل رغبة في سد فجوة في تاريخ الدراسات العقدية يحلو للدارسين غض الطرف عنها وتجاوزها ، إما

إشفاقاً على النفس من غموضها وعناء البحث فيها ، وإما اتقاء لما قد تسبب للباحث عنها من حرج إن هو حاول أن يزعزع أو يشكك فيما قد قر في الأذهان بشأنها.

وقد رأيت من المناسب والمفيد أن نقدم لذلك بنبذة تعرف بالقطر الموريتاني ، وتلقي الضوء على تاريخ دخول الإسلام فيه ، وعلى الحالة الإجتماعية والثقافية والدينية في تلك البلاد.

الصعوبات التي واجهتني :

لا أريد أن أستعرض جميع الصعوبات التي واجهتني في إعداد هذا البحث فهي محسوسة من نبض الرسالة ، معروفة لكل من أراد البحث في موضوع بكر ، ولو في بيئة أوفر إمكانيات من تلك التي بحثت فيها..

وأكتفي فقط بالإشارة إلى أنني ركبت الصعب ، وقررت أن أخوض في المجهول عندما تصديت للكتابة في هذا الموضوع ، فقد أقدمت على البحث فيه ودقات قلبي تتسارع خشية أن تصرفني ضحالة المادة العلمية عن إماطة اللثام عن السلفية وأعلامها في القطر الموريتاني ، لصعوبة جمع مصادر ومراجع هذا البحث لتفرقها في مكتبات أقطار متعددة ، وندرة الكثير منها ، وخاصة المخطوطات التي لا يتم الحصول عليها إلا بشق الأنفس.

وأقول - والله على ما نقول شهيد - إنني قد عانيت مشقات كثيرة في إعداد هذا العمل المتواضع ، وصرفت فيه جهداً غير هين ، وتطلب إنجازه حمل عصا التسيار ، والإصغاء إلى كثير من المشايخ البارزين ، وأهل العلم الذين يحملون في صدورهم بقية من أخبار السالفين.

لقد تطلب إنجاز هذا البحث المتواضع ركوب كثير من الصعاب ، والمعاناة في الرحلات داخل المملكة العربية السعودية ، وفي داخل موريتانيا أثناء الرحلة العلمية التي قمت بها إليها ، وذلك لجمع المادة العلمية والحصول على المصادر والمراجع الضرورية لهذا البحث وخلال هذه الرحلات قابلت عدداً كبيراً من العلماء والدعاة المهتمين بالدعوة إلى العقيدة السلفية وخاصة في القطر الموريتاني ، وحصلت منهم على المعلومات التي لها علاقة بالبحث ، موثقة بتوقيعهم ، أو مسجلة بأصواتهم في أشرطة. وفي الوقت ذاته ، راسلت عدداً من العلماء ، والدعاة السلفيين الموريتانيين الموجودين في بعض الدول العربية الأخرى ، وأرسلوا إلي المعلومات التي طلبت منهم ، مكتوبة ، ومؤرخة ، وموثقة بتوقيعهم.. وأثناء هذه الرحلات ، والمراسلات ، حصلت على عدد كبير من الكتب والبحوث التي تتناول جوانب مختلفة من مجالات الحياة في البلاد ، والتي لها علاقة بالموضوع ، وعكفت على دراسة مئات المصادر والمراجع المخطوطة والمطبوعة ، واستخرجت منها كل ما له صلة بموضوع البحث ، من قريب أو من بعيد.

وبعد جهد متواصل ، تمكنت بعون الله وتوفيقه ، من جمع المادة العلمية التي غطت معظم جزئيات الموضوع ، وأبرزت بقدر المستطاع وجود السلفية وأعلامها في مراحل مختلفة من تاريخ البلاد.

خطة البحث :

اقتضت طبيعة البحث أن يشتمل بعد المقدمة على ثلاثة عشر فصلا ، يسبقها تمهيد ، وتليها خاتمة ، وفيما يلي تفصيل ذلك.

التمهيد : نبذة عن موريتانيا

وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : التعريف بموريتانيا.

المبحث الثاني : دخول الإسلام في موريتانيا.

المبحث الثالث : المجتمع الموريتاني ، طابعه وطبقاته.

المبحث الرابع : ثقافة المجتمع الموريتاني من خلال المحاضر..

وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول : التعريف بالمحاضر ، نشأتها وتطورها.

المطلب الثاني : أهداف المحاضر.

المطلب الثالث : عوامل انتشار التعليم المحضري.

المطلب الرابع : نظام المحاضر .

المطلب الخامس : ظروف الدراسة في المحاضر.

الفصل الرابع : دخول الأشعرية في المغرب وانتشارها في موريتانيا.

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : دخول الأشعرية في المغرب .

المبحث الثاني : انتشار الأشعرية في موريتانيا.

الفصل الخامس : عودة الفكر السلفي إلى البلاد.

وفيه تمهيد ومبحثان :

التمهيد : حالة البلاد قبل دعوة الإمام ناصر الدين.

المبحث الأول : الإمام ناصر الدين ، دعوته وجهاده.

المبحث الثاني : مدرسة المجيدري.. وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : نشأة مدرسة المجيدري والتعريف بمؤسسها.

المطلب الثاني : حاملا لواء مدرسة المجيدري من بعده.

المطلب الثالث : منهج مدرسة المجيدري في العقيدة.

الفصل السادس : الشيخ [باب] ومنهجه في العقيدة .

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : التعريف بالشيخ باب .

المبحث الثاني : منهجه في العقيدة .

الفصل السابع : تلاميذ الشيخ باب وتأثيره العام على العقيدة :

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : تلاميذه .

منهج البحث

سلكت في هذا البحث المنهج الذي يتمثل في الأمور التالية..

١- ركزت على نقاط اعتبرتها دليلا على سلفية من وجدت فيه وهي : دعوى الاقتداء بالسلف الصالح في عقيدتهم ، ومنهجهم ، وإقامة الدليل على ذلك بالأمور التالية:

أ- التمسك بالكتاب والسنة في أصول الدين وفروعه ، وفي السلوك.

ب - وجود بعض الأمثلة التي تدل دلالة واضحة على صدق هذه الدعوى ، وأن صاحبها مرتض لمذهب السلف في العقيدة ، ومتبع له ، وفي الغالب تكون الأمثلة من مبحث الصفات ، الذي هو أصعب المباحث العقدية ، لوقوف الأشاعرة بالمرصاد ، وهم الغالبية في المنطقة - لمن يخالف مذهبهم ، ويرفض التأويل في آيات الصفات وأحاديثها.

ج - نبذ البدع بجميع صورها وأشكالها ، وخاصة بدعة علم الكلام وبدعة التصوف ، المنتشرتين في شمال وغرب إفريقيا.

د - إظهار البراءة والتجرد من جميع الفرق المنحرفة المخالفة لأهل السنة والجماعة.

٢- ربما أكثر من النقول والشواهد لتقرير قضية معينة ، وغالباً يكون ذلك لبيان موقف السلف من مسألة مهمة ، أو لإثبات سلفية من تناولتهم في البحث لأن كثرة النقول والشواهد تزيد الموقف جلاء..

٣- خرجت الآيات القرآنية بذكر السورة ، ورقم الآية ، وخرجت الأحاديث النبوية والآثار ، إلا جزءاً من حديث واحد اتفق عليه البخاري ومسلم ، ورد في هامش الرسالة ضمن كلام للحافظ الذهبي نقلته من كتابه سير أعلام النبلاء.

٤- رجحت بين الأقوال المتعارضة ، ودعمت ترجيحي بالدليل حسب الاستطاعة.

٥- ربما أعلق في الهامش على الأقوال المخالفة لمذهب السلف وأرد عليها ، وذلك حين يكون جعل الرد عليها في صلب الموضوع يؤدي الى انقطاع التسلسل الفكري للموضوع الأساسي.

٦- حرصت على أن تكون مصادر البحث أصلية ، واقتضت طبيعة البحث أن تكون فيه مصادر ، ومراجع حديثة ، بل إن بعض الفصول قد اعتمدت فيه على الدراسة الميدانية ، والمقابلات الشفوية.

٧- التزمت بذكر المصدر الذي تلقيت عنه المعلومة سواء أخذتها من كتاب أو في مقابلة شفوية ، أو غير ذلك ، مع التوثيق الكامل الذي يتناسب مع المصدر.

٨- شرحت المفردات اللغوية التي تحتاج إلى إيضاح وبيان من كتب اللغة المعتمدة.

٩- شرحت الأمثال التي وردت في البحث ، وبينت معانيها ، سواء في ذلك ما هو من الأمثال العربية القديمة ، أو الأمثال الموريتانية ، التي اشتهرت عنهم بلهجتهم [الحسانية].

١٠- شرحت الألفاظ والمعاني التي وردت بغير اللغة العربية سواء باللهجة الموريتانية [الحسانية] أو بغيرها.

١١- عرفت ما رأيت أنه بحاجة إلى التعريف من المصطلحات العلمية ، والفرق ، والدول ، والقبائل ، والمدن ، والقرى ، والأماكن ، والمواقع الحربية.

١٢- ترجمت لمن ظهر لي أنه يحتاج إلى ترجمة ، إما لأهمية قوله أو لكونه عالماً مغموراً ، أو لكثرة النقل عنه ، أو لأهميته في الموضوع ، الذي ترجم له فيه ، ولم أترجم للمشهورين من الصحابة ، ومن بعدهم ، وذلك لكثرة من وردت أسماؤهم من الأعلام كثرة ملحوظة ، فربما يؤدي الاشتغال بتراجمهم إلى خروج البحث عن طبيعته ، وتضخم الرسالة الى حد فوق العادة ، إذ لو ترجمت لكل علم ورد إسمه لكان هذا البحث في أسفار عدة.

وبعـــد ، فقد بذلت جهدي في هذا البحث المتواضع ، فإن كنت قد وفقت فيه فذلك من فضل الله ومنه وكرمه ، وإن كان غير ذلك فمني ومن الشيطان.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وحسبي أنني لم أدخر وسعاً ، ولا آليت جهداً ، ولكن أنـــى يكون لبشر أن يدرك الكمال ، والكمال المطلق لله عز وجل وحده؟..

هذا ، وأسأل الله - تعالى - أن أكون قد وفقت فيما أردت ، وأن يجعله وسيلة إلى مرضاته ، إنه سميع مجيب ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنبت.

وصلى الله على نبينا محمد خير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله ، وعلى آله وصحبه وسلم.

الطيب بن عمر بن الحسين الموريتاني

مكة المكرمة - ١٤١٣/١١/١٥هـ

التمهيـــــــد
نبــــــذة عن موريتـــانيا

وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول : التعريف بموريتانيا.

المبحث الثاني : دخول الإسلام في موريتانيا.

المبحث الثالث : المجتمع الموريتاني طابعه وطبقاته.

المبحث الرابع : ثقافة المجتمع الموريتاني من خلال المحاضر:

وفيه سبعة مطالب :

التمهيد : لمحة عن بداية التعلم الاسلافي في المنطقة قبل نشأة المحاضر

المطلب الأول : التعريف بالمحاضر ، نشأتها ، وتطورها.

المطلب الثاني : أهداف المحاضر.

المطلب الثالث : عوامل انتشار التعليم المحضري.

المطلب الرابع : نظام المحاضر.

المطلب الخامس : ظروف الدراسة في المحاضر.

المطلب السادس : حركة التأليف في المحاضر.

المطلب السابع : حركة التأليف في المحاضر.

المبحث الخامس : الاتجاهات الدينية في المجتمع الموريتاني

OOOO

المبحث الأول
التعريف بموريتانيا

الجمهورية الإسلامية الموريتانية(١) هي الدولة الثالثة بعد المائة

---

١) موريتانيا كلمة لاتينية معناها أرض الرجال السمر ، معهد البحوث والدراسات العربية ، الجمهورية الإسلامية الموريتانية ، دراسة مسحية شاملة ، ص ٣ ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٧٨م ، ومحمد يوسف مقلد : موريتانيا الحديثة ، ص ٤١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٦٠م.

والجدير بالذكر ، أن بلاد موريتانيا عبر تاريخها الطويل عرفت بأسماء كثيرة ، لعل من أشهرها بلاد صنهاجة الجنوب ، وصنهاجة الرمال ، وصحراء الملثمين ، وعرفت أثناء قيام دولة المرابطين ببلاد لمتونة ، وبعد أن أفل نجم المرابطين أصبح يطلق عليها بلاد [التكرور] وبعد بناء مدينة شنقيط الجديدة عام ٦٦٠هـ أصبح يطلق عليها بلاد شنقيط ، وفي القرن الرابع عشر الهجري أطلق عليها باب بن الشيخ سيدي ، مصطلح [تراب البيضان] ولما وقعت موريتانيا في قبضة الاستعمار الفرنسي رأت فرنسا أن هذه التسميات لا تخدم أغراضها الاستعمارية ، فابتعثت لها هذا الاسم الروماني القديم من مرقده [موريتانيا] وذلك على إثر مهمة استطلاعية قام بها الضابط الفرنسي كابلاني في المنطقة ، وقدم تقريراً عنها ، واقترح فيه هذه التسمية ، فصدرت الموافقة على اقتراحه في قرار وزاري فرنسي بتاريخ ١٨٩٩/١٢/٢٧م ، وذلك إحياءاً لتسمية قديمة كانت تطلق على مملكة رومانية قديمة قامت في شمال غرب إفريقية تحدها من الجنوب سلسلة جبال أطلس وتمتد على ساحل الأطلنطي حتى نقطة على دائرة عرض ٣٠° شمالا فكانت تغطي المنطقة التي تشغلها المغرب حالياً والجزء الغربي من الجزائر موزعة على ثلاثة أقسام :

- موريتانيا القيصرية.
- موريتانيا السيتيفانية.
- موريتانيا الطنجية.. ثم اتسع مدلول الكلمة ليشمل جميع سكان شمال غرب القارة الإفريقية

من دول الأمم المتحدة ، والتاسعة عشرة من دول الجامعة العربية ، وتقع على الحدود الغربية للوطن الإسلامي بين خطي الطول ٥-١٥ شرقاً وبين دائرتي العرض ١٢-٢١ شمالا ، ويحدها المحيط الأطلسي غرباً ، ومن الجنوب السنغال ، ومن الشرق والجنوب الشرقي دولة مالي ، ومن الشمال الشرقي الجزائر ، ومن الشمال الصحراء الغربية.

ومساحتها تربو على مليون كيلومتر مربع ، وعدد سكانها مليون ونصف ، كلهم مسلمون.

وقد نالت استقلالها عن فرنسا عام ١٩٦٠م(١).

وكان أغلب السكان يعيشون قروناً عديدة على الرعي والزراعة(٢).

وقد ظل اقتصاد البلاد يقوم على مصادر أربعة هي :

الذين هم ثمرة أخلاط العرب والبربر.. معهد البحوث ، المرجع السابق ص ٤١٩-٤٢٠ ، ومحمد يوسف مقلد : موريتانيا الحديثة ص ١٢٩ ، وعبدالله بن حسن بن حميدة : نشأة الشعر العربي الفصيح في بلاد شنقيط ، ص ٣ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب ١٩٨٦م.

١) أحمد عطية الله : القاموس السياسي ص ١٥٦٦ ، طبعة دار النهضة ، القاهرة ، ١٩٨٠م ، ومعهد البحوث ، المرجع السابق ص ز وما بعدها.. هذا وقد انضمت موريتانيا بعد استقلالها إلى منظمة الامم المتحدة سنة ١٩٦١م ، وفي سنة ١٩٦٣م انضمت إلى منظمة الوحدة الافريقية ، وفي سنة ١٩٦٤م كانت من بين الأعضاء والمؤسسين لرابطة العالم الإسلامي ، وفي سنة ١٩٦٩م انضمت لمنظمة المؤتمر الإسلامي ، وفي سنة ١٩٧٣م انضمت لجامعة الدول العربية.. محمد الصوفي بن محمد الأمين : المحاضر الموريتانية وآثارها التربوية في المجتمع الموريتاني ، ص ١٤ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الملك سعود ، الرياض ، كلية التربية ١٤٠٦هـ.

٢) معهد البحوث ، المرجع السابق ص ٤٩٥ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ١٣.

الثروة الحيوانية ، والزراعة ، والتجارة ، ومناجم الملح في [كدية الجل](١) حيث كان الملح من أهم ما تصدره البلاد إلى الأقطار المجاورة ، ويشترون بثمنه ما يحتاجونه من المأكولات والملبوسات ، وغير ذلك(٢).

وقد زار ابن بطوطة مدينة [ولاته](٣) في رحلته المشهورة التي بدأها من مدينة طنجة في عام ٧٢٥هـ(٤) فوصف الحركة التجارية في هذه المدينة وذكر أن القوافل تأتي من الأقطار المجاورة لشراء الملح من [كدية الجب] ، حيث قال:

«.. يجلب إليهم تمر درعة ، وسجلماسة ، وتأتيهم القوافل من بلاد السودان فيحملون الملح ، ويباع الحمل منه بولاته بثمانية مثاقيل إلى عشرة ، ويباع في مدينة مالي بعشرين مثقالا ، وربما وصل إلى أربعين مثقالا ، وبالملح يتصارفون كما يتصارف بالذهب والفضة ، يقطعونه قطعاً ويتبايعون به»(٥).

وتعتبر مدينة ولاته ، من أهم المدن التي ظلت لفترة طويلة ممراً رئيساً

---

١) تقع مناجم الملح في كدية الجل في شمال البلاد ، وهي تابعة لمديرية [افديرك] الولاية الحادية عشرة من ولايات موريتانيا الاثنتي عشرة.

٢) راجع : محمد يوسف مقلد شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون ص ٧٥-٧٨ الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٢م.

٣) تقع ولاته في شرق البلاد ، وهي تابعة لمديرية النعمة الولاية الأولى من ولايات موريتانيا.

٤) رحلة ابن بطوطة ص ١٠ ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، [د. ت].

٥) المصدر السابق نفسه ص ٦٥٨.

للقوافل التجارية الشيء الذي جعلها منطقة تجارية حيوية ، ويذكر أن مقدار التجارة التي كانت تجيء إلى إقليم ولاته ، وتصدر عنه كل يوم إلى كل صوب مقدار مذهل ، وأن أسواق المدينة كانت مليئة بالذهب والبضائع الفاخرة ، ذات الثمن العالي(١).

هذا عن اقتصاد البلاد في العصور الماضية ، أما في الحاضر فإن اقتصاد البلاد يقوم على الثروة الحيوانية ، والسميكة ، والزراعية ، والتعدين ، نظراً لوجود معادن الحديد ، والنحاس ، بالإضافة إلى التجارة(٢) .

ولإيضاح الصورة عن موريتانيا انظر صورة الخريطة التالية:

---

١) معهد البحوث ، المرجع السابق ص ٥، وراجع رحلة ابن بطوطة ص ٦٥٨.

٢) أحمد عطية الله ، المرجع السابق ص ١٥٦٦ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ١٤.

خريطة الجمهورية الإسلامية الموريتانية

المبحث الثاني : دخول الإسلام إلى موريتانيا

تمهيـــــد :

[لمحة عن الديانات السائدة في المنطقة قبل دخول الإسلام]

يقتضي الحديث عن دخول الإسلام في موريتانيا والمراحل التي مر بها أن نلم ولو قليلا بالديانات التي كانت سائدة في المنطقة قبل الفتح الإسلامي لهذه البلاد ، وهو ما سنعطي عنه لمحة قصيرة.. فقد كانت أكثرية صنهاجة تدين بالمجوسية ، كما أن بعضها يدين باليهودية ، ويدين بعض آخر بالنصرانية ، غير أن كثيراً من المصادر عندما يتطرق إلى دخول الإسلام في موريتانيا يكتفي بالقول بأن [الملثمين](١) قبل أن يستضيئوا بنور

---

١) عرفت قبائل صنهاجة الجنوب أو صنهاجة الرمال بالملثمين ، لاتخاذهم اللثام شعاراً يميزهم عن غيرهم من قبائل المنطقة ، فلا يفارقون اللثام في حال من الأحوال ، وقد اختلف في سبب اختيار اللثام شعاراً لهذه القبائل.. فيرى البعض أن ذلك لأسباب صحية تعود لاتقاء الحر والبرد والغبار ، وقيل : إن سبب اللثام هو أن طائفة من لمتونة خرجوا مغيرين على عدوهم فجاء العدو بعدهم إلى بيوتهم ، وليس فيها إلا المشايخ والصبيان والنساء ، فلما تحقق المشايخ من العدو أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجالَ ويتلثمن حتى لا يعرفن ، ويلبسن السلاح ، فلما أشرف العدو وظنهم رجالا فهابهن ، وقبل أن يغادر العدو أقبل رجال الحي فبقي العدو بينهم وبين النساء وقتل لمتونة من عدوهم خلقاً كثيراً ، ومن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنة يلازمونه.. ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ٧٦/٨ ، راجع أصوله وعلق عليه نخبة من العلماء ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب العربي [د. ت] والدكتور حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٥٠ ، دار الفكر العربي [د. ت]. وقيل : سبب اللثام هو شدة غلبة الحياء ، وقد مدحهم أبو محمد بن حامد الكاتب بذلك حيث قال:

قوم لهم درك العلا من حمير   وإن انتموا صنهاجة فهم هم

لما حووا إحراز كل فضيلة   غلب الحياء عليهم فتلثـــموا

الكامل لابن الأثير ، المصدر السابق ٧٦/٨ ، ويرى الدكتور أحمد مختار العبادي أن الملثمين

الإسلام كانوا على دين المجوسية(١) ، وبعض المراجع يذكر أنهم كانوا على ملة من المجوسية ، واليهودية ، مع آثار توحي بأن النصرانية منهم غير بعيدة.

وقد ذكر الدكتور حسن أحمد محمود : أن اليهودية والنصرانية كانتا منتشرتين في المنطقة بقوله : «إن النصرانية قد انتشرت في المغرب الأقصى كما انتشرت اليهودية من قبل ، بل إن اليهودية انتشرت في قوات ، وتافلالت ، ووادي درعة ، ووادي نوف ، وظلت باقية هناك حتى القرن الخامس الهجري»(٢).

وهذه المناطق غير بعيدة من مضارب الملثمين ، كما أن العلاقة بين فرعي صنهاجة(٣) في الشمال والجنوب ظلت قائمة ، والمعروف أن صنهاجة

أخذوا عادة اللثام عن زنوج إفريقيا المحاربين الذين استخدموا اللثام والاقنعة لدفع الشر عنهم.. في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٨م.

١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ١٠٦/٦، ١٨٢ ، مؤسسة جمال الدين للطباعة والنشر ، بيروت ١٣٩٩هـ والناصري : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ٤/٢ تحقيق : ولدي المؤلف : جعفر ومحمد ، طبعة دار الكتاب ، الدار البيضاء ١٩٥٤م ، ومحمد يوسف مقلد : موريتانيا الحديثة ص ٥٦.

٢) قيام دولة المرابطين ص ٥٧.

٣) تنتمي صنهاجة إلى قبيلة البرانس الكبرى ، وتتكون صنهاجة من عدة قبائل تمتد فروعها إلى مختلف أنحاء المغرب ، فهناك صنهاجة الشمال في المغرب الأدنى والأوسط ، وهناك صنهاجة الجنوب التي كانت قبائلها تعبش في صحراء شنقيط ، التي تسمى اليوم موريتانيا جنوب

الجنوب تنتسب إلى قبيلة البرانس الكبرى التي كان كسيلة بن عزم يتزعمها ، كان كان يتزعم صنهاجة الشمال عبدالملك بن سكرديد ابن رومي وكانا يدينان بالنصرانية»(١).

وربما كان لهذه الصلات القائمة على الإرتباط القبلي أثر في عقائد صنهاجة الجنوب ، أضف إلى ذلك أن الصحراء على عكس ما قد يتبادر إلى الذهن - كانت جسراً يربط باستمرار بين بلاد المغرب وغرب إفريقيا مروراً بديار صنهاجة الرمال التي ظلت مساراً رئيساً للقوافل(٢).. كل ذلك يجعلنا نفترض أن بعض الملثمين يمكن أن يكون اعتنق النصرانية بحكم الخبرة والاحتكاك ، وإن كانت المصادر لا تسعفنا في هذا الافتراض.

دخول الإسلام في المنطقة:

وصل الإسلام إلى بلاد المغرب بصفة عامة في القرن الأول للهجرة بلا خلاف ، وذلك عن طريق الغزوات التي قام بها الفاتحون لمنطقة شمال

المغرب الاقصى ، أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١٥-١٦ ، وعبداللطيف الدليشي الخالدي : من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة الشيخ محمد أمين الشنقيطي ، ص ٢١-٢٢ ، الطبعة الأولى ، مؤسسة المطبوعات العربية ، بيروت ١٤٠١هـ.

١) ابن خلدون : العبر ١٠٨/٦ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٥٦-٥٧ ، وأحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٠.

٢) عن طريق القوافل التي تربط شمال القارة الإفريقية بجنوبها ، راجع محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٧٥ ، وما بعدها ، ومعهد البحوث ، المرجع السابق ص ٤٣٠.

إفريقيا والأندلس ، أمثال : معاوية بن خديج الكندي(١) ، وعقبة بن نافع الفهري (٢) وأبي المهاجر دينار(٣) وحسان بن النعمان الغساني(٤)

---

١) معاوية بن خديج بن جفنة بن فتيرة الكندي الخولاني المصري ، صحابي ، على قول الاكثرين ، شهد فتح مصر ، وقام بفتوحات في بلاد المغرب ، وذهبت عينه في قتاله مع البربر [ت ٥٢هـ] ابن كثير : البداية والنهاية ٨/٦٠-٦١ ، وأحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس ص ٣٨.

٢) عقبة بن نافع الفهري : بعثه معاوية بن أبي سفيان إلى إفريقية فافتتحها واختط مدينة القيروان ، وبناها ، غزا أقواماً من البربر والروم ، وقتل شهيداً رضي الله عنه عام ٦٣هـ ، ابن عبدالحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٩ ، طبعة ليدن ١٩٣٠م ، وابن كثير : البداية والنهاية ٢١٧/٨.

٣) أبو المهاجر دينار ، تولى إمارة جيش إفريقية في الفترة التي بين ولايتي عقبة بن نافع الأولى والثانية ، أي من سنة ٥٥هـ إلى سنة ٦٠هـ ، وكان رجلا سياسياً بارعاً عمل على تحطيم الحلف الذي كان قائماً بين أوربة من البربر بزعامة كسيلة بن لمزم وبين الروم ، ونجح في إنضمام كسيلة وقومه إلى جانب المسلمين ، راجع ابن عبدالحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٩٧ ، والسيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ١٢٩-١٣٠ ، الناشر : مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، الإسكندرية [د. ت].

٤) حسان بن النعمان الغساني ، تولى امارة جيش إفريقية في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان سنة ٧٦هـ واستطاع أن يستولي على قرطاجة وغيرها من المدن الساحلية ، واستمال قبائل البربر فاتخذ منهم عمالا وقواداً وعرب الدواوين ، الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقيا والمغرب ، ص ٥٥-٦٧ ، تحقيق الدكتور المنجي الكعبي ، طبعة تونس ١٩٦٧م ، والدكتورة عصمت عبداللطيف : دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ص ٣٨ ، الطبعة الأولى دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٨هـ.

وموسى بن نصير(١) وغيرهم(٢).

وقد اختلف في تاريخ فتح موريتانيا ، وفي القائد الذي فتحها فبعض الروايات تنص على أن عقبة بن نافع إبان ولايته الأولى(٣) افتتح مواضع من موريتانيا ، حتى وصل الى ودان(٤) وما وراءها من الواحات

---

١) هو أبو عبدالرحمن موسى بن نصير اللخمي مولاهم ، افتتح بلاد المغرب والأندلس ، وغنم أموالا لا تعد ولا توصف وله مقامات مشهورة هائلة ، وكان ذا رأي وتدبير وحزم ، وخبرة بالحرب ، [ت ٩٨هـ] ابن كثير : البداية والنهاية ١٧١/٩-١٧٤ ، والرقيق القيرواني : تاريخ إفريقيا والمغرب ص ٦٨،٨٩.

٢) عن الفاتحين لبلاد المغرب والأندلس : راجع ابن عبدالحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٢-٢٠٤ ، وأحمد مختار العبادي في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٦ وما بعدها ، والدكتور السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٦ وما بعدها ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١م.

٣) تولى عقبة بن نافع إمارة جيش إفريقية مرتين : الأولى عام ٥٠هـ واستمرت إلى عام ٥٥هـ والثانية عام ٦٠هـ واستمرت إلى وفاته عام ٦٣هـ أو ٦٤هـ ، وقد اشتهرت ولايته الأولى بتأسيس مدينة القيروان كقاعدة عسكرية ثابتة للجيش الإسلامي الذي يقوده ، أما ولايته الثانية فقد تميزت بحملته الكبرى التي وصل فيها الى المحيط الأطلسي ، ابن الخطيب ، القسم الثالث من أعمال الأعلام ص ٢ ، تحقيق أحمد مختار العبادي ، ومحمد ابراهيم الكتاني : الدار البيضاء ١٩٦٤م ، وابن عبدالحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، وأحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٨-٤٠.

٤) تقع مدينة ودان على بعد مائة كيلومتر إلى الشمال الشرقي من مدينة شنقيط ، وهما تابعتان لمديرية [اطار] عاصمة الولاية السابعة من ولايات موريتانيا الأثنتي عشرة ، الخليل النحوي : المرجع السابق ص ٧١.



٣٨٩٨

الجنوبية(١).

ويرى البعض أن عقبة بن نافع في حملته هذه قد اتخذ طريقاً وسط الصحراء الوسطى ، إلى بلاد الزنوج ، ثم اتجه غرباً إلى مناطق من موريتانيا حتى وصل إلى ودان(٢).

غير أن هذه الروايات لا ينبغي التعويل عليها بصدد إسلام قبائل صنهاجة الجنوب ، لأن المسلمين في هذه الفترة كانت بينهم وبين هذه البلاد أقاليم كثيرة لم تفتح ، فمن المستبعد أن يفتحوا أقصى جنوب المغرب قبل أن يتم فتح الذي هو أدنى.

وعليه ، فإن بعض الباحثين يشكك في هذه الروايات ويرى فيها غلواً وسوء تقدير(٣).

والناظر في تاريخ فتح الشمال الإفريقي يلاحظ أن أطراف المغرب الجنوبية لم يحصل فيها صدام مباشر يذكر بين الفاتحين المسلمين ، وأهل هذه البلاد إلا في الحملة المشهورة التي قادها عقبة بن نافع بعد

---

١) ابن عبدالحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٤ ، وأحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٨ ، وعبدالله حميدة : المرجع السابق ص ١١.

٢) محمد العربي : الساقية الحمراء ووادي الذهب ١٩٣/١ ، طبعة دار الكتاب : الدار البيضاء [د. ت] وعبدالله حميدة : المرجع السابق ص ١١ ، وعصمت عبداللطيف : المرجع السابق ص ٣٦-٣٧.

٣) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٦٢.

ولايته الثانية على إفريقية من قبل يزيد بن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، واكتسح فيها المنطقة حتى وصل إلى موريتانيا ، واستشهد وهو عائد من هذه الغزوة إلى القيروان عام ٦٣هـ أو ٦٤هـ كما سيأتي بيانه بعد قليل.

ولهذا فإن من المقبول أن يكون دخول الإسلام في موريتانيا قد حصل في هذه الغزوة لأن ذلك أقرب إلى الحقيقة التاريخية ، وإن لم يكن حاسماً بدوره.

وقد وصف لفيف من المؤرخين هذه الغزوة ، وما نتج عنها ، يقول ابن خلدون:«... ثم جاء عقبة بعد أبي المهاجر فافتتح حصون الفرنجية ولقبه ملوك البربر(١) بالزاب ، وتاهرت ، ففضهم جمعاً بعد جمع ، ودخل المغرب الأقصى وأثخف في المصامدة ، ودوخ بلادهم حتى حملهم على الاسلام ، ثم جاز إلى السوس لقتال من بها من صنهاجة أهل اللثام ، فأثخن فيهم ، وقاتل حسوفه وراء السوس ، وقف راجعاً»(٢).

ويظهر من كلام بعض المؤرخين أن عقبة بن نافع رضي الله عنه في

---

١) البربرة كثرة الكلام والجلبة ، والبربر جبل ، وجمعه البرابرة وهم بالمغرب ، الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ص ٤٤٥.

٢) ابن خلدون ، العبر ٦٠٨/٦ ، والناصري الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٧٣/١ ، وما بعدها ، والسيد عبدالعزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣٨ وما بعدها ، وأحمد مختار العبادي في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤١.

هذه الحملة لم يتوقف عند هذا الحد ، بل إنه قد بث سراياه إلى ضواحي البلاد وأطرافها ، حتى بلغت لمنونة ، وجدالة ، ومسوفة ، وغيرهم(١).

وفي هذه الحملة يذكر ابن غداري المراكشي : إنه عندما وصلت جيوش عقبة إلى المحيط الأطلسي أقحم فرسه في البحر حتى وصل الماء إلى بطنه ، ثم رفع يديه إلى السماء قائلا : يا رب ، لولا أن البحر منعني لمضيت في البلاد مدافعاً عن دين: مقاتلا من كفر بك»(٢).

وبعد أن أتم عقبة بن نافع رضي الله عنه - فتح هذه البلاد توجه عائداً إلى القيروان ، ولعل ذلك كان نتيجة لخبر ملفق بلغه عن جيش المسلمين الذي بقي في القيروان ، إذ أنه لم يكد يصل المغرب الأوسط حتى بعث بمعظم جنده على عجل إلى القيروان ، ولم يستبق معه إلا جزءاً صغيراً من جيشه(٣).

---

١) محمد المامي بن الشيخ ماء العينين ، الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنقيط ، وعربية المغاربة من مركب وبسيط ص ١٥ ، مطبوعات دار العلم الدار البيضاء ، ١٩٥٧م ، وبول مارفي : كتبه الشرقيون ص ١٣،١٦،١٧ ، عربه وعلق عليه ووضع له ملحقات : محمد محمود بي ودادي ، مطبعة زيد بن ثابت بدمشق ، [د. ت].

٢) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢٧/١ ، تحقيق : ليفي بروفنسال وكولان ، دار الثقافة ، بيروت [د. ت] ومحمد يوسف مقلد : موريتانيا الحديث ص ٦٧ ، والسيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣٩.

٣) ابن خلدون ، العبر : ١٠٩/٦ ، وأحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤١.

ومن الغريب أن عقبة توجه بهذا الجزء الصغير من جيشه إلى مدينة تهوده ليستولي عليها ، ويجعلها قاعدة عسكرية دائمة لقواته على غرار القيروان ، ولكنه ما كا يصلها حتى اعترضه كسيلة بن لزم في جيش كبير من البربر والبيزنطيين وأمام هذا الحشد الهائل أحس عقبة بنهاية الأمر ، فطلب من أبي المهاجر دينار الذي كان والياً على المغرب قبله أن ينجو بنفسه ، ولكنه رفض ورغب في الشهادة ، ودارت المعركة عند بلدة تهودة عام ٦٣هـ أو ٦٤هـ(١).

واستشهد عقبة بن نافع ، وأبو المهاجر دينار - رضي الله عنهما- وسيفاهما في أيديهما ، واستشهد معهما عدد كبير من المسلمين ، وأسر الباقون(٢).

وهكذا تحقق ما كان يسعى إليه عقبة بن نافع رضي الله عنه وهو الشهادة في سبيل الله حيث أنه لما عزم على هذه الغزوة جمع أولاده وذويه

---

١) اختلف المؤرخون في تحديد السنة التي دارت فيها هذه المعركة واستشهد فيها عقبة بن نافع الفهري ، انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، المرجع السابق ص ٣٩.

٢) ابن عبدالحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص ١٩٩ ، وابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١/٢٨-٢٩. وأحمد مختار العبادي في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤١ ، والسيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣٩ ، وقد دفن عقبة بن نافع ببلدة تعرف الآن ببلدة سيدي عقبة ، وهي عبارة عن واحة جميلة من النخيل بالقرب من مدينة بسكرة بأرض الزاب في جنوب قسنطينة بالجزائر ، أحمد مختار العبادي في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤١-٤٢ ، وبول مارتي كنته الشرقيون ص ١٣.

وألقى فيهم وصاياه الأخيرة ثم قال: «إني قد بعت نفسي من الله تعالى ، وعزمت على قتال من كفر به ، حتى أقتل فيه وألحق به ، ولست أدري أترونني بعد يومي هذا أم لا ، لأن أملي الموت في سبيل الله»(١).

وليس من شك في أن هذا الحدث الأليم الذي حصل للمسلمين في موقعة تهوده وهو القضاء على عقبة بن نافع وما كان معه من الجيش الإسلامي كان له أعظم الأثر على المسلمين عامة ، ولا سيما جيش المسلمين في إفريقية ، الذي كان يقوده عقبة بن نافع رضي الله عنه.

وهذا ما حصل بالفعل ، حيث ترتب على ذلك انسحاب الجيش الإسلامي من مدينة القيروان إلى طرابلس(٢).
كما ترتب عليه أيضاً ارتداد كثير من قبائل البربر عن الإسلام ، واستيلائهم على مدينة القيروان بقيادة كسيلة بن لزم البربري النصراني(٣).

---

١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢٣/١-٢٤ ، والسيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣٧.

٢) ابن عبدالحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٩-٢٠١ ، وأحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ٤٢.

٣) ابن عذارى : البيان المغرب ٣٠/١-٣١ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٦٣.

وهذا يعني ضياع جهود كبيرة بذلها المسلمون طيلة سنوات عدة ، وعلى أي حال ، فإن عقبة بن نافع ، يعتبر أول مجاهد في سبيل الله وداعية إليه حمل الإسلام إلى هذه البلاد النائية ، وأول من حمل الملثمين على الإسلام ، وأول من فتح الطريق أمام التجار المسلمين ، الذين تدفقوا إلى هذه الديار ، ونشروا رسالة الإسلام ، حتى أوصوله إلى أواسط إفريقيا(١).

ومع أن عقبة بن نافع قد توغل في ديار الملثمين كما مر إلا أن هذه القبائل لم تذعن جميعها للإسلام نهائياً ، ففي ولاية عبدالله بن الحبحاب على إفريقيا من قبل هشام بن عبدالملك ما بين عامي ١١٤-١٢٣هـ شق بربر السوس عصى الطاعة فسير إليهم حملة بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ، تجاوزت السوس الأقصى ، وبلغت بلاد لمتونة وجدالة ومسوقة ، وأصابت من السبايا والغنائم ما قدر لها أن تصيب(٢).

وقد درج بعض الباحثين المعاصرين على اعتبار هذه الحملة بداية لدخول الإسلام في موريتانيا(٣).

وقد مر معنا قبل قليل أن الإسلام دخل في هذه البلاد على يد عقبة بن

---

١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٦٢.

٢) ابن خلدون ، العبر ٦/١١٠-١١١ ، وعبدالله حميده ، المرجع السابق ص ١٢-١٣.

٣) معهد البحوث ، المرجع السابق ص ٩ ، والخليل النحوي ، المرجع السابق ص ٤٠ ، وهميرة بنت صقر ، المرجع السابق ص ٦-٧ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٤.

نافع ، قبل هذه الحملة بنصف قرن من الزمن أو يزيد ، وفي معرض الاستشهاد على ذلك نقلنا كلام العارفين بالتاريخ ، وذكرنا بعض الوقائع التاريخية التي تؤكد ذلك.

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن هذه الحملة تعتبر بداية لتوطيد دعائم الإسلام وإرساء مبادئه في النفوس ، وتعميمه على المجتمع بصفة كاملة.

ومن ثم فما هي إلا واحدة من حملات كثيرة قام بها الدعاة المسلمون تهدف إلى إخضاع جميع قبائل الملثمين لأحكام الإسلام ، ونشر تعاليم الدين الإسلامي في إفريقيا كلها.
وقد وصل حبيب بن أبي عبيدة في هذه الحملة إلى مدينة أودغست(١).

وقد بلغت هذه الحملات أوجها ، حيث استطاع عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع أن يتم ما بدأه جده حيث عبرت جنوده الصحراء ونشروا تعاليم الإسلام في أرجائها ، كما أقام سلسلة من الآبار تصل واحات إفريقيا وأودغست بصحراء المغرب الأقصى(٢).

---

١) مدينة [اودغست] المندثرة عاصمة قديمة للصنهاجيين ، وتقع أطلالها على مسافة أربعين كيلا شمال شرقي مدينة تامشكط ، في الحوض الغربي بموريتانيا ، الخليل النحوي ، المرجع السابق ص ٦٦.

٢) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب ، ص ٢٩٦ ، وما بعدها ، الطبعة ١٩١٣م وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٦٨ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ٤٠ وعبدالله حميده المرجع السابق ص ١٣.

وقد أسفرت هذه الجهود عن نتائج طيبة في نشر الدعوة الاسلامية ، حيث اتصل التجار بديار الملثمين ، وبلاد السودان عن طريق ساحل المحيط الأطلسي ، وطريق الصحراء ، وأصبحت القوافل أكثر جرأة على ارتياد هذه الطريق ، ميممة جهة غرب إفريقيا ، كما أسفرت هذه الجهود عن وصول الإسلام إلى غرب إفريقيا(١).

هذا وقد قدر لقبائل الملثمين أن تؤدي دوراً فعالا في نشر الإسلام ، حيث نجح موسى بن نصير في توحيد كلمتهم فشاركوا معه في فتح الأندلس(٢).

وبعد أن استقل الأدارسة(٣). بالمغرب الأقصى ١٧٢-٣٧٥هـ عملوا على توحيد المغرب وإقرار السلام فيه ، واستطاعوا أن يظفروا بتأييد سكان المغرب في الجنوب والشمال.

---

١) حسن أحمد محمود ، المرجع السابق ص ٦٨ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ٤٠.

٢) راجع سميرة بنت صقر ، الشنقيطي ومنهجه في التفسير ص ٧ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية للبنات بجدة ١٤٠٩هـ ١٤١٠هـ.

٣) الأدارسة نسبة إلى إدريس بن عبدالله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، لحق بالمغرب عام ١٧٠هـ ونزل على قبيلة أوربة من بربر البرانس وبايعوه وتزوج منهم ، توفي مسموماً بيد أحد رجال هارون الرشيد عام ١٧٧هـ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ص ١٩-٢٣ ، دار المنصور بالرباط ١٩٧٢م ، وابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٩٠-١٩٤.

ونجحوا في جمع كلمة هذه القبائل ، فوحدوا بين إقليم الحضارات القديمة ، وإقليم البداوة ، فازدهرت الحياة ازدهاراً لم تعرفه البلاد من قبل(١).

وبذلك انضوى الملثمون تحت لواء الأدارسة ، وأصبحوا جزءاً من هذه الدولة ، يولون عليهم الولاة ، ويخضعون للحكومة المركزية في فاس ، فزاد تحول صنهاجة اللثام إلى الإسلام الذي بدأ في عهد عقبة بن نافع ، وزاد في عهد الأدارسة ، وانتشر بين الملثمين في القرن الثالث الهجري(٢).

وكان لهذا التحول والإقبال المتزايد على الإسلام أثر بالغ في تاريخ هذه القبائل ، فقد شهد العقد الأول من القرن الثالث الهجري ظهور زعامات محلية كونت تحالفاً قوياً شمل أهم قبائل صنهاجة الجنوب وهي : لمتونة ، وسوقة ، وجدالة.

وكان ذلك بفضل الله تعالى ثم بالجهود التي بذلها الزعيم الملمتوني

---

١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٦٩-٧٠ ، وانظر له أيضاً : الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، ص ٢٨ ، القاهرة ١٩٥٨م.

٢) ابن خلدون ، العبر ١٨٢/٦ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٧٢ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ٤٢.

تلاكاكين بن تيكلان(١).

وقد تمخض هذا الحلف عن إسهام فعال في الجهاد لنشر الإسلام في القبائل الزنجية في الجنوب ، فقد توجه القوم بحماس في الممالك الزنجية المجاورة ، وكانت مملكة غانة أقوى هذه الممالك.

فقد وصفها ابن خلدون بقوله: «كانوا أعظم أمة وأضخم ملك»(٢).

وعلى الرغم من ذلك فقد انهارت أمام صليل سيوف الملثمين ، وتوغلوا في ديارهم ، وفرضوا عليهم الجزية(٣).

وصدق الله عز وجل حيث يقول : ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾(٤).

ويقول تعالى : ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾(٥).

وبعد حين من الزمن ، تفرق شمل هذا الحلف ، ودبت فيه عوامل

---

١) ابن خلدون : العبر ١٨٢/٦ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٧٢ ، وعبدالله حسن حميده : المرجع السابق ص ١٤.

٢) ابن خلدون : العبر ١٩٩/٦ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٧٣ ، وعن ماسحة مملكة غانة وحدودها : راجع عصمت عبداللطيف المرجع السابق ، ص ٥٢-٥٣.

٣) ابن خلدون : العبر ٢٠٠/٦ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٧٤.

٤) سورة البقرة : الآية ٢٤٩.

٥) سورة الحج : الآية ٤٠.

الفرقة ، من عصبية قبلية تليدة ، وذلك حين اعتدت صنهاجة على ملكها تميم بن يلتان فقتلته عام ٣٠٦هـ وافترق أمرهم شيعاً وأحزاباً مائة وعشرين عاماً(١).

وبعد هذا التفرق ، قام فيهم زعيم يسمى أبو عبدالله بن تيفاوت ، ويعرف بتاشرت اللمتوني ، فاجتمعوا عليه وأحبوه ، وكان من أهل الدين والصلاح والعقل الراجح ، وهو أول من أدى فريضة الحج من ملوك لمتونة ، وقد عمل على توحيد قبائل صنهاجة ، فأعاد لها حيوية الدور المنوط بها ، ورسم خطة للجهاد ضد الوثنية في الجنوب.

غير أن المنية عاجلته ، وبعد ثلاثة أعوام من تسلمه للحكم فأدرك الشهادة ، وهو يطارد الوثنيين في إحدى غزواته(٢).

وبعد وفاته تولى بعده صهره يحيى بن إبراهيم الجدالي المتوفى عام

---

١) ابن خلدون ، العبر : ١٨٢/٦ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٧٤ ، وعبدالله حميدة : المرجع السابق ص ١٤.

٢) توفي وهو يقاتل الزنوج الوثنيين في الممالك الزنجية المجاورة لموريتانيا في الجنوب واختلف في تاريخ وفاته فقيل في عام ٤٠٣هـ وقيل ٤١٤هـ وقيل ٤٣١هـ وقيل غير ذلك ، اليزيدي : تاريخ دول الإسلام بالمغرب الأقصى ص ٣٣ ، مخطوط مصور من الخزانة الملكية بالرباط برقم ٤١٣ ، وعصمت عبداللطيف : المرجع السابق ص ٥٤ ، وعبدالله حميدة : المرجع السابق ص ١٤-١٥٠.

٤٤٠هـ(١) والذي يعتبر أحد المؤسسين للدعوة السلفية التي تمخضت عن قيام دولة المرابطين ، التي سنتناول الحديث عنها في الفصلين الثاني والثالث من هذه الرسالة. إن شاء الله تعالى.

ooo

oo

o

---

١) ابن خلدون : العبر ١٨٢/٦ ، وابن الخطيب : القسم الثالث من أعمال الأعلام ص ٢٢٦ ، والناصري : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ص ٦.

المبحث الثالث
المجتمع الموريتاني
طابعه وطبقاته

لقد مر معنا في المبحث الأول من هذا الفصل أن بلاد موريتانيا عرفت بتسميات متعددة ، تحيل على حقب وعهود تاريخية مختلفة. وفي هذه التسميات دلالة على تعدد نوعية السكان.

ولذلك فإن سكان موريتانيا لا يشكلون بمقاييس الدراسة العرفية جماعة واحدة متحدة الأصل ، متجانسة الصفات. بل على العكس من ذلك.. فقد امتزجت الدماء على هذه الأرض بين جماعات مختلفة في أصولها ، متنوعة في صفاتها ، فكونت شعباً اختلطت فيه العناصر اختلاط تآلف وإخاء ، في ظل الإسلام ، وعدالته السمحة.

فهذه البلاد رغم أنها في مجملها صحراء ، قاحلة ، قاسية المناخ لم تكن بمعزل عن الشعوب الأخرى ، وذلك نتيجة لموقعها الجغرافي الذي يسر للجماعات المختلفة على مدى التاريخ اجتيازها ، سواء للتجارة أو لنشر العقيدة الإسلامية، الأمر الذي أثر على تكوين سكان موريتانيا من الناحية العرقية والحضارية.

هذا ويمكن تقسيم الشعب الموريتاني إلى قسمين رئيسيين هما:

○ البيضان : وهم في اصطلاح الموريتانيين من يتكلم اللهجة الحسانية(١)
.

○ والزنوج : ويطلق عليهم محلياً السودان ، ويمثل البيضان الأغلبية بنسبة ٨٠٪ وينقسمون إلى فرعين أساسيين هما:
الفرع الصنهاجي ، والفعر العربي.

وقد اختلطت الدماء بينهما إلى حد يستحيل معه تمييز أحدهما عن الآخر. وأما الزنوج فيمثلون أقلية بنسبة ٢٠٪ وينقسمون إلى ثلاثة فروع هي:
التكارير ، السراكول ، وولف ، ولكل واحد منهم لغة خاصة به(٢).

---

١) تعتبر اللهجة الحسانية هي أقرب لهجات المغرب الإسلامي إلى اللغة العربية الفصحى ، ولعلها من أنقى اللهجات العربية عموماً ، معهد البحوث ، المرجع السابق ، ص ٤٧٢ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٤١.

٢) للتوسع في هذا الموضوع راجع : أحمد بن الأمين : الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص ٤٧٥ ، وما بعدها ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الخانجي بمصر ١٣٧٨هـ ، وعبداللطيف الدليشي الخالدي ، من أعلام الفكر الاسلامي في البصرة الشيخ محمد أمين الشنقيطي ص ٢٣ ، ومحمد فال بن البتاني : الجمهورية الإسلامية الموريتانية ص ١٢ ، الناشر شركة المدينة للطباعة والنشر جدة ١٣٩١هـ ، ومعهد البحوث : المرجع السابق ، الصفحات التالية: ٩٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٦٧، وقد ذكر في ص ٤٦٨ أن الأقلية الزنجية في موريتانيا أربع طوائف هي: الفلان ، والتكرور ، والسراكول ، وولف ، كما أن أحمد بن حيث الشنقيطي ذكر في تاريخه أن البيضان ينقسمون إلى ثلاثة عناصر : العرب ، والبربر ، والقبط ، راجع تاريخه ص ٣٠١ ، مخطوط عندي نسخة منه.

والواقع أن هذا الشعب بصفة عامة ينتظم بشكل تقليدي في قبائل متميزة : اجتماعياً ، وحرفياً ، ويغلب عليه الطابع القبلي بكل مظاهره ، سواء من ذلك ما نفرضه طبيعة البلاد التي تقوم على التنقل ، والترحال ، وانتجاع أطراف الصحراء ، طلباً للماء والكلأ ، أو من حيث العلاقات بين طبقات المجتمع التي أبرزتها الحروب التي كانت تشتعل نارها من حين لآخر.

ويقوم البناء الاجتماعي القبلي في هذا الشعب على أسس أهمها: وحدة الدم ، ووحدة الجماعة(١).

وقد تبلورت البنية الاجتماعية للسكان طبقاً للتقسيم الوظيفي عن ثلاث فئات اجتماعية في البيضان ، والزنوج على حد سواء.
وسنتناول هذا التقسيم الوظيفي بالنسبة للبيضان أولا ثم الزنوج ، وفيما يلي بيان ذلك:

أولا : الزوايــــــا(٢):

---

١) للتوسع في الأسس التي يقوم عليها البناء الاجتماعي القبلي في موريتانيا ، راجع معهد البحوث ، المرجع السابق ص ٤٧٩-٤٨٠.

٢) تحدث باب بن الشيخ سيدي بإسهاب عن سبب هذه التسمية فقال : سموا بالزوايا لملازمتهم للزوايا جمع زاوية ، ويسمون بالمرابطين لملازمتهم مواضع العبادة ، التي هي الربط جمع رباط ، وقد أطلق عبدالله بن ياسين هذا الإسم على أصحابه ، ومن ثم أصبح علماً على هذه القبائل ، كما يطلق عليهم إسم الطلبة لطلبهم العلم واشتغالهم به.. تاريخ البيضان وإمارتي

وهم في اصطلاح الموريتانيين : مجموعة من القبائل المهتمة بالعلم والدين ، يمتازون بدراسة العلوم الشرعية ، واللغة العربية ، وإقامة شعائر الدين الإسلامي ، ورغم شظف العيش ، وقساوة الحياة البدوية الصحراوية ، فقد ظلوا محافظين على تعليم العلوم الإسلامية وتعليمها ، وإقامة الشعائر الدينية ، ولم يثنهم عن ذلك صعاب الترحال ولا تنائي الديار(١).

ويمتاز الزوايا بشيم نابعة كلها من صميم تعاليم الإسلام وهي: التقوى ، والورع ، والعفة ، والحلم ، والصبر ، والإنات(٢).

أما دور الزوايا في المجتمع فهو بالغ الأهمية ، ويمكن إجماله فيما يلي:

١- نشر العلوم الإسلامية وإحياؤها.

٢- إقامة الشعائر الدينية والدعوة إلى الله عز وجل.

٣- القيام بشؤون القضاء والفتيا.

٤- القيام بدور فعال في إدارة الشؤون الإقتصادية بالإضافة إلى درجة

ادوعيش ومشطوف ص ٢٥-٢٦ ، مخطوط عندي صورة منه ، وعند الدور الذي قامت به قبائل الزوايا في نشر العلوم الإسلامية ، وتطوير الآداب والعلوم في الصحراء ، وفي غرب إفريقيا ، راجع معهد البحوث المرجع السابق ص ٤٨٨-٤٩١.

١) عبداللطيف الدليشي الخالدي ، المرجع السابق ص ٢٧ ، ومعهد البحوث : المرجع السابق ص ٤٧٣ ، وسميرة بنت صقر ، الشنقيطي ومنهجه في التفسير ص ٩.

٢) راجع الوسيط : المصدر السابق ص ٤٧٨ ، وعبداللطيف الدليشي ، المرجع السابق ص ٢٨ ، والخليل النحوي المرجع السابق ص ٣٥.

عالية من المهارة السياسية(١).

ثانياً : بنو حسان (العرب):

بنو حسان (العرب) ويتولون القيادة العسكرية ، وهم الذين يمسكون زمام السلطة في الأقاليم ، وليس لحكمهم تنظيمات إدارية محددة ثابتة ، وعاصمتهم عبارة عن معسكر للإمارة يسمى [الحلة] ، وينتقل هذا المعسكر من مكان إلى مكان آخر طلباً للماء والكلأ ، وفي أوقات الفوضى حيث لا يكون الحكم قوياً تصبح سلطة الإمارة ضعيفة ، وتتولى كل قبيلة إدارة شؤونها بنفسها في استقلال ذاتي ، وقد يكون استقلالا تاماً(٢).

وتمتاز قبائل بني حسان بممارسة الحروب ، والمهارة فيها ، وشن الغارات من حين لآخر سواء فيما بينهم أو على القبائل الأخرى ويحاولون دائماً فرض السيطرة بالقوة العسكرية ولذلك سموا بالمحاربين(٣).

ويلاحظ أن هؤلاء المحاربين بعد استقلال البلاد ، وظهور الدولة الموريتانية الحديثة ، وإقامة السلطة المركزية فيها ، وقد تحولوا إلى

---

١) باب بن الشيخ سيدي : تاريخ ص ٣٧ ومعهد البحوث المرجع السابق ، ص ٤٤٨ ، والخليل النحوي ، المرجع السابق ص ٣٦.

٢) معهد البحوث : المرجع السابق ص ٤٤٤ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ١٠٧.

٣) بول مارتي : كنته الشرقيون ص ٢٥ ، وسميرة بنت صفر المرجع السابق ص ١٠ ، وللتوسع في الكلام على بني حسان ، وسيرتهم ، راجع الوسيط ، المصدر السابق ، ص ٤٧٩ ، وما بعدها.

الأعمال السلمية كالتجارة، وتربية الماشية(١).

والواقع أن الزوايا وبني حسان قد شكلا قيادة ثنائية للمجتمع الموريتاني، بهذا التقسيم الوظيفي، حيث مارس الزوايا القيادة العلمية والدينية وادارة الشؤون الاقتصادية، ومارس بنو حسان القيادة العسكرية واشترك الطرفان معاً في السيطرة السياسية.

ثالثاً: الأتبـــاع:

تأتي هذه الفئة في أدنى السلم الاجتماعي، وتسمى [اللحمة](٢)، وتتكون من قبائل غارمة، لم تحتم بسيف ولا قلم، فبسط عليها الطرفان المتقدمان نفوذهما، وسخروها لأغراضهم الخاصة من رعى ماشية وخدمة وغير ذلك(٣).

وليست هذه القبائل أحسن حظاً في السلم الاجتماعي من مجموعات أخرى، تابعة تتوارث المهنة، ولا تتكون من قبائل مستقلة، وهم:

- الصناع التقليديون: وهم جماعة من الحرفيين يقومون بصناعة الحلي

---

١) معهد البحوث: المرجع السابق ص ٤٤٦-٤٤٨.

٢) تطلق كلمة اللحمة عند الشناقطة على الوبر غير الجيد، وقد استعاروها علماً على هذه الفئة من المجتمع، الخليل النحوي: المرجع السابق، ص ٤٦.

٣) راجع أحمد بن الأمين: الوسيط: ص ٤٧٦، وعبداللطيف الدليشي المرجع السابق، ص ٢٧، والخليل النحوي: المرجع السابق ص ٣٧.

والحدادة.

- المطربون : وهم طبقة من المغنيين والموسيقيين.
- الصيادون : وهم الذين لا يملكون الماشية ، ويشتغلون بالصيد البري لمن يسكنون في الصحراء ، والبحري ، لمن يسكنون على الساحل ، ويعتبر الصيد أهم مصادر رزقهم ، إن لم يكن هو المصدر الوحيد ، فيأكلون منه ، ويتاجرون بالباقي ، ليحصلوا من ثمنه على وسائل معيشتهم.

- وأخيراً الحراطون : وهم الموالي المعتوقون من الرق ، ويشكلون رصيداً من الأيدي العاملة ، فيقومون بالأعمال اليدوية الشاقة ، كحفر الآبار ، وإنشاء المباني ، والطرق ، وغير ذلك(١).

أما طبقة العبيد ، فقد اختفت تماماً ، وذاب أفرادها في المجموعات الأخرى ، ولم يبق من آثارها إلا الخدم في البادية ، ترتبط بأسيادها بصفة إرادية ، وتقوم بخدمتهم مقابل المسكن والمأكل والملبس(٢).

وقد تم إلغاء الرق في موريتانيا عام ١٩٨٠م ، على إثر قرار أصدرته اللجنة العسكرية الحاكمة في البلاد آنذاك بهذا الخصوص ينص على إلغاء الرق نهائياً.

---

١) للتوسع في هذا الموضوع : راجع معهد البحوث المرجع السابق ص ٤٤٩-٤٥١ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٣٧ ، وسميرة بنت صقر ، المرجع السابق ص ١٠.

٢) سميرة بنت صقر ، المرجع السابق ص ١١.

والجدير بالملاحظة أن هذه البنية الاجتماعية ليست وليدة تمايز عرقي أكيد ، بل هي في بداية أمرها ، ثمرة تقسيم وظيفي(١). ظل يتطور مع الأيام جزراً ومداً.

فقد كانت بعض القبائل تغير موقعها الاجتماعي من فترة إلى أخرى ، وإن بعثت قبائل كثيرة ترعى تراث الأجداد وعهدهم في التزام موقعها الاجتماعي(٢).

وقبل نهاية الحديث عن عن تقسيمات البيضان ينبغي أن نشير إلى أن فئة الآتباع بمختلف مجموعاتها لا يمكنها الزواج من قبائل الزوايا ولا بني حسان طبقاً للعادات والتقاليد التي دأبت عليها هذه القبائل في ماضيها.

غير أن هذه الصورة للمجتمع بدأت تضمحل بعد استقلال البلاد وخاصة منذ عقدين من الزمن. حيث أصيبت البلاد بكارثة جفاف دفعت بأهل البوادي إلى انزوح إلى المدن ، والاستقرار فيها ، ونتج عن ذلك تغير نمط

---

١) أول من قام بمبادرة تقسيم العمل في المجتمع الموريتاني الأمير اللمتوني أبو بكر بن عمر ، فقد روى عنه أنه قسم رجاله إلى ثلاث فئات : فئة تفرغ لدراسة العلم ، وتدريسه ، فهي أصل الزوايا ، وفئت تحمل السلاح وتجاهد في سبيل الله فهي أصل حسان ، أو العرب ، وفئة ترعى مواشي المسلمين وتعني بخدمتهم فهي أصل اللحمة.. أحمد بن حيث المرجع السابق ص ٣ ، ومحمد يوسف مقلد موريتانيا الحديثة ، ص ٤٦.

٢) الخليل النحوي : المرجع السابق ص ٣٧.

الحياة ، واختفى كثير من التقاليد القديمة ، وأصبح المنظور القبلي لا يعبر عن الواقع الاجتماعي الجديد ، وحدثت أمور جديدة فعلا.

فإن التبعية على سبيل المثال في طريقها إلى الزوال ، وأصبح ممكناً أن نرى مثقفاً من أكبر الطبقات النبيلة يحاول عبثاً أن يجري اتصالا مع واحد من أبناء الرعاة القدامى ، كما يمكن أن ترى في المدن الكبيرة فتيات من الأسر النبيلة يتزوجن من الطبقات التي كانت تابعة بالأمس(١).

أما الأقلية الزنجية فهي ثلاث أو أربع عناصر كما تقدم ولكل طائفة من هذه العناصر لغة خاصة بها ، والكثير منهم يتكلم اللغة العربية رغم تعاملهم باللغة الفرنسية ، وينتمون ثقافياً إلى الصحراء أكثر من انتمائهم إلى عالم الزنوج ، ويستقرون في جنوب البلاد ، وأقصى مشرقها ، وتعتمد عليهم الزراعة اعتماداً كبيراً ، وتنظيم هذه الأقلية في عشائر لا تختلف في تقسيمها الوظيفي والاجتماعية عن ما ذكرناه عن البيضان ، ففيهم المحاربون الذين يمارسون الحروب ويقومون بشن الغارات ، كما أن فيهم الأتباع بجميع طبقاتهم : الرعاة ، والصناع ، والتليديين ، والمطربين ، والصيادين ، والموالي المعتوقين من الرق.

---

١) معهد البحوث : المرجع السابق ص ٤٥٢.

وفي عادات الزنوج ، فمنهم من يشبه البيضان أيضاً ، حيث أن فيهم قبائل لا يتم الزواج فيها إلا داخل الطبقة الواحدة(١).

---

١) معهد البحوث ، المرجع السابق ، ص ٤٥٣-٤٥٩ ، وسميرة بنت صقر ، المرجع السابق ص ١٠ ، يذكر محمد محمود بن ودادي أن هذا التقسيم الاجتماعي الذي ذكرناه عن البيضان والزنوج في موريتانيا هو الذي عليه شعوب المنطقة كلها في موريتانيا والساقية الحمراء ، وجنوب المغرب ، وجنوب الجزائر ، وشمال مالي ، والنيجر ، وفي الطوارق والقبائل الزنجية على اختلافها ، راجع كتاب كنته الشرقيون : المرجع السابق ص ٢٦-٢٧.

المبحث الرابع

ثقافة المجتمع الموريتاني
من خلال المحاضر

وفيه سبعة مطالب :

المطلب الأول : التعريف بالمحاضر ، نشأتها وتطورها.

المطلب الثاني : أهداف المحاضر.

المطلب الثالث : عوامل انتشار التعليم المحضري.

المطلب الرابع : نظام المحاضر.

المطلب الخامس : ظروف الدراسة في المحاضر.

المطلب السادس : المناهج الدراسية في المحاضر.

المطلب السابع : حركة التأليف في المحاضر.

* * * *

المطلب الأول
التعريف بالمحاضر : نشأتها وتطورها

المحاضر جمع محضرة ، وهي مؤسسات تعليمية إسلامية نشأت في موريتانيا لتكون أداة لنقل المعارف العلمية ، وإرساء أسس الدين الإسلامي ، وتعهده بالرعاية في بلاد لم تعرف من الحواضر إلا ما ندر.. وإنما كان جل أهلها من البدو الرحل ، الذي ينتجعون مساقط الغيث ، ومنابت الكلأ.

وقد اشتق هذا الإسم إما من الحضور أو من الاحتظار ، وجاء في تاج العروس .. يقال للمقيم على الماء حاضر ، وجمعه حضور ، وهؤلاء حضار ومحاضر..

قال لبيد :

قالوا ديان وكل مغني منهم وعلى المياه محاضر وخيام(١)

وأما الاحتظار : فلأن الطلاب يحتظرون فيحيطون أماكن دراستهم بأسجية من جذوع الشجر وأغصانه(٢).

وقد ورد عن وزارة الشؤون الإسلامية في موريتانيا ما نصه: "..

---

١) محمد مرتضى الزبيدي ، تاج العروس ١٥٢/٣ ، نشر المطبعة الوهبية ١٢٧٧هـ.

٢) الخليل النحوي : المرجع السابق ص ٦١-٦٢ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٢٦.

المحظرة : هي المؤسسة التي حملت مشعل الحضارة الإسلامية ، والثقافة العربية ، منذ تسعة قرون ونيف ، وما زالت تتابع رسالتها(١).

والذي نراه أن أصل هذه التسمية مشتق من الحضور لإلقاء المحاضرات ، وذلك استناداً إلى المرجحات التالية:

* ورود كلمة المحظرة في المصادر القديمة مرادفاً للمدرسة(٢).
* كون الحضور أعلق بهذه المؤسسة التعليمية من الاحتظار.
* اطراد نطق الضاد ظاء في اللهجة الحسانية.

هذا من حيث الاشتقاق اللغوي ، وأما من حيث الاصطلاح:

فالمحضرة جامعة شعبية بدوية متنقلة ، تلقينية فردية التعليم طوعية الممارسة(٣).

والواقع أن التصور الصحيح للمحاضر كمؤسسات تعليمية وتربوية ناجحة ، يصعب على من لم يعايشها.

يقول الدكتور محمد المختار بن أباه : «من الصعب على من لم ير المحاضر أن يتصورها ، ذلك أن البداوة تقترن في الذهن بالجهل ، فالثقافة جزء من الحضارة ، ومراكز العلم والتدريس تقترن غالباً بالمعاهد والجامعات المشيدة التي اتصلت شهرتها بشهرة المدن التي تحتضنها.. غير أن

---

١) المرجع السابق نفسه ص ٢٧.

٢) أحمد يحيى الونشريسي ، المعيار ١٥٦/٧ ، طبعة دار الغرب الاسلامي ، بيروت ١٤٠١هـ.

٣) الخليل النحوي : المرجع السابق ص ٥٣.

المحاضر فريدة في نوعها ، إذ هي بعض أحياء البدو الذين يتبعون المراعي متنقلين ، تصادف شيخاً كسائر البداة متقشفاً في ملبسه ، ومظهره لا يمتاز بشيء عن سكان الحي سوى أن ترى أمام بيته مجموعة من الشبان يقل عددها ويكثر حسب الأزمنة ، تسكن تحت الشجر ، وفي أعرشة من خشب ، تعيد بناءها كلما ارتحل آل الشيخ»(١).

وعلى كل حال ، فإن كلمة [محضرة] أو [محضرة] ترادف كلمة مدرسة وهذا معروف مطرد عند مشايخ المحاضر.
فغالباً نجد في شعرهم ونثرهم ذكر المدرسة معبرين عنها عن المحضرة ، ومعنى ذلك أنهم اعتبروا كلمة محضرة مرادفة لكلمة مدرسة ، فعبروا عنها.
ومما يدل على ذلك وصف الشيخ قم بن عبد الحميد للمحاضر بقوله:

طوبى لمن أقام بالمدارس ... يحوي من العلوم كل دارس
يظل يرعى في رياض العلم ... من بين فتيان كرام شيم
أنت بهم من كل فج همم ... لها على نجم الثريا شمم
نواهل الأجسام من طول السفر ... وخدمة الشيخ إذا الشيخ أمر
ما بين ضربين مفيد عالم ... ومستفيد للعلوم فاهم (٢)

ونجد كذلك المصادر الأجنبية تعبر عن المحاضر الموريتانية بالمدارس(٣).

---

١) د. محمد المختار بن أباه : الشعر والشعراء في موريتانيا ، ص ٢٣-٢٤ ، طبعة الشركة الوطنية للتوزيع ، تونس ١٩٨٧م.

٢) للتوسع في الأشعار الموريتانية التي تعبر عن المحاضر بالمدارس ، راجع محمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٢٨.

نشأة المحاضر وتطورها:

نشأت المحاضر في بلاد شنقيط ، لتكون أداة لنقل المعارف العلمية ، وإرساء أسس الدين ، وتعهده بالرعاية.

ويعتبر رباط عبدالله بن ياسين ، النواة الأولى لهذه المؤسسات التعليمية ، وإن كانت لم تعرف بتسميتها [المحاضر] إلا في القرن السادس الهجري(١) .

هذا ويمكن تحديد الزمان والمكان لنشأة أهم المحاضر وذلك كالتالي:

١- رباط عبدالله بن ياسين ، الذي يعتبر المحضرة الأم(٢) تأسس حوالي سنة ٤٣١هـ(٣) في جزر البندرى على بعد ثلاثين كيلا إلى الشمال من مدينة نواكشوط عاصمة موريتانيا حالياً(٤).

---

٣) راجع كتاب بول مارثي : كنته الشرقيون ص ٤٥.

١) محمد الصوفي ، المرجع السابق ، ص ٣٤ ، ومعهد البحوث المرجع السابق ص ٤٧١.

٢) محمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٣٤.

٣) الخليل النحوي : بلاد شنقيط المنارة والرباط ، ص ٦٥ ، ويرى البعض أن تاريخ تأسيس رباط ابن ياسين عام ٤٥١هـ إبراهيم الجمل : الإمام عبدالله بن ياسين ص ١١٨ ، طبعة دار الاصلاح ١٩٨١م، والراجح ما أثبتناه في الصلب ، لما ذكرناه من قبل من أن البكري وهو معاصر لهذه الفترة ، ذكر أن المرابطين بعد خروجهم من رباطهم وصلوا إلى [أودغست] عام ٤٤٦هـ وما ذكره ابن خلدون من أنهم خرجوا من رباطهم عام ٤٤٥هـ العبر ١٨٣/٦ ، ولأن عبدالله بن ياسين استشهد في قتاله مع البرغواطيين عام ٤٥١هـ بعد أن قضى سنين في الجهاد.

٤) سيأتي الحديث بالتفصيل في الفصل الآتي عن رباط عبدالله بن ياسين.

٢- محضرة أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي ، المتوفى عام ٤٨٩هـ تأسس في [أزوكي] قرب مدينة أطار عاصمة الولاية السابعة من ولايات موريتانيا(١).

٣- محضرة [تشيت] أسسها الشريف عبدالمؤمن بن صالح الإدريسي في [تشيت] عام ٥٣٦هـ وكان لها نشاط بارز في نشر العلم في البلاد وتقع مدينة [تشيت] على مسافة نحو مائتان وخمسين كيلا إلى الشرق من مدينة [تجكجه] عاصمة ولاية [تكانت] وهي الولاية التاسعة في البلاد(٢).

٤- محضرة ودان : أسسها [ادولحاج] عام ٥٣٦هـ وعلى رأسهم الحاج عثمان الأنصاري ، جد بطن أولاد الحاج ، والحاج يعقوب القرشي جد اد ياقب ، والحاج علي بن محمد الصنهاجي جد ليندات ، واديوج ، وكان ذلك بعد رحلة إلى الحجاز ، أدوا فيها مناسك الحج(٣).

---

١) المختار بن حامد : حياة موريتانيا ٥/٢ ، طبعة الدار العربية للكتاب ، تونس ١٩٩٠م ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٣٣٥ ، والدكتور علي سامي النشار : مقدمة كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي ص ٢٢ ، الطبعة الأولى ، الشركة الجديدة دار الثقافة الدار البيضاء ١٤٠١هـ.

٢) المختار بن حامد : حياة موريتانيا ٦/٢ ، ١٩٨ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٣٣٦ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٦٩.

٣) المختار بن حامد : حياة موريتانيا ١٩٨/٢ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٧١ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٣٥.

٥- محضرة شنقيط ، أسستها قبيلتا إدو على و الأقلال بعد بناء مدينة شنقيط الجديدة عام ٦٦٠هـ.. وقد قامت بهذه المدينة سوق العلم ، وتفرع عن محضرة شنقيط عدد من المحاضر ، الشيء الذي جعلها هي العاصمة الثقافية للبلاد(١).

٦- محضرة ولاته : أسسها يحيى الكامل : جد قبيلة المحاجيب ، في صدر القرن الثامن الهجري(٢) وبها ازدهرت الحركة العلمية ، وأصبحت مدينة ولاته مركزاً من مراكز العلم ، والثقافة في المنطقة ، وقد نشأ في ولاته بعد ذلك عدد من المحاضر في فترات متفاوتة ، أبرزها محضرة أهل سيدي عثمان الداودي ومن رجالها المشهورين : محمد يحيى الولاتي(٣). ومحمد

---

١) محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٣٣٦ ، والمختار بن حامد : حياة موريتانيا ١٩٨/٢ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٧٢-٧٣.

٢) تتفق المراجع التي وقفت عليها على أن يحيى الكامل المحجوب أنشأ محضرة في مدينة ولاته ، وبها ازدهرت الحركة العلمية في المنطقة ، ولكن هذه المراجع نفسها تختلف في تحديد تاريخ الإنشاء ، ومال الخليل النحوي في كتابه : بلاد شنقيط المنارة والرباط ص ٦٩ إلى القول بأن ذلك كان في القرن السادس الهجري ، وقد أثبتنا في الصلب الرواية التي اختارها المختار بن حامد لأن له اليد الطولى في علم التاريخ.

٣) هو أبو عبدالله محمد يحيى الولاتي الشريف ، قال عنه محمد مخلوف ، إنه خاتمة المحققين ، وعمدة العلماء العاملين ، وحيد دهره حفظاً ، وعلماً وأدباً جامع لصفات الكمال ، موهوباً ومكتسباً بقية السلف وقدوة الخلف ، رحل وحج ودخل تونس عام ١٣١٥هـ ولقي بها من الاقبال فوق ما يقال ، واجتمع في رحلته بكثير من العلماء ، له تآليف كثيرة منها : شرح صحيح البخاري ت ١٣٣٠هـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٤٣٥ طبعة دار الفكر [د. ت] والزركلي : الاعلام ١٣/٨ ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٣٨٩هـ.

يحيى بن سيلمة(١).

هذه هي أهم المحاضر التي نشرت العلوم الإسلامية واللغة العربية في موريتانيا ، وفي غرب إفريقيا بوجه عام.

وفي القرن العاشر الهجري بدأت المحاضر تنتشر في البوادي(٢).

وبعد دعوة الإمام ناصر الدين(٣) ازدهر التعليم في قبائل الزوايا في حواضر البلاد وبواديها.

وباستقراء تاريخ المحاضر في موريتانيا ، والتطورات التي مرت بها ، يمكن استخراج نتيجة مؤداها أن محضرة [شنقيط] هي التي تفرع عنها معظم المحاضر التي انتشرت في البوادي.. ولهذا فقد غطت شهرة شنقيط على المدن العلمية الأخرى التي سبق ذكرها. وإن كانت هذه المدن قد شاركتها في المكانة العلمية والعطاء الثقافي.

---

١) عن الحركة العلمية في مدينة ولاته راجع : المختار بن حامد : حياة موريتانيا ١٩٩/٢ ، ٢١١-٢١٦ ، ومحمد المختار بن أباه ، الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٠ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٦٨-٦٩ ، ومحمد يحيى بن سليمة اليونسي : عالم جليل محدث من أبرز علماء البلاد ، له مؤلفات تزيد على المائة وستين كتاباً ، منها : اختصار صحيح البخاري ، واختصار موطأ الامام مالك ، المختار بن حامد ، حياة موريتانيا ٤٩/٢ ، ومحمد الصوفي : المرجع السابق ص ٨٠ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٥٢٨.

٢) محمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٧٤ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٧٦.

٣) سيأتي الحديث بالتفصيل عن دعوة الإمام ناصر الدين في الفصل الخامس من هذه الرسالة

وتقديراً لمكانة هذه المدن العلمية والتاريخية ، أعلنت منظمة التربية والتعليم والثقافة [اليونسكو] حملة دولية عام ١٩٨١م لإحياء هذه المدن ، وقال مدير المنظمة الدكتور أحمد مختار افيو في نداء الحملة:

«إن مدن ودان ، شنقيط ، ولاته ، تشيت ، هي الشواهد الأخيرة على ازدهار منطقة ظلت لفترة طويلة ، بحكم موقعها في ملتقى طرق القوافل الصحراوية الكبرى ، تربط بين المغرب العربي ، ومنطقة الساحل..

كما أن وجودها في محور فكري تلتقي فيه الأندلس ، بأقصى إفريقيا ، جعلها تفتح أبوابها في آن واحد لتجارة السلع ، ولتبادل المعارف ، كما استطاعت أن تصبح بذاتها مراكز للابداع والالهام ، ومصدر اشعاع لحياة دينية غنية ، ولأنشطة علمية وفنية عديدة..(١).

---

١) نداء المدير العام لليونسكو : نشرته جريدة الشعب الموريتانية ص ٥-٦ في ١٩٨١/٢/١٦م..

المطلب الثاني

أهداف المحاضر

إن أهداف المحاضر أهداف إسلامية ، ويمكن إجمالها فيمايلي:

- تعليم الدين الإسلامي عقيدة وشريعة وسلوكاً ، ومنهجاً ، مع اختلاف مشاربها الفكرية في المفهوم الصحيح للدين الإسلامي.
- تكوين دعاة قادرين على حمل مسؤولية الدعوة الإسلامية.
- صون التراث الإسلامي.

وأهم ما حققته المحاضر من أهداف هو ترسيخ العقيدة الإسلامية والتمكين لها في غرب إفريقيا ، تمكيناً لا رجعة فيه(١) إن شاء الله تعالى.

وفي هذا الصدد فقد بذل رجال المحاضر جهداً متواصلا ، ليس في موريتانيا فحسب ، بل قاموا بالدخول إلى أدغال إفريقيا ، داعين إلى عقيدة الإسلام ، وتعاليمه ، وحاملين مشعل حضارته(٢).

---

١) محمد الصوفي ، المرجع السابق ، ص ٣٧ ، وعبدالله حميده : المرجع السابق ص ٢٣.

٢) أحمد بن المفيد : شنقيط ، ودورها الثقافي والاقتصادي في منتصف القرن ١٩ الى منتصف القرن ٢٠ ص ٢٣ ، بحث غير منشور وقدم للحصول على الاجازة العالمية (الليسانس) من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين في نواكشوط عام ١٩٨٣م ، ومعهد البحوث المرجع السابق ص ٤٣١،٤٧١.

وفي الوقت نفسه ، ظلت هذه المؤسسات التعليمية تستقبل أفواج الطلاب المتلاحقة ، من موريتانيا ، ومن الشعوب الافريقية المجاورة لها ، للارتواء من منابع الثقافة الاسلامية ، وترتب على ذلك تحصف هذه الشعوب من الذوبان في ثقافة المستعمر(١).

هذه هي أهم أهداف المحاضر في الماضي والحاضر ، وقد أضاف إليها المفكرون المعاصرون زيادات أخرى اقتضها ظروف العصر الحديث وهي:

- تطوير مناهج المحاضر بما يتلاءم ومقتضيات العصر ، وتكوين شباب محافظ على الإسلام ، مواكب للعلم والتطور الحضاري ، يستطيع الاندماج في الحياة العلمية ، والعملية الحديثة ، دون أن ينسلخ من روحه المحضرة ، قادر على النهوض بالمجتمع في إطار إسلامي صحيح(٢).

أما صون التراث الإسلامي ، فهذا أمر تعتني به المحاضر غاية العناية ، في القديم والحديث.

فكل عالم من علمائها ضنين بما يملكه من مخطوطات ويحتاج الراغب في

---

١) محمد الصوفي : المرجع السابق ، ص ٣٧ ، ومعهد البحوث المرجع السابق ص ٤٧١.

٢) راجع كتاب : التهذيب المرجع السابق ص ١٣ والخليل النحوي المرجع السابق ص ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٥.

دراسته إلى مجهود كبير ليسمح له بمراجعة هذه المخطوطات ، ولا بد قبل ذلك من بعض الإلتزامات(١).

وقد وصف محمد يوسف مقلد عناية مشايخ المحاضر بالتراث الإسلامي بقوله : «وقد حافظوا على التراثين الديني والأدبي ، ولهم صبر عجيب على نسخ الكتب الفريدة»(٢).



١) محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ١٥٨.

٢) المرجع السابق نفسه ، ص ١٦١.

المطلب الثالث

عوامل انتشار التعليم المحضري

سبق الحديث عن نشأة المحاضر وتطورها ، وانتشارها في المدن والبوادي ، وهنا سوف نتعرض للعوامل التي أدت إلى هذا الانتشار وهي : الإسلام ، والهجرة ، والرحلات العلمية ، والدينية ، والحروب القبلية ، وفيما يلي بيان ذلك بالتفصيل.

أولا : الإسلام:

إن الدين الإسلامي يأمر بالتعلم ويحث عليه ، ويرفع من شأنه يقول الله تعالى : ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾(١).

ويقول عز وجل : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾(٢).

ويقول جل شأنه : ﴿هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾(٣).

وفي الحديث : [من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين](٤).،

---

١) سورة محمد الآية : ١٩.

٢) سورة المجادلة الآية : ١١.

٣) سورة الزمر ، الآية : ٩.

٤) صحيح البخاري ٢٦/١.

ولما كان الدين الإسلامي في أصل تعاليمه يأمر بالتعلم قبل العمل ، ويحث عليه ، ويرغب فيه(١) وشاءت قدرة الله عز وجل أن أكرم أهل هذه الصحراء بالهداية إلى الإسلام ، كان لا بد أن يتعلموا من الكتاب والسنة ، ما تؤدى به أركان الإسلام ، إداء صحيحاً ، وتعرف به أوامره ونواهيه وفرائضه وحدوده(٢).

هذا بالإضافة إلى أن التعلم والتعليم عبادة يتقرب بها المؤمنون إلى ربهم ، لذلك فإن اعتناق الإسلام في حد ذاته يعتبر التزاماً بالتعلم لهذا اعتنى الموريتانيون بالعلم كثيراً ، ودعا إليه علماؤهم ، فلبى الناس الدعوة ، واتخذوا العلم قيماً للمال ، فرغبوا في المال ، فكان إقبالهم على المحضرة سبباً في انتشار العلم(٣).

وقد وصف محمد يوسف مقلد : إقبال الموريتانيين على العلم وصبرهم على طلبه بقوله : «وإقبال البدو المتنقلين على التعلم عظيم ، ولهم صبر عجيب ، فلا ينقطع الصغير منهم حتى وهو يرعى الغنم أو الجمال عن مطالعة دروسه وحفظها»(٤).

---

١) راجع المصدر السابق نفسه ١/٢٥.

٢) راجع جامع بيان العلم وفضله ، المصدر السابق ١/١٢-١٣.

٣) الخليل النحوي : المرجع السابق ص ٨٣.

٤) شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون : ص ١٦١.

ومع ما في الحياة المحضرية من مشقة وكد ، فإن أبناء قبائل الزوايا أقبلوا على ارتيادها ، والارتواء من معين ثقافتها ، فأحبوها ابتغاء مرضات الله ، وطلباً للأجر والثواب من الله عز وجل.

وقد عبر الخليل النحوي عن هذا المعنى بقوله : «لقد كان في الحياة المحضرية كد وشظف عيش ، وعناء كبير ، ورغم ذلك فقد استأنس بها الشناقطة وأحبوها حباً جماً ، تهون في سبيله كل التضحيات(١).

ثانياً : الهجرة والرحلات العلمية والدينية:

سبق الكلام عن التقسيم السكاني لبلاد موريتانيا في المبحث الثالث من هذا الفصل ، وذكرنا هناك أن سكان تلك البلاد يتألفون من عناصر مختلفة ، نتيجة لهجرات عديدة ، من مجموعات شتى على مدى تاريخها الإسلامي ، حيث نزحت جموع كبيرة من سكان شمال إفريقيا عبر الصحراء ، ليستوطنوا شمال نهر النيجر والسنغال(٢).

والذي يهمنا من هذه الهجرات المتناثرة عبر القرون ، هجرة أفراد من العلماء جاءوا إلى البلاد في فترات متفاوتة ، وأسسوا مدارس نشرت المعارف العلمية في قبائل موريتانيا قروناً عديدة من الزمن ، ونكتفي

---

١) بلاد شنقيط المنارة والرباط : المرجع السابق ص ٨٩.

٢) معهد البحوث المرجع السابق ، ص ٤٣٠.

بالإشارة على ذلك ببعض الأمثل كشاهد على ما نقول:

فقد جاء الشريف عبدالمؤمن بن صالح الإدريسي مؤسس مدرسة تشيت ومعه الحاج عثمان الأنصاري أحد مؤسسي مدرسة ودان ، وهما تلميذا القاضي عياض اليحصبي ، المتوفى عام ٥٤٤هـ(١) وكانا يسكنان في أغمات(٢).

فانتشر عنهما العلم واتسع نطاقه قروناً في مدينتي تشيت وودان ، وكان قبل ذلك قاصراً على علوم الشرع دون آلاتها وعماتها(٣).

ويعد عهد هذين الرجلين وفي القرن الثامن الهجري بالتحديد نزح خمسة رجال من [تاردانت](٤) إلى المنطقة الجنوبية [القبلة] من بلاد موريتانيا ، وتحالفوا على التمسك بالكتاب والسنة ، والصبر وصيانة الكرامة ، وأطلق على هؤلاء الرجال وعلى ذريتهم إسم [تشمشة](٥)

---

١) ستأتي ترجمته في الفصل الثالث ص :

٢) تقع [أغمات] بالقرب من مدينة مراكش ، التي كانت عاصمة دولة المرابطين ، وتشتهر بوفرة مياهها وبساتينها وبها قبر المعتمد بن عباد ملك قرطبة ، وكانت [أغمات] في السابق عبارة عن مدينتين هما : أغمات هيلانة ، وأغمات وريكة ، ابن عذارى ، المصدر السابق ١٩/٤ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ٩٧ ، وسلامة الهرفي المرجع السابق ص ١٠٨.

٣) المختار بن حامد : حياة موريتانيا ٦/٢ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٣٣٦.

٤) تقع [تاردنت] على حدود المغرب الجنوبية على مقربة من دبال [درن] حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٢٤ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ٧١.

٥) [تشمشة] معناها بالصنهاجية [الخمسة] وقد انقسم ذرية هؤلاء الرجال الخمسة إلى ثلاث قبائل أثرت الحركة العلمية والدينية في المنطقة الجنوبية الغربية من البلاد ، راجع الحسوة البيانية

وتشكلت من أحفادهم قبائل ظلت ترعى العلم ، وأسست مدارس كثيرة ، ازدهرت فيها الحركة العلمية ، وغصت بطلاب العلم ، وتخرج منها علماء أجلاء(١).

وفي القرن العاشر الهجري ، جاء إلى مدينة شنقيط علماء من [تلمسان وفاس](٢) وجلبوا معهم كتباً أندلسية لم تكن موجودة في البلاد ، وأقاموا فترة من الزمن ، يدرسون العلوم الشرعية ، وكانوا أول من درس مختصر خليل ابن اسحاق المالكي في موريتانيا ، وانتشر علم هؤلاء الرجال في مدينة شنقيط(٣).

وقد عززت هذه الهجرات حركة العلم والدين في هذه البلاد ، وتلك رسالة علماء المسلمين قديماً وحديثاً ، يحملونها حيثما حلوا..
هذا وقد ظلت ثروة العلم تزداد في موريتانيا بسبب الرحلات العلمية ، والدينية ، التي تستجلب فيها الكتب من أقطار شتى ، كما ساعدت هذه الرحلات على تطوير المحاضر ، وارتفاع المستوى العلمي فيها ، حتى صار باستطاعة طلابها أن يقولوا عن ثقة: «القراية في الراس ما في فاس

في أنساب الحالية ، المرجع السابق ص ٣.

١) راجع حياة موريتانيا ، المصدر السابق ٣٢٩/٢ ، وما بعدها ، والخليل النحوي المرجع السابق ص ٩٨-٩٩ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٦٨-٦٩.

٢) سوف يأتي الحديث عن بعض هؤلاء العلماء في الفصل الرابع.

٣) الخليل النحوي : المرجع السابق ص ٧٣-٧٤.

ولاه في مكناس»(١).

فقد كان الحجاج يلتقون بالعلماء ، ويأخذون عنهم في الحجاز وفي البلاد التي يمرون بها ، وخاصة مصر ، وكثيراً ما يمكثون في المغرب لطلب العلم وهم عائدون من الحج ، وربما شدوا الرحال من بلادهم لطلب العلم في المغرب وغيره من الأقطار الإسلامية ، ومكثوا سنين عديدة للتزود من المعارف العلمية ، ثم يعودون إلى بلادهم ، وقد نهلوا من العلم ، وتلقوا إجازات ، وحصلوا على كتب في شتى الفنون العلمية(٢).

والمطالع في الحركة العلمية في محاضر موريتانيا عبر عصورها السالفة ، يلاحظ أن التعليم في هذه المحاضر قد انطبع أساساً ولفترة طويلة بطابع مغربي أندلسي ، وخاصة في العقيدة(٣).

ويذكر الدكتور محمد المختار بن أباه مميِزات الثقافة الموريتانية بقوله : «وقد امتازوا بثقافة عربية إسلامية أخذوا مصادرها من رحلات

---

١) سيأتي معنى هذا المثال ضمن الأمثلة الشعبية الثقافية المشهورة في البلاد ، وذلك في آخر هذا الفصل ص:

٢) محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ١٥٧ ، والمختار بن حامد : حياة موريتانيا ٦/٢ ، والخليل النحوي المرجع السابق ص ١١٠-١١٣.

٣) راجع بحثاً قيماً بعنوان : روافد الثقافة الشنقيطية ، في كتاب الخليل النحوي : المنارة والرباط ص ١٨٢-١٩٠ ، وسوف يأتي الكلام عن المؤلفات المغربية التي اعتمدتها المحاضر في منهج العقيدة وذلك في الفصل الرابع من هذه الرسالة.

علمائهم المتعددة في المشرق والمغرب، وطبعوها بذاتيتهم الخاصة(١).

ثم يقول .. وهذه الثقافة يتضح انتماؤها إلى المراجع المغربية والأندلسية، ذلك أن الدعوة الإسلامية امتدت أولا من القيروان الى سجلماسة ومنها إلى الصحراء، ثم انتظمت حلقات الوصل بين قرطبة وفاس وبين الصحراء والسودان، وتعززت في فترات معينة حتى أخذت شكلها النهائي المتمثل في مجموعة من المعارف تعتمد على متون أكثرها من المغاربة والأندلسيين»(٢).

ثالثاً : الحروب :

لقد كانت في البلاد أيام عهد المرابطين جهاد في سبيل الله(٣) تخوضه قوة إسلامية منظمة متآزرة، هدفها إعلاء كلمة الله عز وجل، وقد ترك سقوط الدولة المرابطة مساراً جديداً للحروب، ذلك أن قبائل الصحراء تفككت وأصبحت تتقاتل فيما بينها، نتيجة لعدم وجود سلطة شرعية منظمة تردع الناس، وتحقن الدماء، وتأخذ للضعيف حقه من القوي.

---

١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٨ ، وعن صلة علماء شنقيط بمراكز الثقافة في البلاد الإسلامية راجع : محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٧٧-٧٨ ، ٨٣ ، ١٧٣ ، والدكتور محمد المختار بن أباه : المرجع السابق ص ٢١.

٢) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٨.

٣) سيأتي الكلام عن جهاد المرابطين بالتفصيل في الفصل الآتي.

ومع ذلك ، فقد كان العلم ينمو ويزدهر في أثناء هذه الحروب ، وربما أثخنته الجراح ، ولكن سرعان ما يستعيد نشاطه وحيويته.

وقد أشار الخليل النحوي إلى هذا المعنى أثناء كلامه عن آثار الحروب القبلية على التعليم المحضري بقوله:

«ولعل من الخصائص الفارقة للثقافة المحضرية الشنقيطية أنها ازدهرت في ظروف تصطلي فيها نار الحروب القبلية فلم تكن هذه الاضطرابات والحروب لتشل حركة العلم (١)

وهذا شيء غريب ، ومخالف لما كان عليها لحال في مراكز العلم والثقافة الأخرى ، فهذه جامعة القرويين وهي أدنى الجامعات العريقة شقة إلى بلاد شنقيط ، وأعمقها أثراً في حركة الثقافة الشنقيطية ، كانت تعطل الدراسة عندما تضطرب الظروف الأمنية ، وحدث ذلك بسبب حروب في الأندلس بعيدة الشقة(٢).

---

١) بلاد شنقيط المنارة والرباط : ص ١٠٤ ، وقد كان الامام ناصر الدين أيام حرب [شربيه] يقول : من ركب منكم فرسه فليجعل لوحه بينه وبين سرجه فإن الجهل هو أقبح ما يأتي به المرء الآخرة.. محمد البدالي : مناقب الامام ناصر الدين ص ١٢٣ ، مخطوط شخصي ، وذكر أحمد بن أحمد المختار أن العلامة محمد الأمين بن أحمد زيدان الجكني كان طالباً عند ابن عمه محمد الأمين بن أحمد بن المختار ، وكان يأتيه في بعض الأحيان ويجده قد جهز فرسه وأعد سلاحه لرد هجوم العدو فيطلب منه ألا يخرج حتى يقرأه درس يومه.. مقدمة كتاب إعداد المهج لمحمد الأمين بن أحمد زيدان ص ١٧ ، طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامي في قطر ١٤٠٣هـ.

٢) الخليل النحوي : المرجع السابق ص ١٠٤.

ومع هذا ، فليس من البدهي اعتبار الحروب التي أثخنت المجتمع الموريتاني حافزاً من حوافز العلم ، ولكن الباحثين يتفقون على أن هذه الحروب صاحبتها حركة علمية لامعة ، وقد بين محمد يوسف مقلد الجانب الأدبي من هذه الحركة العلمية بقوله:

«كان للحروب القبلية في موريتانيا آثار خطرة في التفكير الأدبي تضمنت كثيراً من الخير ، فقد صاحبتها حركة أدبية لامعة لا تضارعها إلا الحركة التي رافقت ظهور الإسلام في الجزيرة العربية(١).

ليس من شك في أن الحروب القبلية أثخنت جراحها في المجتمع وكان فيها إثم ومفاسد ، ومع ذلك فقد كانت سبباً مباشراً في تعمير الأرض ، وإنشاء مدن علمية ، وكان لها أثر كبير في نشر العلوم الإسلامية ، والعربية ، وصارت على مدى تاريخ طويل مراكز إشعاع إسلامي تستقطب الناس ليس في موريتانيا فحسب بل في شعوب غرب إفريقية بوجه عام.

ولا نريد أن نؤرخ لهذه الحروب ، ولا أن ندخل في تتبع مراحلها وما صاحب هذه المراحل من حركة علمية ، وإنما نكتفي فقط بذكر أمثلة تبرهن على ما قلناه:

---

١) شعراء موريتانيا ص ٢٤٢.

فقد كانت الحرب في [أبير](١) وارتكاب يحيى العلوي جريمة القتل في هذه المدينة سبباً مباشراً في عمارة مدينة شنقيط ، التي تصدرت الساحة العلمية ، والثاقفية ، في موريتانيا خلال ثلاثة قرون تقريباً(٢).

وكان لخراب [تنيكتو] والعواصف التي هبت عليها في عهد [السونغاي] (٣) أثراً مباشر في ازدهار مدينة [ولاته] العلمي والثقافي ، وقامت مدينة ودان على أنقاض مدن تحارب أهلها ، حتى تركوها خراباً ، ودبت النزاعات والحروب أكثر من مرة في صفوف أهل مدينة شنقيط ، فنزحت منهم طوائف إلى جهات متفرقة ، وأسسوا حواضر علمية جديدة.

---

١) [آبير] بالتشديد والتصغير : واحة خصبة قريبة جداً من مدينة شنقيط وكانت بها في السابق مدينة آهلة بالسكان ، وبعد بناء مدينة شنقيط عام ٦٦٠هـ بدأت مدينة [آبير] تضمحل شيئاً فشيئاً حتى لم يبق بها أنيس.. الوسيط المصدر السابق ص ٤٢٥ ، ومحمد المختار بن اباه ، المرجع السابق ص ٢١.

٢) الخليل النحوي : المرجع السابق ص ١٠٥ ، وراجع الوسيط المصدر السابق ص ٤٢٥ ، ٤٢٦.

٣) للتوسع في حروب عهد السونغاي راجع كتاب : عبدالقادر زيادية : مملكة سنغاي في عهد الأسيقيين ص ٤١ ، طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر [د. ت].

كما فعلت قبيلة السماسرة في أطار(١) و أوجفت(٢) وكما فعل العلويون في تجكجة(٣) وكوائف أخرى ضربت في أطراف البادية ، فأسست المحاضر ، ونشرت العلم في البوادي ، بعد أن كان رهين الحواضر(٤).

وبعد نهاية الحرب التي قادها الإمام ناصر الدين المعروفة بحرب [شربية](٥) نبع جيل من أيتام هذه الحرب ، تفرغوا للعلم في محضرة أحمد بن مود مالك ، وتخرجوا منها كلهم ما بين قارئ مجود ، وخطاط مسود ، وعالم مفيد ، وشاعر مجيد(٦).

---

١) تقدم أن مدينة أطار هي الولاية السابعة من ولايات موريتانيا ، وهي مدينة ذات أهمية قال عنها أحمد بن الأمين : أطار مدينة عظيمة ، وأهلها السماسرة وتبعد من جهة الغرب الجنوبي عن شنقيط مسافة يومين ، الوسيط ص ٤٣٤ ، وعن مدرسة السمارة وعلمائها راجع كتاب : المختار بن حامد : حياة موريتانيا ١٩٨/٢، ٢٢٦، ٢٢٨.

٢) أوجفت ، مقاطعة تابعة لمديرية أطار ، وقد وصفها أحمد بن الأمين في كتابه الوسيط : ص ٤٣٢ بقوله : أوجفت مدينة للسماسرة وبها واد كثير النخل ، بينها وبين شنقيط يومان تقريباً.

٣) مدينة تجكجة هي عاصمة ولاية تكانت ، وهي الولاية التاسعة من ولايات موريتانيا ، وقد تحدث المختار بن حامد عن تاريخ تأسيس مدرسة تجكجة وعن علمائها ، وبدأ ذلك بقوله : مدرسة تجكجة أسسها إيدو علي القادمون من شنقيط من عجز القرن الحادي عشر عام ١٠٧٠هـ حياة موريتانيا ١٩٩/٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨.

٤) الخليل النحوي : المرجع السابق ص ١٠٥ ، وراجع الوسيط : المصدر السابق ص ٤٤٤.

٥) سيأتي الكلام بالتفصيل عن هذه الحرب في الفصل الخامس.

٦) الخليل النحوي : المرجع السابق ، ص ١٠٥.

المطلب الرابع

نظام المحاضـــــــــــــــــــــــــــر

إن نظام المحاضر يعتبر ظاهرة موريتانية متميزة ، نتيجة لعوامل خاصة فنظام المحضرة يقوم على عالم معين ، يؤسس المحضرة ، أو تتأسس عليه ، فتعرف به وتنسب إليه ، تعيش ما عاش ، وتموت إذا مات ، ولا تكاد تقوم بدونه(١).

ويتسم نظام المحاضر بالحركة والمرونة ، فهي ذات نظم ، ومقررات وأعراف تربوية خاصة ، اقتضتها ظروف البلاد.
فالمحضرة لا ترد طالباً لعدم وجود مقاعد شاغرة ، ولا تغلق أبوابها لقلة عدد الطلاب ، فلا حد أعلى لعدد الطلاب الذين تستقبلهم ، ولا حد أدنى للعدد الذي تقوم عليه ، فقد يقل الطلاب في بعض الأزمنة بحيث لا يبقى في المحضرة إلا طالب أو طالبان فقط.

ومن النظم الثابتة في المحاضر: اعتماد التعليم الفردي من طرف الأستاذ والطالب معاً ، وربما استعان بعض مشايخ المحاضر بطلبته

---

١) الخليل النحوي ، المرجع السابق ص ١٢٧ ، ومحمد الصوفي المرجع السابق ص ٦.

المتفوقين ليساعدوه في التدريس(١).

وذلك إذا كثر الطلاب ، بحيث لا يتسع وقت الشيخ لتدريسهم حتى ولو أنفقه كله ، لهذه الغاية ، من ناحية الشيخ ، ومن ناحية الطالب.
فالمحضرة تؤدي رسالتها وفق نظام التعليم الفردي أيضاً ، فالقاعدة العامة المتعارف عليها : أن يكون لكل طالب درس خاص به يختاره لنفسه في ضوء رصيده العلمي السابق ، وهوايته ، ومدى استيعابه للفن ، وغير ذلك ، والشيخ يكون مستعداً لتلبية اختيارات الطالب يعلمه ما شاء في أي وقت شاء ، إلا لمانع يحول دون ذلك.

ولا يتدخل الشيخ للطالب في اختيار المادة ، لا كماً ولا نوعاً ، وقلما يتدخل له في تحديد وقت الدراسة ، ولا يراقب غيابه ، بل الطالب رقيب على نفسه ، ومسؤول عن اختباره يأتي متى شاء ، ويدرس أي مادة شاء ، ويغيب مى شاء.

ومما يسترعي الانتباه في هذا التعليم أن الطالب لا يجمع بين فنيين فأكثر في آن واحد ، بل يشتغل بدارسة فن واحد يتفرغ له ويستمر فيه حتى

---

١) في هذا نلتقي المحاضر مع الجامعات في نظامها المعروف [بالمعيدين]..

يستكمله ويستوعبه ، ثم ينتقل إلى سواه.. وهكذا (١).

ويرى طلاب المحاضر أن الجمع بين فنين أو فنون في آن واحد عائق عن التحصيل العلمي ، ويشبهون ذلك بالتوأمين في كونهما لا سبيل إلى خروجهما معاً دفعة واحدة ، فكذلك الجمع بين فنين أو فنون فإنه يتعذر معه الاستيعاب.

ومما أنشده طلاب المحاضر في هذا المعنى قول بعضهم:

وإن ترد تحصيل فن تتمه　　وعن سواه قبل الانتهاء مه

وفي ترادف الفنون المنع جا　　إذ توءمان استبقا لن يخرجا (٢)

وهذا النظام يساعد على حفظ المتون ، واستيعابها ، خلافاً لما عليه الحال في نظام الجامعات ، حيث تلزم الطلاب بعدد من المواد في فصل واحد ، فيظل جهدهم الذهني موزعاً بين عدة فنون ، لا يكاد يتقنها إلا القلة منهم.

ومن السمات الفارقة التي تميز بها المحاضر عن غيرها ، من مؤسسات التعليم هي : أنها ليس لها مكان محدد ، ولا طريقة خاصة لإلقاء الدروس ، فتارة يكون مقرها حين الإقامة تحت الشجر أو في أعرشة من

---

١) انظر نظام المحاضر في المراجع التالية : أحمد بن الأمين : الوسيط ص ٥١٨ ، محمد المجذوب : علماء ومفكرون عرفتهم ص ١٦٣ ، الطبعة الأولى دار النفائس ، بيروت ١٣٩٧هـ والخليل النحوي المرجع السابق ص ٥٧-٥٩ ، ١٧٢ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٥٣.

٢) محمد الأمين بن داداه : محمد بن محمد سالم ، ص ١٤ ، نواكشوط ١٩٨٤م.

خشب ، أو تحت الخيام ، أو في الهواء الطلق.

أما أثناء الارتحال ، فقد يكون مقرها ظهور الابل ، ويشير العلامة المختار بن بون المتوفى عام ١٢٢٠هـ بهذه الميزة حيث يقول:

ونحن ركب من الأشراف منتظم أجل ذا العصر قدراً دون أدنان

قد اتخذنا ظهور العيس مدرسة بها نبين دين الله تبياناً (١)

أما طريقة إلقاء الدروس فلا يلتزم الأستاذ ولا الطلبة فيها نظاماً ثابتاً فالبساطة صيغة الحياة الموريتانية كلها ، ولا تشذ عن ذلك المحاضر ، فليس للشيخ كرسي يجلس عليه ساعة التدريس ، وليس على الطلبة إلا أن يكونوا حوله في حالة تمكنهم من متابعة الدرس ، ولا تخل بوقار العلم.

ويصور لنا أحمد بن ألامين ذلك وهو العارف بنظام المحاضر بقوله «..لا ضابط للهيئة التي يلقي عليها المدرس عندهم ، فتراه يدرس مرة ماشياً مسرعاً ، ومرة جالساً في بيته ، ومرة في المسجد ، ومنهم من يدرس في أثناء الارتحال من جهة إلى أخرى ، سواء كان ماشياً أو راكباً ، وقد

---

١) محمد المجذوب : علماء ومفكرون عرفتهم ص ١٦١ ، وأحمد بن أحمد المختار ، مقدمة كتاب المنهج ص ١٢ ، والدكتور محمد المختار بن محمد الأمين : دراسة وتحقيق لكتاب مراقي السعود إلى مراقي السعود ، للعلامة محمد الأمين بن أحمد زيدان الجكني ، الشنقيطي ، ص ١٣ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم أصول الفقه في الجامعة الإسلامية ، سنة ١٤٠٠هـ/١٤٠١هـ.

يكون راكباً والطلبة يمشون على أقدامهم في ناحيته(١).

وبهذه الميزة كانت المحاضر فريدة من نوعها ، حيث اخترع الموريتانيون فيها نظاماً طوعوا به العلم لظروف الصحراء القاسية ، فجعلوا من المحاضر جامعات تسبح في الأرض لا مقر لها ، ورغم ذلك فقد نالت إعجاب التربويين المعاصرين.

يقول الدكتور محي الدين صابر : المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - «إن نظام المحاضر يكاد يكون منقطع النظير استنبط من واقع الحياة البدوية»(٢).

وإذا كان بعض الناس قد علق بأذهانهم أن العلم ربيب الحضارة وحسبوا أستيطان المدن ، والاستقرار في المناطق الحضرية ، شرطاً في تحصيل المعارف العلمية ، فإن الباحثين يؤكدون أن هذه المحاضر التي نشأت في الصحراء ، وتطورت فيها حققت لطلابها مستوى علمياً رفيعاً ، لا يقل عن مستوى الجامعات العريقة المشيدة في المناطق الحضرية(٣).

---

١) الوسيط ص ٥١٩.

٢) د. محي الدين صابر : مقال نشرته جريدة الشعب الموريتانية ص ٥-٦ تاريخ ١٤٠١/٤/١٣هـ وراجع محمد المجذوب : علماء ومفكرون عرفتهم ص ١٦٤.

٣) راجع محمد الصوفي : المحاضر الموريتانية ص ٤٦-٤٨ ، والمرابط بن عبدالعزيز : تاريخ موريتانيا من حياة العلامة محمد المامي ص ١٧ ، طبعة نواكشوط ١٩٨٢م، وراجع مقارنة بين المحاضر وجامعة القرويين بفاس أجراها الخليل النحوي في كتابه : بلاد شنقيط المنارة

المطلب الخامس

ظروف الدراسة في المحاضر

إن المحاضر تعتبر مدارس خيرية ، تقوم على أساس من التطوع والمبادرة الحرة ، طلباً للثواب من الله عز وجل في الدار الآخرة.. وظروفها قاسية بالنسبة للشيخ والطالب على حد سواء ، وإن كان الطالب يزيد على الشيخ بتحمل معاناة الغربة في أكثر الأحوال ، ومع ذلك لا بد له من الصبر على تحصيل المعارف العلمية ، والسلوك الحسن ، والتواضع ، والوقار ، والأدب..

وقد أشار الخليل النحوي إلى صعوبة ظروف الدراسة في المحاضر بقوله: «لقد كانت الحياة المحضرية في بلاد شنقيط قاسية أكثر مما كانت حياة طلاب العلم في أي بلد آخر ، خصوصاً إذا نظرنا إلى ما كان عليها لطلاب من سعة حال في المدارس العتيقة ، مثال مدارس العراق والأزهر

والرباط ، ص ٢١٢ ، وما بعدها.. وتذكر بعض المصادر أن قبائل الزوايا لا يوجد فيها ذكر ولا أنثى إلا وهو يقرأ ويكتب ، وإن وجد في قبيلة غير ذلك ، فهو نادر بحيث لا يوجد في المائة أكثر من واحد على تقدير وجوده ، الوسيط : المصدر السابق ص ٥١٧.. وعبدالمطلب الدليشي : المرجع السابق ص ٦١ ، والجدير بالذكر أن قبائل الزوايا يمثلون من بين مجموع السكان نسبة ٣٦٪ ، الخليل النحوي : المرجع السابق ص ٤٥.

والزيتونة والقرويين..»(١).

وقد وصف أحمد بن الأمين تعب العالم في هذه المحاضر وما يكابده من مشاق حيث قال: «فقد يستغرق العالم يومه كله في التدريس وهو مورد للضيوف وللمستفتين، ولطالب الحاجة، وليس للقاضي ولا للمدرس هناك أوقاف تصرف عليهما، ولا يأخذ أحدهما من الطلبة، بل قد يعطيهم من يده»(٢).

وقارن أحمد بن الأمين بين ظروف الطلبة في المشرق، وظروف الطلبة في بلاد شنقيط بقوله: «إذا تأملت يا مشرقي طالب العلم في أرض شنقيط علمت أنك تجد من الإعانة مالا يجد، لأن لك من الأوقاف ما يكفيك، ووراءك امتحان يحملك على الاجتهاد، لأنك إذا سقطت قطعت من الدفتر، وإذا لم تكن عالماً جعلت عسكرياً، وإذا صرت عالماً تأخذ من الأوقاف ما يكفيك أنت ومن تمون».

«أما الطالب في أرض شنقيط، فبعكس هذا كله، فإنه إذا لم يتعلم لا يؤخذ للعسكر، وإذا طلب العلم لا يجد وقفاً يتقوت منه، وإذا صار عالماً

---

١) الخليل النحوي: المرجع السابق ص ١٣٨.

٢) الوسيط: ص ٥١٨-٥١٩.

ليس وراءه وقف يضمن له ما هو مضمون لك»(١).

وكان لطلبة المغرب ما كان لطلبة المشرق ، من أوقاف ، ومعاونات من الدولة ، وغير ذلك من أسباب الحياة الرحبة(٢).

وقد انفردت المحاضر في العصور المتأخرة بهذه الحياة العلمية المملوءة بصور الكد والعناء ، ويصدق على طلاب المحاضر قول أحدهم:

تلاميذ شتى ألف الدهر بينهم   لهم همم قصوى أجل من الدهري
يبيتون لاكن(٣) لديهم سوى الهوى   ولا من سرير غير أرمدة(٤) غبرى(٥)

ومع ما في الحياة المحضرية من كد وشظف عيش ، فإنها لم تصل إلى ما كانت عليه الحياة العلمية الإسلامية في عصورها الأولى ، من صور الكد والعناء ، والصبر على اللأواء ، والنصب في طلب العلم ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

---

١) المصدر السابق نفسه ص ٥٢٠.

٢) الخليل النحوي ، المرجع السابق ص ١٣٩.

٣) [الكن] السترة والجمع أكنان ، قال تعالى : ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ سورة النحل الأيى : ٨١ ، والأكنة : الأغطية ، راجع مادة [كنن] في المختار الصحاحج ص ٥٨٠.

٤) [أرمدة] جمع رماد ، والمراد أن لون هذه الأسرة صار كلون الرماد لتقادم عهدها واغبرار لونها ، راجع مادة رمد وغبر ، في القاموس المحيط ص ٣٦٢ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦.

٥) أحمد بن الأمين : الوسيط ص ٥٢١ ، وعبداللطيف الدليشي المرجع السابق ص ٦١.

ومن الأمثلة على ذلك ، ما حصل لربيعة الرأي المتوفى عام ١٣٦هـ رحمه الله أثناء طلبه للعلم ، حيث اضطر إلى بيع خشب سقف بيته ، وأكل ما يلقى على مزابل المدينة ، من الزبيب ، وعصارة التمر(١).

وقال الإمام مالك بن أنس المتوفى عام ١٧٩هـ رحمه الله : إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر(٢).

وقال الإمام الشافعي المتوفى عام ٢٠٤هـ رحمه الله : لا يطلب هذا العلم أحد بالمال وعز النفس فيفلح ، ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم أفلح»(٣).

هذا وقد كان السلف ينظرون إلى ما يجب أن يتحمله طالب العلم في سبيل التحصيل ابتغاء وجه الله عز وجل.

ويمكن القول بأن طلاب المحاضر قد نهجوا نهج السلف ، في الصبر على تحمل الشدائد في طلب العلم ، ابتغاء مرضاة الله تعالى.

---

١) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم وفضله ١٦/١.

٢) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

٣) المصدر السابق نفسه ١٧/١.

المطلب السادس

المناهج الدراسية في المحاضر

من المعلوم أن نشر العلم هو رسالة المحاضر ومهمتها الأولى والأخيرة فهي مؤسسات جامعة للعلوم الإسلامية ، وكثير من المعارف العلمية المتنوعة ، وتهتم بالدرجة الأولى بالعلوم الشرعية..
أما علوم الآلة كاللغة ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، فيدرسنها لا لذاتها ، بل ليفهم بها الكتاب والسنة ، فهي وسيلة وليست غاية.

ويعبر الدكتور محمد المختار بن اباه عن هذا المعنى بقوله : «لم تزل هذه الثقافة - يعني ثقافة المحاضر - ترتكز على العلوم الشرعية ، حيث أن وجود الدراسات اللغوية والبلاغية يعتبر أداة لاستكمال المعارف الدينية»(١).

وقد كانت المحاضر توفر لطلبة العلم جميع ما يحتاجونه أو يبتغونه من العلوم الشرعية ، واللغوية ، إلى علوم التاريخ ، والمنطق ، والحساب ،

---

١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٦ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ١٩٥.

والجغرافيا، والفلك، والطب(١).

هذا ويتم تلقي المعارف العلمية في هذه المحاضر على مراحل ثلاث كالآتي:

المرحلة الأولى:

وهي المرحلة الابتدائية، وتبدأ بتعليم الحروف الأبجدية، ثم حفظ القرآن الكريم، ومعرفة رسمه، وضبطه، وتجويده بقراءة الإمام نافع، بروايتي قالون وورش، وأشهر المتون التي تدرس في علم التجويد: نظم الدرر اللوامع لابن بري، وشرحه المسمى بالنجوم الطوالع على الدرر اللوامع، ومقدمة ابن الجزري.

وهذه المرحلة تبدأ من السنة الخامسة وتنتهي ببلوغ الحلم(٢).

المرحلة الثانية:

هذه المرحلة بمثابة التعليم الثانوي، ويسمونها [تعليم فرض العين](٣). وذلك أن الطفل أو الفتاة عندما يبلغ أحدهما سن التكليف، يصير بحاجة إلى معرفة أحكام الإسلام، التي أصبحت فرض عين عليه، ويأخذ الطالب في هذه المرحلة أوليات العلم بنصيب.

---

١) المرجع السابق نفسه ص ١٩٠، ١١٢.

٢) راجع أحمد الأمين: الوسيط ص ٥١٨، ومحمد يوسف مقلد: شعراء موريتانيا ص ٣٤٠، ومعهد البحوث المرجع السابق ص ٤٧١، ومحمد الصوفي المرجع السابق ص ١٨٣.

٣) راجع عن فرض العين، وفرض الكفاية والمفاضلة بينهما: شرح شمس الدين محمد المحلي على متن جمع الجوامع لتاج الدين عبدالوهاب السبكي ١/١٨٢-١٨٣، دار الفكر، بيروت ١٤٠٢هـ وانظر: ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١/١٣-١٥.

فيدرس متوناً مختصرة ، مثل المرشد المعين على الضروري من علوم الدين ، لابن عاشر في العقيدة والفقه ، ومختصر الأخضري في الفقه ، والآجرومية في النحو ، وبعض دوواين العرب(١).

المرحلة الثالثة :

دراسة مهمات المتون ، وهذه المرحلة تعتبر بمثابة المرحلة الجامعية ، في التعليم النظامي المعاصر ، وأهم المتون والكتب التي تدرس في هذه المرحلة كالتالي:

١- مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني.

٢- مؤلفات السنوسي : وأهمها عقيدته المسماة بالسنوسية الصغرى ، وتعرف بأم البراهين ، وعقيدته التي تسمى عقيدة أهل التوحيد ، وتعرف بالسنوسية الكبرى(٢).

٣- إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة ، لأحمد المقري التلمساني.

٤- وسيلة السعادة للمختار بن بون الحكني الشنقيطي.

٥- الواضح المبين لعبد القادر بن محمد سالم المجلسي الشنقيطي(٣).

---

١) راجع أحمد بن الأمين ، الوسيط : ص ٥١٨ ، ومحمد المختار بن اباه المرجع السابق : ص ٢٨-٢٩ ، وسميرة بنت صقر ، المرجع السابق ص ١٧.

٢) للتوسع في مؤلفات السنوسي في العقيدة الأشعرية ، راجع كتاب عبدالقادر بن محمد سالم : المباحث الجليلة في شرح الوسيلة ، ص ٣٤ ، مخطوط شخصي..

٣) هذا هو المنهج العقدي الذي كان سائداً في الفترة الماضية ، أما الآن فقد تغير هذا المنهج في بعض المحاضر ، كما أن الكثير من المعاهد الاسلامية التي تعتبر محاضر مطورة لم يأخذ بهذا

هذه هي أهم المتون التي كانت تدرس في العقيدة ، أما المواد الأخرى فالكتب التي تدرس فيها هي : تفسير ابن جرير الطبري ، وتفسير ابن كثير ، وتفسير الجلالين في مادة التفسير..

وفي مادة الحديث : موطأ الامام مالك ، وصحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، وكتب السنن الأربعة : ابن ماجة ، والترمذي ، وأبو داود ، والنسائي.

وفي مادة الفقه : رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ومختصر خليل بن اسحاق ، وتحفة الحكام لابن عاصم ، والكفاف لمحمد مولود ابن أحمد فال الشنقيطي.

وفي أصول الفقه : ورقات إمام الحرمين ، وجمع الجوامع لتاج الدين عبدالوهاب السكبي ، ومراقي السعود لسيد عبدالله بن الحاج إبراهيم الشنقيطي.

وفي السيرة والأنساب : قرة الأبصار لعبدالعزيز اللطمي ، وسيرة ابن هشام ، وعمود النسب لأحمد البدوي الشنقيطي.

وفي النحو والصرف : ملحة الإعراب للحرير ، وألفية ابن مالك ،

المنهج ، وإنما أخذ بالمنهج السلفي الخالص كما سنرى.

ولامية الأفعال لابن مالك أيضاً ، واحمرار الحسن بن زين على اللامية.

وفي اللغة والأدب : المعلقات السبع ، ودوواين الشعراء الستة الجاهليين ، ولامية العرب للشنفري ، وبانت سعاد لكعب بن زهير ، وديوان غيلان ذي الرمة ، وديوان المعري ، ومثلث قطرب ، ومثلث ابن مالك ، والشقمقية لابن وتان ، والمقصود والممدود لابن مالك ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ، وهو كتاب مطالعة لا كتاب حفظ.

وفي العروض : كتاب الوافي ، والخزارجية ، ونظم ابن عبدم ونظم يحيى بن أحمد الشنقيطي.

وفي البلاغة : ألفية السيوطي ، عقود الجمان ، ونور ا لأقاح لسيدي عبدالله بن الحاج ابراهيم المغلوي الشنقيطي.

وفي المنطق : مختصر السنوسي ، والسلم للأخضري ، وقواعد المنطق للمغيلي(١).

هذه المتون ، هي جل ما يدرس في المحاضر ويتغير الترتيب فيها من

---

١) راجع عن مناهج المحاضر ومراحل الدراسة فيها : محمد الصوفي : المحاضر الموريتانية ص ١٨٣-١٨٤ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٢١٢-٢١٧ ، وسميرة بنت صقر ، المرجع السابق ص ١٦-١٧ ، وما ذكرته من التقسيم على المراحل الثلاثة هو الذي جرى عليه عرف التعليم في أكثر بلاد شنقيط ، وليس من الضروري أن يشمل جميع المحاضر ، لعدم وجود منهج نظامي موحد ملزم.. ويرى البعض أن المرحلة الأولى من المراحل الثلاثة تعتبر تمهيداً لدخول المحاضر وليست داخلة في اسم التعليم المحضري.. الخليل النحوي : المرجع السابق ص ١٦٥.

منطقة إلى منطقة ، ومن محضرة إلى محضرة ، بل ومن طالب إلى طالب..
وقد يترك بعض الطلاب شيئاً من هذه المتون ، ويدرس متوناً أخرى ، حسب ميول الطالب ومستواه العلمي.

فقد ذكر الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي أن والده درس المتون التالية : مختصر خليل ، ونظم ابن أبي عاصم ، ورسالة ابن أبي زيد ، وحدود ابن عرفة في الفقه ، وألفية ابن مالك ، والفريدة للسيوطي في النحو ، وألفية السيوطي ، عقود الجمان ، في البديع والبيان ، وكتاب المنتجور على قواعد الزقاق في القواعد ، وورقات إمام الحرمين وجمع الجوامع للسبكي ، في أصول الفقه ، والصحاح الستة [البخاري ، ومسلم ، وابن ماجة ، والترمذي ، وابن داود ، والنسائي] في الحديث ، وتفسير ابن عطية(١).

والجدير بالذكر أن التعليم في المحاضر يتركز بصفة أساسية على حفظ المتون ، فطلاب المحاضر لا يعدون علماً إلا ما حصل في الصدور ووعته الذاكرة متناً ومعنى(٢).

---

١) بول مارثي كنته الشرقيون ، ص ٤٧-٤٨ ، ومحمد المختار بن أباه ، المرجع السابق ص ٢٦ ، والخليل النحوي المرجع السابق ص ٢١٢.

٢) راجع محمد المجذوب : علماء ومفركون عرفتهم ص ١٦٣-١٦٤ ، وسميرة بنت صقر ، المرجع السابق ص ١٧.

وقد اشتهرت في ذلك أمثلة شعبية عندهم ، قل من لا يحفظها من طلبة العلم ولهم أشعار نبطية في هذا المعنى(١).

والمعروف أن المحاضر لا تمنح شهادة علمية معينة ، ولكنها ربما منحت لبعض طلابها المتفوقين إجازات في العلوم ، التي أتقنوها ، ومن المعلوم أن الجامعات على العكس من ذلك فهي تمنح شهادات لطلابها بدرجة معينة مع تفاوت أصحابها في التحصيل العلمي.

وعلى أي حال ، فقد استطاعت المحاضر أن تكون أفواجاً من العلماء ، على مدى تاريخ طويل ، فقد خرجت أجيالا من العلماء ، الحفاظ ، الذين كانوا يحملون العلم معهم في الحل والترحال ، صدورهم خزائن لكل ما طالعوه أو درسوه(٢).

---

١) من ذلك قول أحدهم:

احفظ نصك يـــل يرعاك   واحذر من نص ابلا معنى
والنص إلى ما تم امعاك   يتا فك هو والمعنـــــــى

ومعنى قوله : يل يرعاك : دعاء بأن يجعله الله في رعايته ، ومعنى قوله : والنص الى ما تم امعاك يتافك هو والمعنى : اي أن من نسي النص فإنه سينسى المعنى كذلك.. والكاف المعقودة في قوله : يتافك ، أصلها قاف وتكتب كاف يعلوها ثلاث نقط ، وهكذا في سائر ما يأتي بكاف معقودة.. ومن الامثلة التي تعبر عن هذا المعنى قولهم : القراية في الراس ماه في فاس ولا في مكناس.. ومعنى ذلك أن العلم المعتبر هو ما حفظ وليس في كثرة الذهاب إلى المدن الحضراية ومؤسسات التعليم فيها.. راجع أحمد بن الأمين : الوسيط ص ١، والخليل النحوي المرجع السابق ، ص ١١٢ ، ومحمد الصوفي : المرجع السابق ص ٤٩.

٢) الخليل النحوي : المرجع السابق ، ص ٢٢٩ ، وعبدالهادي بو طالب وآخرون : ندوة الحركة السلفية في المغرب العربي ص ٢٠٠ ، مركز الحسن الثاني للملتقيات الدولية بالرباط ، شعبان

وفي الحقيقة ، إن بعض هؤلاء قد خرجوا الى بلاد شتى ، وما حلوا بأرض إلا وخلفوا فيها ذكراً حسناً ، واستأثروا بإعجاب أهلها ، وما نالت شنقيط مكانتها العلمية إلا بسبب شهرة علمائها ، وما وصلوا إليه في مختلف مجالات العلوم الدينية ، والآداب ، والعربية ، واتصالهم بعلماء المشرق(١) .

يقول الدكتور محي الدين صابر : «كانت صورة الشناقطة وما تزال في البلاد العربية أنهم الممثلون الأوفياء للثقافة العربية الإسلامية ، في نقائها وأصالتها ، وأنهم سدنتها في قاصية ديار الإسلام ، المرابطون في ثغورها ، حفاظاً عليها ، ونشرا لها ، وإشعاعاً بها(٢).

ويعبر عبداللطيف الدليش الخالدي عن هذا المعنى بقوله : إن من الشناقطةعلماء قد لا نغالي إذا قلنا عنهم أنهم لا يقلون أهمية عن أمثال جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، وأبي الثناء الألوسي ،

١٤٠٩هـ ومحمد ناصر الدين الالباني : صحيح الجامع الصغير وزياداته في الفتح الكبير ، المجلد الأول ص ٢٣ ، الطبعة الثانية ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ١٤٠٦هـ.

١) معهد البحوث ، المرجع السابق ص ٤ ، وعبداللطيف الدليشي الخالدي ، المرجع السابق ص ١٩ ، ٦٢.

٢) خطاب الدكتور محي الدين صابر : مدير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الذي ألقاه بمناسبة الحملة الدولية لانقاذ المدن التاريخية الموريتانية ، شنقيط ، ودان ، تشيت ، ولاته ، نشرته جريدة الشعب الموريتانية ، في العدد ١٧٠٢ ص ٧-٨ ، في ١٣ ربيع الثاني ١٤٠١هـ.

وأضرابهم ، وشعراء فحول لا يقلون مستوى عن أمثال : المتنبي ، والبحتري ، وشوقي ، والرصافي(١).

وما كان لهذه الحقيقة أن يعرف عنها الشيء الكثير لولا هؤلاء العلماء الذين خرجوا يجوبون أطراف البلاد الإسلامية ، لنشر المعارف العلمية ، والدعوة إلى الله تعالى - بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكانوا مرجعاً للناس في البلاد التي حلوا بها في مجالات علمية قل من يزاحمهم فيها ، وهؤلاء العلماء كثيرون ، ولو رمنا حصرهم لخرج بنا ذلك عن المقصود ، فلنكتف منهم بما يصلح شاهداً على ما نحن بصدده.

فبالنسبة لصلة العلماء الموريتانيين بمراكز العلم والثقافة في المغرب ، فقد ظلت وثيقة وظهرت شخصيات علمية موريتانية في المغرب ، لعل من أبرزها دوراً وأوسعها علماً الشيخ محمد المصطفى بن الشيخ محمد فاضل الذي اشتهر بلقبه [ماء العينين]..

فقد ولد الشيخ ماء العينين سنة ١٢٤٦هـ بولاية الحوض الشرقي من موريتانيا ، وتلقى العلم في محاضر بلاده ، وانتصب لتعليم الناس له اليد الطولى في علوم شتى وخاصة علم التفسير ، والحديث ، والفقه ، وهو صاحب طريقة صوفية قادرية ، اتجه إلى المملكة المغربية ونال حظوة كبيرة

---

١) عبداللطيف الدليشي ، المرجع السابق ص ٩.

عند عدد من ملوكها ، والتف الناس حوله ، وأقبلوا عليه ، وكان من أبرز زعماء حركات الجهاد إبان الاستعمار الغربي للشمال الأفريقي ، وأسس مدارس في المغرب ، والصحراء ، له مؤلفات كثيرة توجد منها بالخزانة الملكية في المغرب مائة كتاب ، وقد طبع منها نحو ثمانين كتاباً ، منها : دليل الرفاق على شمس الاتفاق على المذاهب الأربعة ، والمرافق على الموافق في الأصول ، واللؤلؤ المحوز على الراموز في الحديث ، توفي بتزنيت من أرض السوس سنة ١٣٢٨هـ(١).

وأما بالنسبة للعلماء الموريتانيين الذين رحلوا إلى البلاد المشرقية ، فمن البارزين منهم : الشيخ محمد محمود بن التلاميد علامة عصرة في اللغة ، والأدب ، والحديث ، شهد الناس بسعة علمه ، وقوة حافظته ، وجرأته.

توطدت الصلة في مصر بينه وبين الشيخ محمد عبده ، وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضى ، الذي وصف محمد محمود بن التلاميد بأنه العلامة المحدث الذي انتهى إليه رئاسة اللغة والحديث في هذه البلاد ، يعني بلاد مصر..

وفي المدينة المنورة ، توطدت الصداقة بينه وبين أديب الحجاز وعالمه آنذاك الشيخ عبدالدليل براده ، ثم شملته نفرة حصلت بين الشنقيطي وعلماء المدينة المنورة لأمور جرت بينهم ، وقد عكف في مصر

---

١) راجع أحمد بن الأمين : الوسيط ص ٣٦٥ - ٣٦٧ ، وندوة الحركة السلفية بالمغرب العربي ، المرجع السابق ص ١٨٥ ، وما بعدها ، وسميرة بنت صقر المرجع السابق ص ١٢.

على تحقيق ونشر ذخائر التراث العربي ، فصحح كتاب الأغاني وحرر القاموس.

له عدة مؤلفات منها : الحماسة السنية في الرحلة العلمية.. مطبوع ، ومها إحقاق الحق ، حاشية على شرح لامية العرب لعكاش اليماني ، بين فيها أغلاطه ، وكان يملك مكتبة كبيرة ، أوصى بأن تجعل وقفاً على طلبة العلم.. توفي بمصر سنة ١٩٠٥م قبيل وفاة الشيخ محمد عبده بقليل ، ومات وهو لا يملك شيئاً يذكر ، وقام بنفقة تجهيزه ودفنه صديقه الشيخ محمد عبده»(١).

وفي العراق ، ظهر الشيخ محمد الأمين الخير ، وهو علامة فاضل ، واسع الاطلاع ، حافظ للمتون ، إمام في اللغة والأدب ، حاد الذكاء ، له همة عالية ، ونشاط ملحوظ في الدعوة إلى التمسك بمنهج السلف الصالح ، كثير الترحال ، وصل إلى مكة المكرمة قادماً من بلاده سنة ١٣١٩هـ ، وأدى مناسك الحج ، وقضى مدة في الحجاز يتنقل بين مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ثم سافر إلى الهند ، وعمان ، والبحرين ، والأحساء ، ثم انتقل إلى الزبير ، والبصرة بالعراق ، قام بزيارة الكويت مراراً.. وتوطدت العلاقة بينه وبين شخصيات مرموقة في الخليج ، ومنهم الشيخ أحمد الجابر الصباح أمير الكويت ، والمصلح الكبير البحريني عبدالوهاب

---

١) راجع أحمد بن الأمين : الوسيط ص ٣٨١ ، ٣٩٦ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٥٦-٥٨ ، ٥٢٨ ، وما بعدها ، وعبداللطيف الدليشي : المرجع السابق ، ص ٦٨ ، ٧٢ ، ٢٧٠.

الزياني ، دعى لزيارة الكويت أكثر من مرة ، وكان من بين هذه الدعوات دعوة النادي الأدبي بها ، حيث قوبل هناك بالحفاوة والتكريم من أمير الكويت والأوساط العلمية والأدبية فيها..

اشتهر بالحماس وشدة الاندفاع إلى الجهاد ضد الاحتلال البريطاني وشارك في معركة [الشعيبة] وجمع بين حمل السلاح وتحريض المجاهدين ، وحثهم على الثبات والاستماتة في الذود عن الإسلام.

استقر به المقام أخيراً في قرية الزبير من أعمال البصرة ، وبها أسس جمعة النحاة ومدرستها ، وعكف على نشر العلم ، وخدمته ، فشاهد الناس علمه ، وعاينوا فضله ، فأقبلوا عليه ، وقد ربى أفواجاً متلاحقة من أنحاء الخليج ، أصبحوا فيما بعد رجال علم ، وقضاء ، وأدب ، وشغلوا مناصب ذات أهمية.

ولعل كثرة ترحاله ، ونشاطه في الدعوة والتدريس ، لم يتركه يتفرغ للتأليف ، فلم يصل الينا من تأليفه سوى مذكرات لخص عبداللطيف الدليشي بعضها في آخر كتابه الذي أفرده لهذا العالم وجهوده»(١).

وفي الحجاز : ظهر الشيخ محمد الخضر بن مايا بن العلامة المحدث

---

١) حول هذا العالم وجهوده صدر كتاب بعنوان : من أعلام الفكر الإسلامي في البصرة : الشيخ محمد أمين الشنقيطي ، تأليف عبداللطيف الدليشي الخالدي ، المرجع السابق.

اشتهر في بلاده بمعرفة الفقه وأصوله ، ولما وصل إلى المغرب في رحلته للحج اشتغل بالحديث ، وبرع فيه ، قدم إلى الحجاز سنة ١٣٣٠هـ واستقر في المدينة المنورة ، وتولى الإفتاء بها ، واشتهر بنبذ التجانية ، وألف في نقدها كتابه : مشتهى الخارف الجاني في رد زلفات التجاني الجاني ، له عدة مؤلفات أهمها:
كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري ، يقع في عشر مجلدات ، وقد طبع منه ثلاثة أجزاء في عمان بالأردن ، وكتابه إيضاح مختصر خليل بالمذاهب الأربعة بأصح دليل [مخطوط] واستحالة المعية بالذات ، مطبوع بمصر ، توفي سنة ١٣٥٤هـ.

وفي الحجاز ومصر : ظهر الشيخ محمد حبيب الله بن مايا شقيق الشيخ محمد الخضر الآنف الذكر ، وكان علامة ، محدثاً ، ماهراً في علم القراءات ، وتوجيهاته لها اليد الطولى في علم النحو والصرف ، حافظاً للمتون ، ومن ذلك أنه كان يحفظ الصحيحين بأسانيدهما ، ومتونهما ، هاجر إلى مكة المكرمة ، واستوطنها زمناً ، ثم انتقل إلى القاهرة واستقر بها مدرساً في كلية أصول الدين في الأزهر..
له مؤلفات كثيرة أهمها : كتابه زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ، وكتابه الدليل السالك إلى موطأ الإمام مالك ، وهما مطبوعان ، توفي

بالقاهرة سنة ١٣٦٣هـ(١).

ومن هؤلاء العلماء البارزين أحمد بن الأمين المولود سنة ١٢٨٩هـ الذي تلقى العلم في بلاده ، ورحل إلى المشرق ، فأدى فريضة الحج سنة ١٣١٧هـ والتقى ببعض العلماء في مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، فأخذ عنهم ، واستفاد منهم ، ثم قام برحلات كثيرة في أقطار إسلامية عديدة ، تعرف من خلالها على معاهد علمية ، ومكتبات إسلامية ، والتقى بكبار علماء هذه البلاد التي زارها ، واستفاد منهم ، ثم استقر به المقام في مصر سنة ١٣٢٠هـ ، وأكب على العلم دراسة وتصنيفاً ، وتحقيقاً وكان وثيق الصلة بعلماء مصر في وقته ، وله اليد الطولى في علوم اللغة العربية وآدابها ، والفقه ، وأصوله ، صنف عدة كتب منها : الدرر اللوامع شرح جمع الجوامع في علوم اللغة العربية ، يقع في مجلدين ، والوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، وهما مطبوعان في مصر ، توفي بالقاهرة سنة ١٣٣١هـ(٢).

وفي النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، تألق نجم العلامة محمد الأمين بن محمد المختار ، حيث خرج من بلاده لأداء فريضة الحج

---

١) راجع الزركلي الأعلام ٣٠٧/٦ ، ومحمد حبيب الله بن مايا بي زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ، ٥٤٩/٥ ، وما بعدها ، طبعة دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، [د. ت] ومحمد أبو شهبة : المدخل لدراسة القرآن الكريم ص ١٣ ، الطبعة الثالثة ، دار اللواء للنشر والتوزيع ، الرياض ١٤٠٧هـ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٥٧٠.

٢) راجع الوسيط ، المصدر السابق ، ص ٧-١٠ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٣٩٩-٤٠١ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٢٧١-٢٧٢.

وعلى نية العودة ، وبعد وصوله إلى المملكة العربية السعودية تجددت نية بقائه فيها ورغب رحمه الله في الجوار بالحرمين الشريفين.. وذلك بعد أن جرت له زيارة ومحادثة مع بعض المسؤولين عن الدعوة إلى الله في المدينة ، وعن شؤون المسجد النبوي ، فتمت المعرفة ، ووقعت الألفة ، فاستقر عزمه على الإقامة والاستيطان ، بعد المؤانسة والاطمئنان(١).

وواصل نشاطه في نشر العلم والدعوة إلى الله تعالى وكان من أبرز حملة العلم والدين في الديار السعودية ، ومن كبار المؤسسين للنهضة العلمية الحديثة التي ازدهرت فيها ، قام بجهود بارزة في تقرير عقيدة السلف وبيانها ونصرتها ، والدفاع عنها ، والرد على المخالفين لها ، وقد نال أسلوب بيانه للعقيدة السلفية إعجاب المسؤولين في مؤسسات العلم والدعوة الإسلامية في هذه البلاد(٢).

---

١) عطية محمد سالم : مقدمة كتاب : رحلة الحج إلى بيت الله الحرام ، لمحمد الأمين بن محمد المختار ص ١١ ، الطبعة الأولى دار الشروق ، ١٤٠٣هـ.

٢) من الأمثلة على ذلك : ما قاله فضيلة الشيخ عبداللطيف بن ابراهيم آل الشيخ رحمه الله ، حين سمع بيان الشيخ محمد الأمين ، رحمه الله ، لعقيدة السلف حيث قال : جزى الله عنا الشيخ محمد الأمين خيراً على بيانه هذا ، فالجاهل عرف العقيدة ، والعالم عرف الطريقة والأسلوب .. المصدر السابق نفسه : ص ٢٤ ، وسميرة بنت صقر المرجع السابق ص ٥٦ ، وقد حدثني بذلك ابنه الدكتور عبدالله بن محمد الأمين ، في مقابلة أجريتها معه في المدينة المنورة ، والمقابلة عندي مكتوبة ، وموقعة منه بتاريخ ١٤١١/٤/٢٨هـ وسوف تأتي ترجمته في الفصل التاسع من هذه الرسالة.

وفي الحقيقة أن الشيخ محمد الأمين - رحمه الله - يندر وجود مثله علماً وصلاحاً ، وقد أعدت فيه ثلاث رسائل في جامعات المملكة ، واحدة منها في العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وهي بعنوان : جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف.. رسالة ماجستير قدمها الطالب عبدالعزيز بن صالح ابراهيم الطويان في عام ١٤١٢هـ.

وسيأتي الكلام بالتفصيل عن الشيخ محمد الأمين وأثره على العقيدية في موريتانيا وذلك في فصل مستقل خاص به(١).

---

١) هو الفصل الثامن من هذه الرسالة.

المطلب السابع

حركة التأليف في المحاضر

إن الأسباب التي يجب توفرها للمؤلف - من الاستقرار ، والهدوء ، والجو المناسب - تكاد تنعدم في موريتانيا في أغلب الأحوال ، حيث طبيعة الصحراء ، وكثرة الترحال ، في حين أن جل العلماء مشغول بالتدريس ، وقد لا يبقى لديه أي وقت بعده.

والبعض من العلماء يرفض التأليف حتى ولو وجدة سعة في وقته ، تورعاً وبعداً عن الرياء والمباهاة.

ورغم ذلك فقد أدلت طائفة بدلائها في هذا الميدان ، فألفت في جميع العلوم ، التي تدرس في المحاضر ، وكان جل مؤلفاتهم يتمثل في أنظام وشروح للمتون التي تتناول اللغة العربية ، والعلوم الدينية ، واشتهر كثير منهم بإنشاء المنظومات التعليمية(١).

وقد كثرت هذه المصنفات ، فبلغت الآلاف في جميع الفنون والعلوم(٢).

ويوجد كثير من هذه المؤلفات في المكتبات العائلية ، وهي ما تزال

---

١) راجع محمد المختار بن أباه : الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٧.

٢) راجع سميرة بنت صقر المرجع السابق ص ١٩ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ١٥٨-١٥٩.

مخطوطة ، وقد تعرض الكثير منها للضياع ، لأن بعض عائلات المؤلفين ليس فيهم من له همة علمية تبعثه على حفظ هذه المخطوطات ، وتوفير الصيانة لها ، وخاصة بعد محنة الجفاف التي أصابت البلاد من عام ١٩٦٩م.

حيث اشتغل الناس وقد مسهم الضر عن هذا التراث ، فربماا رتحل بعض الأحياء مخلفاً وراءه صناديق الكتب بين الأطلال في كهوف الجبال ، أو في الأعرشة ، أو في غير ذلك.. ولسان حالها ينادي : أنقذوني من الضياع ، أخرجوني من الظلمات إلى النور.

ومنذ سنوات بدأت الدولة الموريتانية تستجيب لهذا النداء ، رغم ضعف إمكانياتها.

وكان أهم ما أنجزته في هذا الإطار ، تأسيس المعهد الموريتاني للبحث العلمي ، وتكليفه بحصر المخطوطات وحفظها ، وقد وجد المعهد مؤازرة من دول وهيئات في هذه المهمة العلمية ، ورغم أن عملية الجمع ما زالت في بدايتها ، ورغم ضعف في الوسائل ، فقد تمكن المعهد من اقتناء ما يلي:

٣٢٠٠ كتاب مخطوط.

٢٢٣٩ ميكروفيلم.

٠٥٠٠ ملف للشعر.

٠٣٠٠ ملف للنوازل.

وقد تمكن المعهد من معرفة أماكن كثير من المخطوطات الموريتانية في مكتبات دول أخرى ، كما سعى المعهد إلى فهرسة بعض المكتبات ، ورغم جهود بذلت فما زالت حصيلة الفهرسة والحصر فضلا عن الاقتناء ضئيلة

قاصرة.

ولعل أهم ما أنجز في مجال الفهرسة حتى الآن دليل المؤلفين الشناقطة الذي وضعه المختار بن حامد، والخبير الدولي هيموفسكي(١).

ومما هو جدير بالذكر ، أن بعض هذه المخطوطات قد وجدت النور في السنوات الماضية ، فتم طبعها ونشرها ، إما في موريتانيا أو في غيرها من الدول العربية ، وما زال الباقي ينتظر من يخرجه من الظلمات إلى النور.

---

١) راجع الخليل النحوي : بلاد شنقيط المنارة والرباط : ص ٢٣٩-٢٩٢ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ١٥٩-١٦٠.

المبحث الخامس

الاتجاهات الدينية في المجتمع الموريتاني

المذهب الفقهي المعتمد في موريتانيا والسائد هو مذهب الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - وهو المذهب السائد في شمال وغرب إفريقيا منذ وصوله إلى المنطقة حتى اليوم(١).

العقيدة والطوائف الدينية:

مرت العقيدة في موريتانيا بمراحل كغيرها من الأقطار الإسلامية فقط ظل مذهب السلف هو السائد في عهدا لمرابطين (٤٤٨-٥٤٢هـ)(٢) وبعد سقوط الدولة المرابطية سادت العقيدة الأشعرية في المنطقة ، وغاب الفكر السلفي عن موريتانيا ردحاً من الزمن ، حتى قام الإمام ناصر الدين

---

١) وصل المذهب المالكي إلى شمال إفريقيا على يد أسد بن الفرات المتوفى عام ٢١٣هـ وعبدالسلام بن سعيد الملقب بـ سحنون التنوخي ، المتوفى عام ٢٤٠هـ أما المغرب الأقصى فقد وصله على يد أبي ميمونة دراس بن اسماعيل الحراوي المتوفى عام ٣٧٥هـ وكان أهله قبل ذلك على مذهب أبي حنيفة.. أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ٢٩٨/١-٢٩٩ ، الطبعة الخامسة ، دار الكتاب العربي ، بيروت [د. ت].

٢) راجع عبدالواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٠٢-٢٠٣ ، تحقيق محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي ، الطبعة الأولى القاهرة ١٣٦٨هـ ، والزركلي : الأعلام ، ٢٧/١ ، وسميرة بنت صقر ، المرجع السابق ص ٧.

المتوفى عام ١٠٨٥هـ بدعوته السلفية الاصلاحية(١) فانقسم الناس في مشاربهم الفكرية إلى ثلاث طوائف ، نجمل الحديث عنها فيما يلي:

١- السلفيـــــون :

كان السلفيون قليلين لا يتجاوزون أفراداً من العلماء ، ولكنهم ظلوا موجودين ، وفي ازدياد مستمر ، وقد أصبحوا اليوم كثيرين ، ولله الحمد - وهم يحاولون جهدهم في نشر العقيدة الصحيحة من الكتاب والسنة ، والرد على الفرق المبتدعة ، المتكلمين والمتصوفة ، وبيان المفهوم الصحيح للعقيدة السلفية.

٢- الأشـــــاعرة:

قدر للعقيدة الأشعرية أن تنتشر في موريتانيا وتسود فيها قروناً عديدة. وفي النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري بدأت تنحصر بالتدرج ومع ذلك ما تزال كثيرة.

وأشاعرة موريتانيا باقون حتى الآن على مذهب أبي الحسن الأشعري الأوسط ، ويتعصبون له تعصباً شديداً ، ويرون الخروج عنه ضلالة ، ويزعمون أنهم أهل السنة والجماعة ، ومع ذلك يدافعون عن علم الكلام ، ويدخلونه

١) سوف نتحدث بالتفصيل عن الإمام ناصر الدين ودعوته في الفصل الخامس.

في معتقداتهم(١) والكثير منهم يصف السلفيين بأنهم مجسمة(٢).

٣- الصوفيـــــة(٣):

ظهرت الصوفية مبكرة في الأندلس ، على يد ابن مسرة الجبلي(٤). في أواخر القرن الثالث الهجري ، ومنها انتقلت إلى المغرب ، ولم يكتمل نموها لقيام الدولة المرابطية التي وقفت بحزم ضد التصوف وأهله(٥).

وقد دخلت عدة طرق في موريتانيا بعد عهد المرابطين ونجحت في جذب الكثيرين في موريتانيا ، وفي غرب إفريقيا بوجه عام على يد مشايخ

---

١) راجع كتاب الخليل النحوي : بلاد شنقيط المنارة والرباط ص ١٩٦-١٩٧.

٢) هذه لمحة قصيرة عن السلفيين والأشاعرة ولا نريد الدخول في التفاصيل هنا لأن موضوع الرسالة هو [السلفية وأعلامها في موريتانيا] أما الأشعرية فقد أفردت لها فصلا كاملا هو الفصل الرابع من الرسالة.

٣) اختلف العلماء في المعنى الذي نسبت إليه الصوفية على أقوال ، واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أنها نسبة إلى لبس الصوف ، راجع مجموع الفتاوى ١١/٥-٧ ، وعلى بن محمد الدخليل الله : التجانية ص ٢١-٢٥ ، دار طيبة للنشر ، الرياض [د. ت] والدكتور أحمد محمد البناني : موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ص ٦٧ وما بعدها ، الطبعة الأولى ، كلية الدعوة وأصول الدين جامعة أم القرى.

٤) هو محمد بن عبدالله ويعرف بابن مسرة الجبلي ، وهو أقدم شخصية صوفية فلسفية أندلسية ، ت ٣١٨هـ عبدالله بن الحسن النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ٧٨ ، تحقيق لجنة إحياء التراث في دار الآفاق الجديدة ، طبعة دار الآفاق الجديدة نفسها بيروت ١٤٠٠هـ ومحمد السليماني : دراسة وتحقيق لقانون التأويل لابن العربي ص ٤٧-٤٩ ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدة ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت ١٤٠٦هـ.

٥) سيأتي الكلام بالتفصيل عن موقف المرابطين من التصوف في الفصل الثالث من هذه الرسالة.

الشناقطة ، وسوف نتناول بإيجاز أبرز الطرق التي استقطبت الناس في موريتانيا وهي: القادرية(1) والشاذلية(2) والتجانية(3) ، وفيما يلي نبذة عن كل واحدة من هذه الطرق:

١- القادرية :

---

١) مؤسسها أبو محمد عبدالقادر بن أبي صالح الجيلي ، ولد بجيلان عام ٤٧١هـ وأنتقل منها إلى بغداد لطلب العلم ، وتفقه في الدين على عدد من علمائها ، واشتغل بالوعظ ثم لازم الخلوة والرياضة ، والمجاهدة ، والسياحة ، والمقام في الخراب ، والصحراء ، وصفه الذهبي بقوله : هو الامام الزاهد العارف ، القدوة ، شيخ الإسلام ، عالم الأولياء ، محي الدين ليس في كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر منه ، لكن كثير منها لا يصح ، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة ، وفي الجملة فهو كبير الشأن ، وعليه مآخذ في بعض أقواله ، ودعاويه ، والله الموعد ، وبعض ذلك مكذوب عليه ، [ت ٥٦١هـ] سير أعلام النبلاء ٢٠/٤٣٩-٤٥١ ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقوسي ، الطبعة السابعة ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٠هـ والعلو للعلي الغفار ص ١٩٣ ، وابن كثير البداية والنهاية ١٢/٢٥٢.

٢) مؤسسها : أبو الحسن علي بن عبدالله الحسن الشريف الحسني الشاذلي المولود عام ٥٧١هـ أخذ عن أبي عبدالله بن حرزهم ، وأبي محمد عبدالسلام بن مشيش ، وكانت له اليد الطولى في العلوم الشرعية ، ولا سيما علم التفسير والحديث ، أما علوم الأسرار فقطب رحاها وشمس ضحاها ، وينتسب إليه كثير من الصوفية ، توفي في مصر عام ٦٥٦هـ ، رحلة ابن بطوطة ص ٢١ ، ومحمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ١٨٦-١٨٧ ، دار الفكر [د.ت].

٣) مؤسسها : أحمد بن محمد المختار التجاني المولود عام ١١٥٠هـ بقرية عين ماضي بالجزائر ، رحل إلى مدينة فاس بالمغرب وسمع فيها شيئاً من الحديث ، وأخذ طريقته فيها ، ثم رحل إلى مصر والحجاز ، وعاد إلى فاس ، وهناك نشر مذهبه الجديد ، وأسفرت طريقته بالمغرب ، توفي سنة ١٢٣٠هـ على الراجح ، على الدخيل الله : التجانية ص ٤٠-٤٨ ، ومحمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص ٣٧٨-٣٧٩.

أبرز الطرق الصوفية وأكثرها أهمية وانتشاراً في المنطقة هي الطريقة القادرية ، وقد دخلت بلاد المغرب على يد أبي مدين شعيب بن حسن الأندلسي البجائي المتوفى عام ٥٩٤هـ(١) ، واستعت خريطة انتشارها على يد محمد بن عبدالكريم(٢) المقيلي التلمساني التواني المتوفى عام ٩٤٠هـ الذي تنقل في المنطقة بنشاط للدعوة إلى طريقته ، وعنه أخذها عمر بن سيد أحمد البكائي الكنتي الشنقيطي المتوفى عام ٩٥٩هـ.

وتفرعت القادرية في موريتانيا إلى شعبيتن هما: البكائية والفاضلية(٣) وفيما يلي لمحة عنهما:

○ البكائيـــــة

أسس هذه الشعبة الشيخ عمر بن سيد أحمد البكاي في القرن العاشر الهجري ، وكان على اتصال مستمر بشيخه المغيلي وحج معه

---

١) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية المرجع السابق نفسه ص ١٦٤.

٢) هو فقيه مفسر صوفي له عدة مؤلفات ، قام برحلات في بعض البلاد ، يقول عنه الدكتور علي سامي النشار : إنه أكبر ناقد للمنطق الايسطاليسي وأنه مفكر السلفيين في المغرب ، شأنه في ذلك شأن ابن تيمية مفكر السلفيين في المشرق ، مقدمة كتاب السياسة المرجع السابق ، ص ٢٧ ، والزركلي : الاعلام ٧/٨٤-٨٥ ، ومحمد مخلوف : شجرة النور الزكية : ص ٢٧٤.

٣) الخليل النحوي ، المرجع السابق ص ١٢١.

والتقيا بالسيوطي(1) خلال هذه الرحلة(2).

وقد انتشرت هذه الطريقة في المنطقة ليس في موريتانيا فحسب بل في الصحراء وغرب إفريقيا بوجه عام، وبلغت أوجها في عهد الشيخ سيدي المختار الكلتي(3) وأخذها عنه جماعة من مشاهير زمنه منهم: الشيخ سيدي الكبير(4)، الذي تزايد نماؤها وانتشارها على يده(5).

○ الفاضليــــة :

تأسست الفاضلية على يد الشيخ محمد فاضل بن مامين التلقمي المتوفى عام ١٢٨١هـ وقد حملها من بعده أبناؤه الثلاثة: الشيخ سعد أبيه، والشيخ ماء العينين، والشيخ سيد الخير.

---

1) هو جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، العلامة المشهور، ذو التصانيف الكثيرة المفيدة، ت ٩١١هـ. الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ٣٢٨/١، وما بعدها، دار المعرفة بيروت، [د. ت]، ومصطفى عبدالقادر عطا مقدمة كتاب السيوطي، لفظ المرجان ص ٩-١٤، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٦هـ.

2) بول مارتي كنته، الشرقيون ص ٣٢-٣٣، ومحمد الصوفي المرجع السابق ص ٢٤٧.

3) ولد عام ١١٤٢هـ ودرس في محاضر بلاده حتى تفقه في الدين، ويعتبر من أبرز مشايخ التصوف في بلاده ومن أكثرهم نشاطاً وعلماً، حيث ألف ما يربوا على ثلاثمائة كتاب في جميع العلوم المتداولة في زمنه. ت ١٢٢٦هـ مأمون محمد أحمد: مقدمة فتح الودود للشيخ سيد المختار الكنتي ص ١٣-١٤، الطبعة الثانية، مطبعة الكتاب العربي [د. ت].

4) ستأتي ترجمته في الفصل السادس

5) راجع كتاب كنته: الشرقيون المصدر السابق ص ١٤٢، ١٥٣، ١٥٤، ومعهد البحوث المرجع السابق ص ٤٤٣، والخليل النحوي المرجع السابق ص ١٢١.

وقد انتشرت على أيديهم هذه الطريقة ، وعظم نفوذهم في المنطقة(١).

والواقع أن الشيخ ماء العينين أشتهر بطول الباع في العلم وبالكرم فعلى الرغم من أنه شيخ طريقة صوفية إلا أنه طبعها بخصائص معينة أهمها:
نشر العلم تدريساً ، وتصنيفاً ، وحمل راية الجهاد ، حيث برز في مواجهة الاستعمار الفرنسي ، وكون جماعات من المجاهدين ، وخاض بهم الحرب ضد الفرنسيين ثلاثين عاماً حتى أقضى مضاجعهم(٢).

وعلى أي حال ، فإن الطريقة القادرية ما زال لها نفوذ قوي في المنطقة ، وأبرز مشايخها المعاصرين الذين راجت على أيديهم في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري ، الشيخ أحمد أبو المعالي بن الحضرمي النافاطي المتوفى عام ١٩٦٩م ، مؤلف كتاب : مزيل الإشكال عن صلاة أهل الأقوال.. وابن ه الشيخ محمد المصطفى الذي عهد له بالخلافة على الزاوية من بعده ، وما زال يواصل عمله في نشر طريقته.

---

١) عبدالله حميده : المرجع السابق ص ٣١ ، والخليل النحوي المرجع السابق ص ١٢١-١٢٢.

٢) محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ، ص ٥٣٩ وما بعدها ، ومعهد البحوث ، المرجع السابق ص ٤٦ ، ومحمد الصوفي المرجع السابق ص ١٦٨-١٦٩ ، وعن التنظيمات التي تقوم عليها القادرية راجع معهد البحوث ، المرجع السابق ص ٤٧١-٤٧٢.

هذا في وسط البلاد [ولاية البراكنة] أما في المنطقة الغربية من البلاد [بتلميت وما جاورها] فكان أبرز دعاة القادرية فيها في هذه الفترة الشيخ أحمد بن فتى الشقروي الحسني المتوفى عام ١٤٠٩هـ مؤلف كتاب : المبين المبين في التصحيح والتطهير والتوجيه والدفاع عن عقائد المؤمنين ، وقد أكثر في هذا الكتاب من الدفاع عن الصوفية والأشعرية.



٢- الشاذليـــــة :

تعتبر الشاذلية من أقدم الطرق الصوفية وصولا إلى موريتانيا وأقلها انتشاراً في الوقت نفسه ، وقد دخلت البلاد في القرن التاسع الهجري على يد محمد بن سيد يحيى آل الطالب مختار القلقمي الشنقيطي الذي تلقاها عن أبي العباس أحمد بن أحمد الشهير بزروق المتوفى عام ٨٩٩هـ(١).

وكل أسانيد الشاذلية في موريتانيا متصلة بمشاهير هذه الطريقة في المغرب ، منهم أبو العباس أحمد الحبيب السجلماسي المتوفي عام ١٠٣١هـ (٢) ، وأبو عبدالله محمد بن محمد المعروف بابن ناصر الدين الدرعي المتوفى عام ١٠٨٥هـ(٣).
وأبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدين المتوفى عام ١١٢٩هـ(٤).

والثابت عند المهتمين بالشاذلية طريقة وبحثاً أن إسنادها يتسلسل داخل البلاد على النحو التالي:
«وأخذها أشفغا الخطاط (ت ١١٩٦هـ) عن سيدي أحمد التواتي (ت

---

١) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص ٢٦٧.
٢) عبدالله حميده : المرجع السابق ص ٢٩ ، وراجع محمد مخلوف شجرة النور الزكية ص ٢٩٨.
٣) الخليل النحوي المرجع السابق ، ص ١٢٢ ، وراجع ترجمته عند محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص ٣١٣.
٤) المرجع السابق نفسه ص ٣٣٢.

١١٣٨هـ) عن سيدي أحمد عبد القادر ، عن سيدي محمد بن ناصر الدرعي..
وأخذها فخار بن المصطفى الشمشوي وسيدي محمد بن سيدي عثمان بن أعمر الولي المحجوبي الولاتي (ت ١١٣٢هـ) وسيدي أحمد التمكلاوي الديماني ، وسيدي عبدالله بن سيدي بو بكر التتواجيوي (ت ١١٤٥هـ) جميعهم عن سيدي أحمد الحبيب السجلماسي.

وأخذها عبدالله الركاني الولاتي عن سيدي محمد بن عبدالرحمن بن أبي زيان عن سيدي مبارك العنيزي الغزواني ، عن سيدي محمد بن ناصر الدرعي.
وأخذها الطالب أحمد بن طوير الجنة الحاجي (ت ١٢٦٥هـ) عن الشيخ أبي عبدالله التوريني عن سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي(١).

وكان للشاذلية في باديء أمرها نشاط وأتباعٍ بعضهم من مشاهير علماء البلاد وفقهائها(٢) لكنها ما لبثت أن انحسرت وخاصة بعد ظهور الشيخ سيدي المختار الكنتي المتوفى عام ١٢٢٦هـ داعية للطرق القادرية ، حيث تصدر على يده رجال مشاهير ، مثل : الشيخ القاضي بن الحاج الآجيجي المتوفى عام ١٢٤١هـ ، والشيخ سيدي الكبير المتوفى عام ١٢٨٥هـ ، وغيرهما.

---

١) المختار بن حامد : حياة موريتانيا ٩٣/٢ ، وعبدالله حميدة ، المرجع السابق ص ٢٩.
٢) الخليل النحوي المرجع السابق ص ١٢٢-١٢٣.

فكان ذلك سبباً في ازدهار الطريقة القادرية وتوجيه الناس إليها بدلا من الطريقة الشاذلية ، ولا تزال توجد طائفة شاذلية في البلاد تسمى [الغظفية] نسبة إلى محمد الأغظف الداودي الجعفري المتوفى عام ١٢١٨هـ(١).

وعلى أي حال ، فقد أصبحت ضعيفة ، وأتباعها قليلون ، ونشاطها محدود جداً(٢).

٣- التجانيـــــة:

هذه هي أحدث الطرق الصوفية السائدة في موريتانيا ، نشأة ووصولا إلى البلاد ، وأوسعها انتشاراً في إفريقيا الغربية ، وقد تلقاها بعض الموريتانيين مباشرة عن مؤسسها أبي العباس أحمد بن محمد المختار التيجاني ، ومن أشهر هؤلاء وأكثرهم نشراً لها في المنطقة هو محمد الحافظ بن محمد المختار بن حبيب العلوي المتوفى عام ١٢٣٦هـ ، الذي سافر لأداء مناسك الحج ، وفي عودته مر بمدينة فاس بالمغرب ، واستقر به المقام فيها مع أحمد التجاني ، وتتلمذ عليه وصحبه حتى أجازه في طريقته ، ثم عاد الى بلاده عام ١٢٢٠هـ ونشر فيها هذه الطريقة ، ونشرها أتباعه في

---

١) المختار بن حامد : حياة موريتانيا ٩٤/٢ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٣٣٩.

٢) معهد البحوث ، المرجع السابق ص ٤٤٣ ، عن فروع الشاذلية في المغرب الاسلامي ، راجع : أمين الريحاني : ملوك العرب ٢٨٣/١ ، الطبعة الثالثة ، مطابع صادر ريحاني ، بيروت ، ١٩٥١م، وعبدالله حميدة : المرجع السابق ص ٢٨.

عدد من دول إفريقيا ، وإليه ترجع جل أسانيد الطريقة التجانية في افريقيا السوداء(1).

ومن مشاهير التجانية الحافظية ، التجاني بن باب بن أحمد بيب العلوي المتوفى حوالي ١٢٦٠هـ ، أخذ النجانية على والده ودرس عليه العلم وبرع في علوم كثيرة منها : الفقه وأصوله ، والسيرة ، والبيان ، والنحو ، والصرف ، والمنطق ، وغير ذلك.

ثم سافر لأداء مناسك الحج ومر بزاوية أحمد النجاني بمكناسة الزيتون بالمغرب ، ومكث فيها ثلاثة أشهر ولقي بها محمد العربي بن الصالح الرباطي وتوطدت بينهما روابط الصداقة ، والمحبة ، وهو الذي أحيا منظومته ، منية المريد ، يشرحه لها المسمى بغية المستفيد ، وأول هذه المنظومة قوله:

قال ابن باب العلوي نسبه المغربي المالكي مذهبه
الحمد للجاعل الأولياء ورثة الكمل الأنبياء
والجاعل النبي خير الأنبياء وشيخنا أحمد خير الأولياء(2)

ومن أشهر أتباع محمد الحافظ بن محمد المختار العلوي الذين

---

1) المختار بن حامد : حياة موريتاني ٢/٩٤-٩٥ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ١٢٣ ، وعبدالله حميدة : المرجع السابق ص ٢٩-٣٠.

2) أحمد بن الأمين ، الوسيط : ص ٦٩-٧٢ ، وسميرة بنت صقر ، المرجع السابق ص ٢٢-٢٣.

حملوا سنده ودافعوا عن طريقته ، سيدي أحمد الصغير الشريف الشنقيطي المتوفى عام ١٢٧٢هـ الذي ألف في الدفاع عن هذه الطريقة كتاباً سماه [الجنس الربيط] وأكثر فيه من الأجوبة والدفاع عن الطريقة النجانية ومشايخها(١).

وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري ، تشكلت في مشرق موريتانيا شعبة جديدة من الطريقة النجانية ، وترسخت أقدامها في مناطق واسعة من موريتانيا ، وجمهورية مالي المجاورة ، وتعرف هذه الشعبة بـ [الحموية] نسبة إلى حماه الله بن محمد سيدنا عمر بن حماه الله بن الشريف أحمد التشيتي المتوفى عام ١٣٦٣هـ وقد امتد نفوذ هذه الطائفة إلى عدد من دول إفريقيا السوداء (٢)

ورغم أن التجانية هي أحدث الطرق نشأة ووصولا إلى المنطقة كما سبق ذكره ، إلا أنها استطاعت أن تسيطر على بعض أقطار افريقيا الغربية ، وأن يكون لها في السياسة دور بارز ، حيث نجح الحاج عمر الفوتي المتوفى عام ١٢٨٢هـ في جهود قام بها ترمي إلى نشر الإسلام بين قبائل الزنوج الوثنية كما جاهد الفرنسيين وهزمهم واستطاع أن يقيم دولة واسعة الأطراف أصبحت تهدد الاستعمار الفرنسي وتشكل خطراً عليه(٣).

---

١) محمد الخضر بن مايا بي مشتهى الخارف الجاني في رد زلفات التجاني الجاني ص ٧١ ، الطبعة الأولى دار البشير عمان ١٤٠٥هـ وراجع الوسيط ، المصدر السابق ص ٨٩.

٢) عبدالله حميده : المرجع السابق ص ٣٠ والخليل النحوي المرجع السابق ص ١٢٣.

٣) علي بن محمد الدخيل الله ، النجانية ص ٦٤ ، وسميرة بنت صقر المرجع السابق ص ٢٢.

وعلى أي حال ، فإن المتصوفة اليوم منتشرون في موريتانيا ، وفي غرب إفريقيا عموماً حيث نجح المشايخ الشناقطة ، وللأسف في نشر الطرق الصوفية في بلادهم ، وفي دول غرب إفريقيا المجاورة(١).

وقد انتهت الطرق الصوفية بكثير من أصحابها إلى الانحراف عن النهج الإسلامي القويم ، ولا سيما الطريقة التجانية ، التي تحمل في طياتها فلسفات أصحاب وحدة الوجود ، وأفكار الباطنية.

وقدكشف الشيخ محمد الخضر بن مايابي حقائق التجانية في كتابه : مشتهى الخارف الجاني في رد زلفات التجاني الجاني ، وذكر في هذا الكتاب أنهم يعتقدون أن ورد أحمد التجاني ادخره له النبي ﷺ ولم يعلمه أحداً من أصحابه لعلمه بتأخير وقته وعدم وجود من يظهره الله على يديه في ذلك الزمان(٢).

كما ذكر عنهم أيضاً أن الذاكر لصلاة الفاتح(٣) لا بد أن يعتقد أنها

---

١) الخليل النحوي : المرجع السابق ص ١٢٥.

٢) مشتهى الخارف الجاني ، ص ١٩.

٣) ونصها : اللهم صلي على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، الهادي الى صراطه المستقيم ، وعلى آله حق قدره ، ومقداره العظيم ، علي بن محمد الدخيل الله ، التجانية ص ١١٦ ، وراجع مشتهى الخارف ، المصدر السابق ص ٢٥٨.

من كلام الله تعالى ، وأنها تعدل ستة آلاف من القرآن الكريم(١) ، مع أن هذه الصلاة المخترعة التي يزعم التجانيون أنها أفضل من القرآن الكريم ، وأن شيخهم تلقاها عن النبي ﷺ لم ترو كاملة ، مسندة مرفوعة إلى النبي ﷺ لا في حديث صحيح ولا حسن ولا ضعيف ، لا في حديث قدسي ولا في غيره(٢).

فسبحان الله كيف ساغ لهؤلاء أن يفضلوا صلاة مخترعة مكذوبة على النبي ﷺ على كلام الله عز وجل؟!!.

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾(٣).

---

١) المصدر السابق نفسه : ص ٢٥٣ ، وعلي بن محمد الدخيل الله ، التجانية ص ١١٦.

٢) محمد الخضر بن مايا بي : مشتهى الخارف الجاني ص ٢٥٣ ، وما بعدها ، ومحمد الدخيل الله ، المرجع السابق ص ١١٧.

٣) سورة الحج الآية : ٤٦.

الفصل الأول

السلف والسلفية ومنهجهم في العقيدة

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : تعريف السلف والسلفية.

المبحث الثاني : منهج السلف في دراسة العقيدة

○○○○○

○○○○

○○○

○○

○

المبحث الأول
تعريف السلف والسلفية

أ- السلف والسلفية في اللغة :

اتفق علماء اللغة على أن السلف يطلق على الماضي المتقدم قال الجوهري : «سلف يسلف سلفاً أي : مضى ، والقوم السلاف المتقدمون ، والجمع أسلاف ، وسلاف ، والسلف نوع من البيوع يعجل فيه الثمن ، وتضبط السلعة بالوصف إلى أجل معلوم ، والسالف والسليف المتقدم ، والتسليف التقديم»(١).

وقال الرازي في مختار الصحاح : «سلف يسلف بالضم مضى ، والقوم السلاف المتقدمون ، والجمع أسلاف»(٢) ، والسلفية نسبة إلى السلف(٣).

وفي لسان العرب لابن منظور : «سلف تقدم ، والسالف المتقدم ، والسلف والسليف والسلفة الجماعة المتقدمون»(٤).

---

١) اسماعيل بن حماد الجوهري ، الصحاح في اللغة والعلوم ، المجلد الأول ص ٦٠٣-٦٠٤ تقديم : عبدالله العلايلي ، إعداد وتصنيف : نديم مرعشلي ، وأسامة مرعشلي ، الطبعة الأولى ، دار الحضارة العربية بيروت ١٩٧٤م.

٢) محمد بن أبي بكر الرازي ، مختار الصحاح ص ٣٠٩ ، تحقيق وترتيب حمزة فتح الله ومحمود خاطر ، طبعة مؤسسة الرسالة ، دار البصائر ، دمشق ، بيروت ١٤٠٥هـ.

٣) عبدالكريم محمد السمعاني ، الأنساب ٢٧٣/٣ ، تقديم وتعليق عبدالله عمر البارودي ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٨هـ.

٤) ابن منظور ، لسان العرب ٥٨/١١ ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق بها تصويبات ، وفارس متنوعة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، د ت.

وعرف الفيروزآبادي السلف بأنه : الماضي المتقدم ، ثم قال : والسلف محركة ، السلم ، أهم من الأسلاف ، والقرض الذي لا منفعة فيه للمقرض وكل عمل صالح قدمته ، وكل من تقدم من إبائك وقرابتك»(١).

وجاء في القرآن الكريم قول الله عز وجل : ﴿**فجعلناهم سلفاً ومثلا للآخرين**﴾(٢).

قال الطبري بعد أن ذكر اختلاف القراء في قوله تعالى : ﴿سلفاً﴾ أولى القراءات في ذلك بالصواب قراءة من قرأ بفتح السين واللام لأنها اللغة الجوداء ، والكلام المعروف عند العرب ، وأحق اللغات أن يقرأ بها كتاب الله من لغات العرب أفصحها وأظهرها فيهم ، فتأويل الكلام إذن : فجعلنا هؤلاء الذين أغرقناهم من قوم فرعون في البحر مقدمة يتقدمون إلى النار كفار قومك يا محمد من قريش وكفار قومك لهم بالأثر»(٣).

وقال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية : سلف تقدم ، ومضى وسلف له عمل صالح تقدم ، والقوم السلاف المتقدمون ، وسلف الرجل آباؤه المتقدمون ، والجمع أسلاف»(٤).

وقال الراغب الأصفهاني في كتابه : المفردات في غريب القرآن:

---

١) الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ص ١٠٦٠-١٠٦١ ، تحقيق : مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٧هـ.

٢) سورة الزخرف ، الآية ٥٦.

٣) محمد بن جرير الطبري ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، ٨٥/٢٥ ، الطبعة الثالثة ، شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ١٣٨٨هـ.

٤) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ٢٠٢/٦ ، طبعة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٧هـ.

«السلف المتقدم، ولفلان سلف كريم أي: آباء متقدمون وجمعه أسلاف»(١).

ب ـ مفهوم السلف والسلفية في الاصطلاح:

إن مفهوم السلف والسلفية تتنازعه الفرق الإسلامية حيث تحاول كل فرقة من هذه الفرق أن تنتسب إلى السلف او تتسمى بأهل السنة(٢) دون غيرها.

ولكن مفهوم السلف ينصرف إلى أهل القرون الثلاثة الأولى التي وصفها

---

١) الحسين بن محمد الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن ص ٢٣٩، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت [د. ت].

٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: السنة هي ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه اعتقاداً واقتصاداً وقولا وعملا، الفتوى الحموية الكبرى ص ١٠٩، تقديم محمد عبدالرزاق حمزة، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية، ١٤٠٣هـ، ويذكر أن مَصطلح أهل السنة يطلق ويراد به معنيان: أحدهما المعنى الأعم، وهو ما يقابل الشيعة، وهذا المعنى تدخل فيه الفرق الإسلامية سوى الشيعة، فيقال: المنتسبون للإسلام قسمان: أهل السنة والشيعة، أما المعنى الأخص، فهو يقابل المبتدعة، وأهل الأهواء عامة، وقد نص الإمام أحمد بن حنبل وعلي بن المديني على أن من خاض في شيء من علم الكلام لا يعتبر من أهل السنة والجماعة، وأن أصاب بكلامه السنة حتى يدع الجدل ويسلم للنصوص» أبو القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي: أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ١/١٥٧، ١٦٥-١٦٦، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ١٤٠٢هـ، والدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي: مناهج الأشاعرة في العقيدة ص ١٥-١٦، الطبعة الأولى، الدار السلفية، الكويت ١٤٠٧هـ.

النبي ﷺ بأنها خير القرون دون من وصف بالبدعة(١) كالشيعة(٢).

---

١) البدعة : ويسمى فاعلها مبتدعاً عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة.. الشاطبي ، الاعتصام ٣٧/١ ، دار المعرفة ، بيروت [د. ت] وباب بن الشيخ سيدي ، الذكر المشروع وغير المشروع ، ص ٢ ، مخطوط شخصي.

٢) الشيعة هم الذين شايعوا علي بن أبي طالب رضي الله عنه - على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية ، إما جلياً وإما خفاء ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيرهم وبتقية من عندهم. وقالوا ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة ، وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هي قضية أصولية ، وهي ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله ، ولا تفويضه إلى العامة ، وإرساله. وقد انقسم الشيعة إلى عدة طوائف يجمعها القول بوجوب التعيين والتنصيص على الإمامة ، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة ، وجوباً عن الكبائر والصغائر ، والقول بالتولي ، والتبري ، قولا وفعلا ، وعقلا إلا في حالة التقية ، ويخالفهم بعض الزيدية في ذلك ، ويميل بعض طوائفهم في أصول الدين إلى الاعتزال ، وبعضهم إلى السنة ، وبعضهم إلى التشبيه» الشهرستاني ، الملل والنحل ١٤٦/١-١٤٧ ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت ١٤٠٤هـ والأشعري : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ٦٥/١ ، تحقيق محي الدين عبدالحميد ، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة المصرية ١٣٨٩هـ ، والبغدادي الفرق بين الفرق ، ص ٢١-٢٣ ، تحقيق محي الدين عبدالحمدي ، دار المعرفة ، بيروت ، [د. ت].

والخوارج(١) ، والقدرية(٢).

١) الخوارج : ويقال لهم النواصب ، والحرورية نسبة إلى الموضع الذي خرج فيه أولهم على علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وبعد أن أجبروه على قبول التحكيم مع معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - وعندما قبله طلبوا منه أن يرفضه ويتوب معللين لذلك بأنه كفر بسبب التحكيم ، كما كفروا هم وتبايعوا ، وقد انقسم الخوارج إلى فرق كثيرة، ويجمعهم القول بالتبري من عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وتكفير أصحاب الكبائر ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقاً واجباً ، الشهرستاني : الملل والنحل ١١٤/١-١١٥ ، والبغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٤ ، ٧٢ ، والمقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ٣٥٤/٢ ، مكتبة الثقافة العربية بالقاهرة ، [د. ت] ومحمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٦٠ ، دار الفكر العربي [د. ت].

٢) القدرية نفاة القدر نسبوا إلى القدر لنفيهم إياه حيث قالوا : إن الأمر أنف أي أن الله تعالى لم يقدر على خلقه شيئاً مما هم عليه ، وقد حدثت هذه البدعة في زمان المتأخرين من الصحابة رضي الله عنهم - على يد سعيد بن خالد الجهني البصري ، وقد أخرج مسلم القصة في ذلك عن يحيى بن يعمر قال : أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني ، قال : فانطلقت أنا وحنيد بن عبدالرحمن الحميري حاجين أو معتمرين ، وذكر اجتماعهما بعبدالله بن عمر وأنه سأل عمن يقول بهذه المقالة فقال ابن عمر : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم ، وأنهم برآء مني ، والذي يحلف به عبدالله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر» صحيح مسلم بشرح النووي ١٥٠/١-١٥١ ، ٥٥-١٥٦ ، طبعة دار إحيار التراث العربي ، بيروت ، [د. ت] وراجع خطط المقريزي ٣٥٦/٢ ، وابن أبي العز الحنفي ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، حققها جماعة من العلماء ، وخرج أحاديها محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة الرابعة ، المكتب الإسلامي بيروت ١٣٩١هـ.

والمرجئة (١) والجبرية(٢) ، والجهمية(٣) ، والمعتزلة(٤) ، وحين دار

---

١) الارجاء على معنيين : أحدهما بمعنى التأخير ، والثاني : إعطاء الرجاء ، وإطلاق إسم المرجئة على هذه الجماعة بالمعنى الأول صحيح ، لأنهم يقولون لا نصر مع الايمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وقيل : الارجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة ، فلا يقضى عليه بحكم في الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار ، وقيل : الارجاء تأخير علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - من الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة ، والمرجئة أربعة أصناف : مرجئة الخوارج ، ومرجئة القدرية ، ومرجئة الجبرية ، والمرجئة الخالصة» الشهرستاني ، الملل والنحل : ١٣٩/١ ، والمقريزي ، الخطط ٣٤٨/٢-٣٥٠ ، والبغدادي الفرق بين الفرق ص ٢٠٢.

٢) الجبرية هم الغلاة في نفي استطاعة العبد على الفعل ، وإضافته إلى الرب تعالى ، وهم أصناف : الجبرية الخالصة ، وهي التي لا تنسب للعبد فعلا ، ولا قدرة على الفعل أصلا ، والجبرية المتوسطة ، وهي التي لا تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلا ، ويرى البعض أن الأشاعرة من أصناف الجبرية ، وقد نفى الشهرستاني ذلك بقوله : فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما في الفعل وسمى ذلك كهبا فليس بجبري.» الملل والنحل ٨٥/١ ، وراجع خطط المقريزي ٣٤٩/٢.

٣) الجهمية أتباع جهم بن صفوان السمرقندي ، الذي قال بالاجبار والاضطرار إلى الأعمال ، وأن الجنة والنار تبيدان وتفنيان وأن الايمان هو المعرفة بالله تعالى فقط ، والكفر هو الجهل بالله تعالى فقط ، وأنه لا فعل ولا عمل لأحد غير الله عز وجل ، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على سبيل المجاز ، كما يقال تحركت الشجرة ودارت الرحى ، وزعم أن علم الله تعالى حادث ، وامتنع من وصف الله تعالى بأنه شيء أو حي أو عالم أو مريد ، وقال : لا أصفه بوصف يجوز إطلاقه على غيره» ، الأشعري ، مقالات الإسلاميين ٣٣٨/١ ، والبغدادي الفرق بين الفرق ص ٢١١-٢١٢ ، والشهرستاني الملل والنحل ٨٦/١-٨٧.

٤) المعتزلة يسمون بأصحاب التوحيد ، ويلقبون بالقدرية ، والعدلية ، واختلف في وقت ظهور المعتزلة ، فيرى البعض أن ظهورهم بدأ في قوم من أصحاب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - حيث تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم - فاعتزلوا السياسة ، وانصرفوا إلى العقائد ، وأكثر العلماء على أن رأس المعتزلة واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد وأصحابهما ، وتنبني عقيدة المعتزلة على أصولهم الخمسة وهي :

النزاع في أصول الدين بين الفرق الإسلامية ، وحاول الجميع الانتساب للسلف ، أصبح مدلول السلفية اصطلاحاً خاصاً يطلق على من تمسك بالكتاب والسنة ، واقتدى بالسلف الصالح في فهم الإسلام وتطبيقه.

وقد اختلف في تحديد مدلول كلمة السلف ، فيرى البعض أن السلف (كل من يقلد مذهبه في الدين ويتبع أثره)(١).

وذهب البعض إلى تحديد السلف زمنياً بأنهم من عاشوا في الفترة ما بين القرن الأول من الهجرة النبوية إلى القرن الخامسة ، والخلف ما كان بعد ذلك»(٢).

وهذان القولان بعد البحث والتنقيب لم أقف لهما على دليل يعتضان به ، مع أنه مما يترتب عليهما أن يكون أئمة الشيعة ، والخوارج ، والجهمية ، والمرجئة ، والمعتزلة ، وغيرهم من الطوائف المبتدعة ، داخلين في

التوحيد ، والعدل ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإثبات الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد افترق المعتزلة إلى عدة فرق، كل فرقة تكفر سائر الفرق الأخرى» الأشعري ، مقالات الإسلاميين ٢/٣٣٧-٣٣٨ ، والبغدادي الفرق بين الفرق ص ٢٤-١١٤ ، والشهرستاني : الملل والنحل ١/٤٣-٤٤ ، والمقريزي : الخطط ٢/٣٤٥ ، وابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٨٨-٥٨٩ ، ومحمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٢٤-١٥٩.

١) محمد علي التهانوني : كشاف اصلاطحات الفنون ٤/١٥ و حققه الدكتور لطفي عبدالبديع ، وترجم نصوصه الفارسية الدكتور عبدالنعيم محمد ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧م.

٢) حاشية أحمد بن محمد الصاوي : الخلو في تفسير الجلالين : ٣/٤٩ ، دار الفكر ١٣٩٣هـ ، وحسن المشاط : رفع الأستار على طلعة الأنوار ص ١٣ ، الطابعة الأولى بدون تحديد تاريخ ولا مكان.

مفهوم السلف، وهذا باطل لأن هذه الطوائف خرجت عن مذهب السلف(١).

ويحدد القاضي عياض في ترتيب المدارك السلف بالصحابة والتابعين(٢).

وذهب آخرون إلى أن السلف هم الصحابة والتابعون وتابعوهم(٣).

وهذا القول هو الراجح، للحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه وفيه أن رسول الله ﷺ سئل : أي الناس خير ؟ قال : قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم..] الحديث.

---

١) ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ٣٣/٥ ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر ، والدكتور عبدالرحمن عميرة ، دار الجيل ، بيروت ١٤٠٥هـ ، والبغدادي : الفرق بين الفرق ص ٣١٣ ، والدكتور محمد أحمد خفاجي : في العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة ، تحليل ونقد ٢١/١ ، الطبعة الأولى ، مطبعة الأمانة ، القاهرلة [د . ت] والدكتور مصطفى حلمي : قواعد المنهج السلفي ص ٢٥٣ ، الطبعة الثانية ، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع ، الإسكندرية ١٤٠٥هـ.

٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ٣٩/٢ ، تحقيق : عبدالقادر الصحراوي ، الطبعة الثانية ، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية بالمملكة المغربية ١٤٠٣هـ.

٣) الهروي : ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق ١١٩/١ ، تحقيق : الدكتور علي سامي النشار ، والسيدة سعاد عبدالرزاق ، الطبعة الثانية ، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ١٣٨٩هـ ، والشوكاني : التحف في مذاهب السلف ص ٤٥ ، تقديم وتعليق سليم بن عبدالهلالي ، وعلي حسن علي عبدالحميد ، مكتبة ابن الجوزي ، الأحساء ١٤٠٩هـ ، ومحمد أحمد الشنقيطي : شرح إضاءة الدجنة في إعتقاد أهل السنة ص ٨٩ ، دار العلم للجميع [د. ت].

وأما من قال : إن السلف هم الصحابة ، والتابعون ، فالظاهر أن ذلك داخل في الحديث.

وليس مجرد هذا التحديد الزمني كافياً في الانتساب الصحيح للسلف ، بل لا بد أن يضاف إلى ذلك موافقة الكتاب والسنة في العقيدة والشريعة والسلوك ، فمن خالف رأيه ما جاء في القرآن الكريم ، وثبت في السنة النبوية المطهرة ، فليس بسلفي ، وإن عاش في القرن الأول للهجرة ، ذلك أننا نجد بعض من عاشوا في زمن الصحابة رضي الله عنهم - وهم ضلال مضلون بعيدون كل البعد عن عقيدة السلف ومنهجهم ، أمثال عبدالله بن سبأ(١) الذي قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه - أنت الإله حقاً وزعم أن علياً لم يمت ، ولم يقتل ، وأن فيه الجزء الإلهي ، ولا يجوز أن يستولى عليه ، وأنه هو الذي يأتي في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق سوطه ، وابتسامته ، وأنه سينزل إلى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جوراً(٢).

---

١) هو عبدالله بن سبأ الضال المضل ، ويقال له : ابن السوداء ، يهودي من أهل صنعاء ، أظهر الدخول في الإسلام في زمن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وتجول في بعض الأقطار الإسلامية ، وبث في المسلمين أفكار المنحرفة المضلة ، فكان رأس الفتنة ، وموقدها ، ومؤجج نارها ، وجامع حطبها من أشتات الناس ، ورذالهم ، البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢٢٥ ، ٢٣٣-٢٣٤ ، ومحمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٢٩-٣٠.

٢) الأشعري : مقالات الإسلاميين ١/٨٤-٨٨ ، والشهرستاني : الملل والنحل ١/١٧٤ ، والمقريزي : الخطط ٢/٣٥٦-٣٥٧.

ونافع بن الأزرق(١) الذي تبرأ من عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وكفر مخالفيه من المسلمين ، واستحل دماءهم ، وأنكر رجم الزاني المحصن»(٢).

ومعبد بن خالد الجهني(٣) الذي ظهرت بدعته في القدر في زمان المتأخرين من الصحابة رضي الله عنهم - كما تقدم قبل قليل.

لذلك ينبغي أن نتثبت في كل ما لدينا من أخبار وآراء نقلت إلينا على أنها تمثل مذهب السلف حتى نعرضها على الكتاب والسنة ، وما ثبت عن السلف الصالح رضي الله عنهم ، فما كان على هذا النهج فهو سلفي ، وإن عاش في عصور متأخرة ، ومن خالفه فهو غير سلفي وإن عاش في زمن

---

١) هو أبو راشد نافع بن الأزرق الحنفي خرج من البصرة في عهد عبدالله بن الزبير ، واشتدت شوكته ، وكثرت جموعه ، فبعث إليه عبدالله بن الحارث جيشاً كثيفاً بقيادة مسلم بن عبس بن كريز بن ربيعة ، واشتد القتال بين الطرفين حتى قتل مسلم أمير الجيش ، وقتل أمير الخوارج نافع بن الأزرق ، وكان ذلك في عام ٦٠ هـ ، وقيل في عام ٦٥هـ ، الشهرستاني : الملل والنحل ١/١١٨-١١٩ ، والبغدادي : الفرق بين الفرق ٨٢-٨٣.

٢) المقريزي : الخطط ٢/٣٥٤ ، والأشعري : مقالات الإسلاميين ١/١٦٨-١٧٤ ، ومحمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٧٣-٧٤.

٣) هو معبد بن خالد الجهني ، البصري ، سمع الحديث من ابن عباس ، وابن عمر ، ومعاوية ، وعمران بن حصين ، وغيرهم ، وشهد يوم التحكيم ، وهو أول من تكلم في القدر في الإسلام ، ويذكر أنه أخذ ذلك عن رجل من النصارى من أهل العراق ، يقال له [سوس] وقد كانت لمعبد عبادة ، وفيه زهادة ، وقد وثقه ابن معين وغيره في حديثه ، ووصفه الحسن البصري بأنه ضال مضل ، واختلفوا في موته ، فقيل : صلبه عبدالملك بن مروان ، وقيل : خرج مع ابن الأشعث فأخذه الحجاج بن يوسف فعذبه بأنواع من العذاب ثم قتله وأرخوا موته في سنة ٨٠هـ ويقال : بعدها. البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٨ ، وابن كثير : البداية والنهاية ٩/٣٤ ، مكتبة المعارف ، بيروت [د. ت].

الصحابة رضي الله عنهم.

وعلى ذلك فإن السلفية كما عرفها بعض العلماء المعاصرين هي «ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شهد له بالأمانة، وعرف عظم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفاً عن سلف، كالأئمة الأربعة، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، وابن المبارك، والنخعي، والبخاري، ومسلم، وسائر أصحاب السنن، دون من رمي ببدعة، أو شهر بلقب غير مرض مثل الخوارج، والروافض(١)، والمرجئة، والجبرية، والجهمية، والمعتزلة(٢).

أما كتب الفرق، فغالبية أصحابها يعرفون السلفيين ومذهبهم باسم: أهل الحديث والسنة، وربما ذكروهم بإسم [الصفاتية].

يقول الأشعري في بداية كلامه عن مذهب السلف: «جملة ما عليه أهل

---

١) الروافض: هم الغلاة في حب علي بن أبي طالب وبغض أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية، وآخرين من الصحابة، رضي الله عنهم، وسموا بالرواقض لأن زيد بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم امتنع من لعن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقال: هما وزيرا جدي محمد ﷺ فرفضوا رأيه، فسموا بالروافض، وقيل: سموا بالروافض لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر، وقيل: سموا رافضة لكونهم رفضوا الدين، وهم مجمعون على أن النبي ﷺ نص على استخلاف علي بن أبي طالب بإسمه، وأظهر ذلك، وأعلنه، وأن أكثر الصحابة رضي الله عنهم ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي ﷺ وأن الإمامة لا تكون إلا بنص، وتوقيف، وأن الإمام لا يكون إلا أفضل الناس وأن علياً كان مصيباً في جميع أحواله، الأشعري: مقالات الإسلاميين ١/٨٨-٨٩، والمقريزي: الخطط ٢/٣٥١، والشهرستاني في الملل والنحل ١/١٥٤-١٥٥.

٢) أحمد بن حجر: العقائد السلفية بأدلتها النقلية والعقلية ١/٦، طبعة بيروت.

الحديث والسنة : الإقرار بالله وملائكته وكتبه ، ورسله ، وما جاء من عند الله ، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ ، لا يردون من ذلك شيئاً ، وأن الله سبحانه إله واحد فرد صمد لا إله غير لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وأنه سبحانه على عرشه»(١).

ويذكر البغدادي السلفيين بإسم أهل السنة ، والصفاتية معاً ، فيقول : من أهل السنة أئمة الفقه ، فريقي الرأي والحديث الذين اعتقدوا في أصول الدين مذاهب الصفاتية في الله ، وفي صفاته الأزلية ، وتبرءوا من القدر ، والاعتزال ، وأثبتوا رؤية الله بالأبصار من غير تشبيه ولا تعطيل ، وأثبتوا الحشر من القبور ، مع إثبات السؤال في القبر ، ومع إثبات الحوض ، والصراط ، والشفاعة ، وغفران الذنوب التي دون الشرك ، وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهلها ، ودوام عذاب النار على الكفرة ، وقالوا بإمامة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وتبرءوا من أهل الأهواء الضالة ، وأوجدبوا استنباط أحكام الشريعة من الكتاب والسنة ، وإجماع الصحابة ، وأوجبوا طاعة السلطان فيما ليس بمعصية.

ويدخل في هذه الجماعة أئمة المذاهب الأربعة ، أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأصحابهم ، وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا في الأبواب العقلية أصول الصفاتية ، ولم يخلطوا فقهه بشيء من بدع أهل

---

١) الأشعري : مقالات الإسلاميين ٣٤٥/١ ، والإبانة عن أصول الديانة : ص ٥٣ ، تحقيق حماد بن محمد الأنصاري ، الطبعة الثانية ، مركز شؤون الدعوة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤٠٥هـ.

الأهواء الضالة»(١).

أما الشهرستاني فقد ذكر السلفيين بإسم أصحاب الحديث(٢) ، وعنون لهم فصلا بالصفاتية ، ثم قال : اعلم أن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم ، والقدرة ، والحياة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والجلال ، والإكرام ، والجود ، والإنعام ، والعزة ، والعظمة ، لا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل ، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً ، وكذلك يثبتون صفات خبرية مثل : اليدين ، والوجه ، ولا يؤولون ذلك إلا أنهم يقولون هذه الصفات قد وردت في الشرع فنسميها صفات خبرية.

ولما كانت المعتزلة ينفون الصفات ، والسلف يثبتون ، سمى السلف صفاتية ، والمعتزلة معطلة»(٣).

وقد أطلق على السلفيين في بعض المراحل بعد اشتهار مذهب الأشعري وانتشاره اسم [الحنابلة] لأنه لم يبق على مذهب السلف في هذا الدور إلا الحنابلة ، أتباع الإمام أحمد بن حنبل ، فإنهم كانوا على ما كان عليه السلف ، لا يرون تأويل ما ورد من الصفات»(٤).

---

١) الفرق بين الفرق ص ٣١٣-٣١٥.

٢) الملل والنحل : ١٠٣/١.

٣) المصدر السابق نفسه ٩٢/١.

٤) المقريزي : الخطط ٣٥٩/٢ ، والدكتور مصطفى حلمي : قواعد المنهج السلفي ص ٣١.

والحقيقة أن الفرق الإسلامية المختلفة ظلت على مدى التاريخ تعلق ارتباطها بالسنة ، وكل طائفة تدعي أنها على النهج القويم ، والطريق المستقيم ، وتحاول الإنتساب للسلف ، حتى إن لفظ السلف أصبح يطلق في عرف كثير من المتأخرين من علماء الكلام والتفسير على أئمة المذاهب المختلفة الذين ينتمون إليها ، ويوجبون على جميع الناس تقليد هؤلاء الأئمة فيما ذهبوا إليه من آراء ، ومعتقدات.

ولهذا كان سلف الأشاعرة(١) غير سلف المعتزلة ، وسلف الشيعة ،

---

١) ينتسب الأشاعرة إلى ابن أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري البصري ، المولود عام ٢٦٠هـ صاحب التصانيف الكثيرة ، ومنها : [الإبانة عن أصول الديانة] ، [مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين] ، وقد توفي الأشعري عام ٣٢٤هـ على قول الأكثرين ، وكان معتزلياً فرجع عن الاعتزال ، ورد على المعتزلة وبين تناقضهم.

ومن مذهبهم : أن الواجبات كلها سمعية ، وأن العقل لا يوجب شيئاً ، وأن لله صفات أزلية قائمة بذاته تعالى ، دلت أفعاله عليها ، لا يمكن جحدها ، ككونه تعالى عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حي بحياة ، يريد بإرادة ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، متكلم بكلام ، والكلام عنده : معنى قائم بالنفس سوى العبارة ، والعبارة دلالة عليه من الانسان ، فالمتكلم عنده من قام به الكلام ، والأشاعرة يتفقون على إثبات الصفات الذاتية بالعقل بدون تأويل ، ويختلفون في صفات الفعل والصفات الخبرية ، كالاستواء ، والنزول ، والمجيء ، واليد ، والوجه ، على فرقتين :

٥. فرقة تؤول جميع ذلك. ٥ وفرقة تفوض فيه ، ولم تتعرض للتأويل ، ويقال لهم الأشعرية الأسرية ، والإيمان عند الأشعري هو التصديق بالجنان ، والقول باللسان ، والعمل بالأركان فروع الإيمان.

أما أفعال العباد ، فإن الأشعري يقول فيها : والعبد قادر على أفعاله إذ الإنسان يجد من نفسه تفرقة ضرورية بين حركات الرعدة والرعشة ، وبين حركات الاختيار والإرادة ، ويسمي هذا الفعل كسباً فيكون خلقاً من الله تعالى ، إبداعاً وإحداثاً وكسباً من العبد ، حصولا تحت قدرته.

سلف الخوارج ، وأصبحت كلمة السلف واسعة المدلول(١).

ولكن إذا أردنا أن نميز بين السلفيين والفرق الأخرى المنتسبة للإسلام ، بصفة دقيقة - فلا بد من ضوابط موضوعية تكون مقياساً للإنتساب الصحيح للسلف خاصة وأن مفهوم السلف تثار حوله نزاعات حيث تحاول كل فرقة أن تنتسب إلى السلف ، أو تتسمى بإسم أهل السنة ، أو تدعي أنها لا تخالف منهج السلف وعقيدتهم على الأقل.

ولا شك أن من تتبع المنهج العقدي عند شيوخ المدرسة السلفية سوف يجد ضوابط موضوعية تجمع بين فكر السلفيين في القديم والحديث ، منهم العقائد يتمسكون بفهم الصحابة رضي الله عنهم - المنقول بواسطة المحدثين ، هذا الفهم الذي وصفه المقريزي بقوله : «ومن أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرد قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله ﷺ عن شيء مما وصف الله به نفسه الكريمة ، وعلى لسان نبيه محمد ﷺ بل كلهم فهموا ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات ، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل ، وإنما أثبتوا لله تعالى صفات أزلية من العلم ، والقدرة ، والحياة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والوجه ، واليد ، ونحو ذلك ، مع

---

١) الدكتور محمد السيد الجلنيد : الإمام ابن تيمية وقضية التأويل : ص ٥٢ ، الناشر : شركة عكاظ بالمملكة العربية السعودية ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ والدكتور : محمود أحمد خفاجي : في العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة ص : ٢٠.

نفي مماثلته للمخلوقين.

فأثبتوا رضي الله عنهم - بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيل ، ولم يتعرض أحد منهم إلى تأويل شيء من ذلك ، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت»(١).

إن أبرز صفات السلفيين التي تميزهم عن الفرق الإسلامية الأخرى في القديم والحديث هي : تقديم النقل على العقل ، ورفض التأويل الكلامي ، والاستدلال بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والوقوف عند النص»(٢) .

هذه هي قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي ، وهي تعتبر عنواناً مؤشراً على اتباع مذهب السلف ، والإقتداء بهم ، في فهم الإسلام ، وكذلك : فإن مدلول السلفية : أصبح مع التطور التاريخي لظهور الفرق الإسلامية منحصراً في المدرسة السلفية التي حافظت على العقيدة والمنهج الإسلامي طبقاً لفهم الأوائل الذين تلقوه جيلا بعد جيل ، وأبرز سماتهم التمسك بمنهج النقل»(٣).

---

١) الخطط : ٣٢٦/٢.

٢) مصطفى حلمي : قواعد المنهج السلفي ص ٢٥٣-٢٦٣.

٣) محمد الهبراوي : عقيدة ابن تيمية الحنبلي : تحقيق للعقيدة السلفية ودراسة للمنهج السلفي التيمي والأشعري ص ٤٤-٤٥ ، منشورات دار الحكمة ، دمشق ، بيروت ، [د. ت] ، ومصطفى حلمي : ابن تيمية والتصوف ص ٧ ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، [د. ت] وقواعد المنهج السلفي ص ٢٣.

هذا ويمكن أن نستخلص مما تقدم أن السلف هم : «أهل القرون الثلاثة التي وصفها النبي ﷺ بأنها خير القرون ، دون المبتدعين ، ثم أصبح مدلول السلفية اصطلاحاً يطلق على من تمسك بمذهب السلف ، وترك مذاهب المبتدعة ، ولذا فإن مذهب السلف غير منحصر في مرحلة زمنية معينة كما زعم الدكتور البوطي(١) ، ولكنه ممتد إلى العصر الحاضر ، ولله الحمد - حيث ما تزال توجد إلى حد الآن جماعة مؤمنة بدين الله عز وجل وفق عقيدة السلف الصالح ومنهجهم ، وسوف يستمر ذلك ويزداد بإذن الله تعالى - حتى يرث الله الأرض ومن عليها. والله الموفق.



---

١) ألف الدكتور سعيد رمضان البوطي كتاباً بعنوان : السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي ، وقد رد الدكتور صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان على هذا الكتاب بكتاب آخر سماه : نظرات وتعقيبات على ما كتاب السلفية لمحمد سعيد رمضان ، من الهفوات ، وتضمن هذا الكتاب - على الرغم من صغر حجمه - ردوداً قوية على كتاب الدكتور البوطي واعتمد مؤلفه في ردوده على الكتاب والسنة ، وأقوال السلف ، وعلماء السنة ، وقد طبع الكتاب للمرة الثانية في الرياض عام ١٤١١هـ فليراجعه من أراد التوسع في هذا الموضوع.

المبحث الثاني

منهج السلف في دراسة العقيدة

لقد جرى عمل السلف الصالح في حياة الرسول ﷺ على إتباع كتاب الله المنزل ، وسنة رسوله الكريم ﷺ ، والرجوع إليه في كل ما شجر بينهم ، معتصمون بحبل الله ، لا يتقدمون بين يدي الله ورسوله ، وإذا أراد أحدهم معرفة شيء في الدين والكلام ، نظر فيما قاله الله ورسوله ، فمنه يتعلم ، وبه يتكلم ، وفيه ينظر ويتفكر ، وبه يستدل»(١). وقد نهى النبي ﷺ أصحابه عن الجدل ، وصرفهم عنه إلى ما يتصل بالأمور النافعة.

فقد أخرج الإمام أحمد رحمه الله - في مسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال : جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم : أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله ﷺ جلوس عند باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا عجزة إذ ذكروا آية من القرآن ، فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول الله ﷺ مغضباً قد احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول : مهلا يا قوم ، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم بإختلافهم على أنبيائهم ، وضرب الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم يتنزل يكذب بعضه بعضاً ، بل يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه

---

١) شيخ الإسلام ابن تيمية : الفرقان بين الحق والباطل ص ٤١ ، وانظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ، المرجع السابق ص ٩٨.

فاعملوا به ، وما جهلتهم فردوه إلى عالمه»(١).

وقد أخرجه البخاري في كتابه خلق أفعال العباد بلفظ آخر عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن أبيه عن جده ، قال : سمع النبي ﷺ قوماً يتدارؤون»(٢).

فقال : إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً فلا تضربوا بعضه ببعض ، ما علمتم منه فقولوا ، ومالا فكلوه إلى عالمه»(٣).

وأخرج الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه - قال ، قال رسول الله ﷺ [ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون﴾ قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح(٤).

---

١) مسند الإمام أحمد : تحقيق أحمد محمد شاكر رقم ٦٧٠٢ ، ٢٢٨/١٠ ، طبعة دار المعارف بمصر ١٣٧٠هـ ١٩٥١م. قال أحمد محمد شاكر إسناده صحيح وهو أيضاً رقم : ٦٦٦٨ ، بلفظ خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون ... ، قال أحمد محمد شاكر إسناده صحيح.

٢) التدارؤ : التدافع والاختلاف ، ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث ١٠٩/٢ ، تحقيق : محمود محمد الطنامي ، وطاهر أحمد الزاوي ، الطبعة الثانية ، دار الفكر ، بيروت : ١٣٩٩هـ.

٣) خلق أفعال العباد ضمن عقائد السلف : ص ١٥٤ ، تحقيق علي ماضي النشار ، وعمار جمعي الطالبي ، الناشر : منشأة المعارف ، الاسكندرية ١٩٧١م.

٤) سنن الترمذي ٥٥/٥ ، مراجعة عبدالرحمن محمد عثمان ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر ، بيروت ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م ، ومسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنزل العمال في سنن الأقوال والأفعال ٢٥٦/٥ ، فهرس محمد ناصر الدين لرواته من الصحابة ، الطبعة الخامسة ، المكتب

على هذا المنهج الذي رسمه رسول الله ﷺ والذي يعتمد على الكتاب والسنة ، والوقوف عند نصوصهما ، والابتعاد عن الجدل في الدين ، سار سلف هذه الأمة ، فابتعدوا عن المناقشات الجدلية ، وكرهوا البحث والتنقيب عن الأشياء الغامضة ، فلم يتكلموا إلا في ما جاء فيه العلم ، وبينه الرسول ﷺ»(١).

ويذكر المقريزي ذلك بقوله : ولم يكن عند أحد منهم أي الصحابة رضي الله عنهم - ما يستدل به على وحدانية الله تعالى - وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ ، سوى كتاب الله(٢) ولا عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية ، ولا مسائل الفلسفة ، ومضى عصر الصحابة رضي الله عنهم على هذا»(٣).

ويصور الشهرستاني موقف السلفيين وتمسكهم بالكتاب والسنة عند ظهور بدع المعتزلة بقوله : إن السلف من أصحاب الحديث لما رأوا توغل المعتزلة في علم الكلام ، ومخالفة السنة التي عهدوها من الأئمة الراشدين ، تمسكوا بمنهاج المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث ، منهم

الإسلامي ، بيروت ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م ، وابن عبدالبر جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغي في روايته وحمله ١١٩/٢ ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، [د. ت] والآية رقم ٥٨ من سورة الزخرف.

١) البخاري : خلق أفعال العباد ضمن عقائد السلف ١٥٤.

٢) كان الصحابة رضي الله عنهم أعلم الناس بالدلائل البرهانية على وحدانية الله تعالى وإثبات نبوة محمد ﷺ فقد كانوا رضي الله عنهم أعمق هذه الأمة علماً وأقلها تكلفاً وأقومها هدياً وأحسنها حالاً.

٣) المقريزي : الخطط ٣٥٦/٢.

مالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهما ، فسلكوا طريق السلامة ، وقالوا : نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ، ولا نتعرض للتأويل»(١) ، بل نعلم قطعاً أن الله عز وجل لا يشبهه شيء من المخلوقات وأن كل ما تمثل في الوهم فإنه خالقه ومقدره»(٢).

هذا هو نهج الصحابة - رضي الله عنهم - وأئمة الإسلام الذين ساروا على طريقتهم في دراسة العقيدة ، وفي تلقي الإسلام وفهمه ، وتطبيقه ، فكانوا جميعاً لا يتجاوزون الكتاب والسنة ، ولا يبحثون عن الدليل في الطرق الكلامية ، ولا مسائل الفلسفة لتصديقهم ، بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق ، وهو ما كان عليه المؤمنون الأولون من المهاجرين والأنصار.

---

١) لفظ التأويل : يستعمل في ثلاثة معان : أحدها : أن التأويل هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح ، لدليل يقترن به ، وهذا المعنى للتأويل هو المقصود هنا ، وهو الذي اصطلح عليه كثير من متأخري المتكلمين والأصوليين.

المعنى الثاني : أن التأويل بمعنى التفسير ، وهذا هو الغالب في اصطلاح المفسرين للقرآن الكريم ، كما يقول ابن جرير وأمثاله من المصنفين في التفسير ، واختلف علماء التأويل.

والمعنى الثالث : من معاني التأويل : هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام ، كما قال تعالى : ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوا من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق...﴾ سورة الأعراف الآية : ٥٣ ، شيخ الإسلام ابن تيمية : الرسالة التدمرية ص ٢٩ ، الطبعة الثالثة ، نشر قصي محب الدين الخطيب ، المطبعة السلفية ١٤٠٠هـ ، والفتوى الحموية الكبرى ص ٤٠-٤٢ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٢-٤٣٥.

٢) الملل والنحل : ١/١٠٣-١٠٤.

لذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية "ولم يستوعب الحق إلا من اتبع المهاجرين والأنصار، وآمن بما جاء به الرسول ﷺ على وجهه"(١).

وقد درج علماء المدرسة السلفية على هذا النهج على امتداد التاريخ الإسلامي لإيمانهم - العميق - بأنه لا نجاة إلا باتباع الكتاب والسنة، وما أجمع عليه سلف الأمة، وما استجد بعد ذلك من أصول عند المتأخرين، محدث مبتدع في الإسلام سبوق بإجماع السلف على خلافه، والنزاع الحادث بعد إجماع السلف مقطوع بخطئه"(٢).

١) الفرقان بين الحق والباطل ص : ٨٥ ، وراجع : عقيدة باب بن الشيخ سيدي ص ٤ ، مخطوط عندي صورة منه.

٢) شيخ الإسلام ابن تيمية : الفرقان بين الحق والباطل ص ١٦، ٤١-٤٢ ، وبداه بن البصري : الدر النضير في علم الكلام وحقيقة التوحيد ص ١ ، مخطوط عندي صورة منه.

وبهذا المنهج الذي يعتمد على الكتاب والسنة، وقف علماء المدرسة السلفية في وجه المتكلمين والفلاسفة، واستعاضوا بأدلة القرآن والحديث عن التأويلات الكلامية لدى شيوخ المعتزلة والأشاعرة»(١).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: إن العلوم الإلهية والدينية سمعيها وعقليها إنما تؤخذ من الرسول ﷺ ويجعل ما جاء به هو الأصول لدلالة الأدلة اليقينية البرهانية على أن ما قاله حق جملة وتفصيلا.

وأيضاً فإن الأنبياء والرسل إنما بعثوا بتعريف هذا فهم أعلم الناس به، وأحقهم بقيامه، وأولاهم بالحق فيه»(٢).

وقد أكمل الله عز وجل هذا الدين وأتمه في حياة الرسول ﷺ فلم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد بين كل ما يحتاج إليه الناس في أمر الدين وبلغه البلاغ المبين، يقول تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾(٣).

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية أخبر الله نبيه والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً وقد أتمه فلا ينقصه أبداً

---

١) مصطفى حلمي قواعد المنهج السلفي ص ٢٦٣.

٢) راجع الفرقان بين الحق والباطل المصدر السابق ص ٩٢.

٣) سورة المائدة: الآية ٣.

وقد رضيه فلا يسخطه أبداً»(١).

وكان من أبرز ما تميز به علماء المدرسة السلفية هو : أنهم طوعوا المفاهيم العقلية لنصوص الكتاب والسنة لإيمانهم الراسخ بأن الرسول ﷺ جاء بالهدى ودين الحق ، وأن القرآن يهدى للتي هي أقوم ، وأنه ما من مسألة من مسائل الدين التي بعث الله بها رسوله ﷺ إلا وقد جاء بيانها في الكتاب أو السنة وكان للسلف الصالح فيها كلام»(٢).

قال الخطابي - رحمه الله تعالى - في رسالة الغنية عن الكلام ما نصه : لم يترك رسول الله ﷺ شيئاً من أمر الدين قواعده ، وأصوله ، وشرائعه ، وفصوله ، إلا بينه ، وبلغه على كماله وتمامه»(٣).

وسنلقي الضوء فيما يأتي على الفوارق الأساسية التي يتميز بها منهج السلف عن المناهج الكلامية ، وهي : التمسك بنصوص الكتاب والسنة والوقوف عندها ، ورفض التأويل الكلامي ، والعمل بكل ما صح عن النبي ﷺ في أصول الدين ، وفروعه ، لا يفرقون في ذلك بين الأحاديث المتواترة ، وأحاديث الآحاد ، والأخذ بأقوال الصحابة - رضي الله عنهم - وتقديمها على أقوال من جاء بعدهم ، وفيما يلي بيان ذلك:

---

١) رواه ابن جرير الطبري بسنده ، راجع تفسيره : جامع البيان عن تأويل آي القرآن : ٦٩/٦.

٢) شيخ الإسلام ابن تيمية : الفرقان بين الحق والباطل ص ١٧-١٨ ، والفتوى الحموية الكبرى ص ١١-١٢ ، والرسالة التدمرية ص ٢٢.

٣) الخطابي : الغنية عن الكلام ، تلخيص السيوطي في صون المنطق ١٤١/١.

الفـــــوارق الأساسية التي تميز منهج السلف عن المناهج الكلامية:

إن من المعلوم أن جميع المنتسبين للإسلام متفقون على الإستدلال بالقرآن الكريم في العقيدة وفي غيرها ، غير أن المتكلمين يؤولون كثيراً من الآيات القرآنية ، وخاصة ما فيه ذكر للصفات الإلهية.

يقول محمد بن أحمد الشنقيطي : «والنص من القرآن أو الحديث إن أدخل في الوهم معنى غير لائق بالله(١). فاصرفه عن ظاهره بإجماع السلف(٢)

---

١) يستحيل أن يصف الله تعالى نفسه أو يصفه رسوله ﷺ بما ظاهره غير لائق بجلاله وكماله ، إذ لا أحد أعلم بالله من الله ، كما قال عز وجل : ﴿أأنتم أعلم أم الله﴾ البقرة : ١٤٠ ، ولا أحد أعلم بالله بعد الله من رسوله ﷺ الذي قال في حقه ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ النجم : ٣-٤ ، ولا شك أن النبي ﷺ بين الدين لأمته أبلغ بيان وأتمه امتثالا لقوله تعالى : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم..﴾ النحل : ٤٤.

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن السلف الصالح وأئمة المسلمين لا يرضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفراً وباطلا ، والله أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه لا يظهر منه إلا ما هو كفر أو ضلال» انظر الرسالة التدمرية ص ٢٣.

٢) هذه الدعوى التي هي إجماع السلف والخلف على وجوب صرف اللفظ المزعوم أنه غير لائق بالله تعالى عن ظاهره : مردودة بقول ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ثم استوى على العرش﴾ الأعراف : ٥٤ ، إنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله تعالى فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ، وليس كمثله شيء ، تفسير ابن كثير ٢/٢٢٠ ، ٣/١٤٢ ، طبعة دار المعرفة ، بيروت ١٣٨٨هـ ، والنووي على صحيح

والخلف(١).

وهذا الكلام السالف الذكر ، يتبين لنا من خلاله المنهج الذي سار عليه المتكلمون وهو تقديم العقل على النقل في الاستدلال حيث أنهم يشترطون في الاستدلال بالنصوص الشرعية ، من الكتاب والسنة ، بألا يعارضها ما يسمونه بالقواطع العقلية.

وقد بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله : إن الاستدلال بالسمع مشروط عند المتكلمين بألا يعارضه قاطع عقلي ، فإذا عارضه العقلي وجب تقديمه عليه»(٢).

أما أصحاب المدرسة السلفية فإنهم يجانبون تأويل النصوص الشرعية بما يخالف ظاهرها ولا يخبرون عن شيء من صفات الله عز وجل ولا غير صفاته إلا بعد أن يخبر الله تعالى بما يخبرون به فيكون خبرهم وقولهم تبعاً لخبره»(٣).

مسلم ٢١١/١٢ ، الطبعة المصرية [د. ت] وبداه بن البصيري : تنبيه الخلف الحاضر على أن تفويض السلف لا ينافي الاجراء على الظواهر ، ص ١ ، الطبعة الأولى ، نواكشوط ١٤١٠هـ.

١) محمد بن أحمد الشنقيطي ، شرح إضاءة الدجنة في إعتقاد أهل السنة لأحمد المقري ص ٨٨.

٢) الفرقان بين الحق والباطل : ص ٩١.

٣) انظر المصدر السابق نفسه ص ٤٠ ، وابن عبدالبر جامع بيان العلم وفضله ١١٧/٢.

ولا يرون تعارضاً بين العقل الصريح، والنقل الصحيح(١)، ولذلك فإن من أبرز السمات التي تتجلى فيها الأصول الثابتة لعقيدة السلف هي: الإيمان بأسماء الله وصفاته من غير زيادة عليها ولا نقص منها، ولا تأويل بها، بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل أمروها كما جاءت في كتاب الله، أو على لسان رسوله ﷺ.

قال ابن عبدالبر - رحمه الله - «قد روينا عن مالك بن أنس، والأوزاعي، وسفيان بن سعيد، وسفيان بن عيينة، ومعمر بن راشد، في الأحاديث في الصفات، أنهم كلهم قالوا: أمروها كما جاءت مثل حديث النزول»(٢) وغيره من أحاديث الصفات(٣).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته الله من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير

---

١) شيخ الإسلام ابن تيمية، الحموية الكبرى ص ٣٥، ومن المعروف أن ابن تيمية، ألف كتاباً مفيداً مشهوراً سماه: درء تعارض العقل والنقل، أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول.

٢) هو حديث أبي هريرة رضي الله عنه المتفق عليه ولفظه: ينزل ربنا تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، صحيح البخاري مع الفتح ٢٩/٣، وصحيح مسلم بشرح النووي ٣٦/٦.

٣) راجع جامع بيان العلم وفضله ١١٨/٢.

تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه»(١).

والدليل على أن هذا هو مذهب السلف الصالح - رضي الله عنهم - أنهم نقلوا إلينا القرآن ، وأخبار الرسول ﷺ ، نقل مصدق مؤمن بها ، قابل لها غير مرتاب فيها ، ولا شاك في صدق قائلها ، ولم يؤولوا ما يتعلق بالصفات منها ، ولم يشبهوه بصفات المخلوقين ، إذ لو فعلوا شيئاً من ذلك لنقل إلينا عنهم ، كما نقل إلينا اختلافهم في بعض مسائل الفروع»(٢).

وأما الاستدلال بالأحاديث النبوية في مسائل العقيدة ، فإن أهل السنة والجماعة يستدلون بكل ما صح عن النبي ﷺ لا يردون شيئاً منه ، ويقبلون في العقائد والأحكام ما صح من السنة النبوية المطهرة بالخبر المتواتر أو خبر الآحاد(٣) ويستشهدون على ذلك بالأدلة التي تأمر

---

١) الرسالة التدمرية ص ٤ ، والحموية الكبرى ص ٣١-٣٢ ، وابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على علم الخلف ص ٣٣ ، تحقيق محمد بن ناصر العجمي ، الطبعة الأولى ، دار الأرقم للنشر والتوزيع ، الكويت ١٤٠٤هـ ، والشوكاني : التحف في مذاهب السلف ص ٣٥-٣٦ ، وابن عبد : جامع بيان العلم وفضله : ١٣/٢.

٢) الخطابي : الغنية عن الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق ١٤٢/١ ، والمقريزي : الخطط ٣٥٦/٢ ، ومحمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٩٨-٩٩.

٣) المتواتر : ما رواه عدد كثير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب في كل طبقة من طبقات سنده إلى منتهاه ، والآحاد : هو ما لم تجتمع فيه شروط المتواتر ، أحمد محمد شاكر : الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، لابن كثير ص ٢٩-٣٠ ، الطبعة الثالثة ، مكتبة دار التراث ١٣٩٩هـ ، والأمين الحاج حجية أحاديث الآحاد في الأحكام والعقائد ص ٤٣-٤٤ ، الطبعة الأولى ، دار المطبوعات الحديثة ، جدة ١٤١٠هـ.

بتصديق الله تعالى، فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر به، مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾(١)، وما في معناها من الآيات.

كما استدلوا بعمل الرسول ﷺ في أنه كان يرسل واحداً واحداً من أصحابه إلى الملوك والأمراء والقبائل، والجهات.

وقد بوب البخاري لذلك فقال: باب: كان يبعث النبي ﷺ الأمراء والرسل واحداً بعد واحد»(٢).

وقد أخرج البخاري أيضاً عن حذيفة أن النبي ﷺ قال لأهل نجران لأبعثن إليكم رجلا أميناً حق أمين فاستشرف لها أصحاب النبي ﷺ فبعث أبا عبيدة»(٣).

وأخرج أيضاً عن ابن عباس أن النبي ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال [ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقراءهم](٤).

ولو لم يكن خبر الواحد ملزماً للحجة ومثبتاً للعقائد لما اقتصر ﷺ

---

١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

٢) صحيح البخاري ٨/١٣٦، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت [د. ت].

٣) المصدر السابق نفسه ٨/١٣٤.

٤) المصدر السابق نفسه ٨/١٠٨.

على واحد في ذلك.

وبهذا يثبت أن خبر الواحد إذا صح وتلقته الأمة بالقبول ، يجب العمل به في العقائد ، والأحكام ، وهو منهج السلف ، وقول جمهور العلماء ، من أصحاب أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، وأكثر أصحاب الأشعري(١).

يقول ابن عبدالبر : إن جماعة أهل الأثر والفقه ، كلهم يدين الله عز وجل بخبر الواحد العدل في الاعتقادات ، ويعادي ويوالي عليها ، ويجعلها شرعاً وديناً في معتقده ، وعلى ذلك جماعة أهل السنة(٢).

وقد صرح أبو المظفر السمعاني بأن خبر الواحد يوجب العلم(٣)

---

١) شيخ الإسلام ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٤١/١٨ ، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم العاصمي الحنبلي ، وابنه محمد ، طبع في القاهرة ١٤٠٤هـ ، وراجع كتاب الدكتور عمر الأشقر ، العقيدة في الله ص ٤٩-٥٠ ، الطبعة الخامسة ، مكتبة الفلاح بالكويت ١٩٨٤م.

٢) التمهيد لما في الموطأ من من الأسانيد ٨/١ ، تحقيق : مصطفى بن أحمد ، ومحمد عبدالكبير ، الطبعة الثانية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ، ١٤٠٢هـ وراجع لابن عبدالبر : جامع بيان العلم وفضله ١١٧/٢-١١٨ ، ولأبي المظفر السمعاني : الانتصار لأهل الحديث ، تلخيص السيوطي في صون المنطق ٢١٣/١-٢١٤ ، وكتاب الأمين الحاج : حجية أحاديث الآحاد المرجع السابق ص ٤٩ وما بعدها.

٣) قال أحمد محمد شاكر : اختلفوا في الحديث الصحيح هل يوجب العلم القطعي اليقيني وهي مسألة دقيقة : فذهب بعضهم إلى أنه لا يفيد العلم ، بل هو ظني الثبوت ، وهو الذي رجحه النووي في التقريب ، وذهب آخرون إلى أنه يفيد العلم اليقيني ، وهو مذهب داوود الظاهري ، والحسين بن علي الكرابسي ، والحارث بن أسد المحاسبي ، وحكى عن مالك ، وهو اختيار

عند عامة أهل الحديث إذا صح، وتلقته الأمة بالقبول، حيث قال:

«إن خبر الواحد إذا صح وتلقته الأمة بالقبول يوجب العلم فيما سبيله العلم، هذا قول عامة أهل الحديث، والمتيقنين من القائمين على السنة، والمقولة التي تذكر أن خبر الواحد لا يفيد العلم بحال شيء اخترعتها لقدرية، والمعتزلة، وكان قصدهم منه رد الأخبار، وتلقفه منهم بعض الفقهاء الذين لم يكن لهم من العلم قدم ثابت، ولم يتفقوا على مقصودهم من هذا القول»(١).

وإذا كان منهج السلف هو الايمان والتصديق بكل ما صح عن النبي ﷺ والعمل بمقتضاه في أصول الدين، وفروعه، ويقبلون في ذلك كله الخبر المتواتر، وخبر الآحاد، فإن بعض المتكلمين، وعلى رأسهم المعتزلة، قد أسرفوا في تقدير سلطان العقل، وتقديمه على النص، حيث اعتمدوا في الاستدلال لاثبات العقائد على القضايا العقلية، فكل مسألة يعرضونها على العقل فما قبله أقروه، وما لم يقبله رفضوه»(٢).

ابن حزم، والحق الذي ترجحه الأدلة الصحيحة أن الحديث الصحيح يفيد العلم القطعي سواء كان في أحد الصحيحين أو في غيرهما، الباعث الحثيث المرجعا لسابق ص ٢٩-٣٠، وراجع كتاب الأمين الحاج: حجية أحاديث الآحاد المرجع السابق ص ٧٠-٧١.

١) أبو المظفر السمعاني: الانتصار لأهل الحديث، تلخيص السيوطي في ضوء المنطق: ٢١٢/١.

٢) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ١٢٩، والدكتور محمد أحمد خفاجي: في العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة ٥٢/١.

وقد رد المعتزلة خبر الآحاد في مسائل الاعتقاد، لأنه لا يفيد العلم القطعي عندهم، و اشترطوا في قبوله أن يكون موافقاً لحجج العقول، فإن لم يكن موافقاً لها فالواجب أن يرد بتأول»(١).

واحتجوا لذلك بأنه لا بد من اليقين في المسائل العقدية، لأن الله عز وجل ذم المشركين على اتباعهم الظن(٢) في قوله تعالى: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾(٣) وما في معناها من الآيات التي ذم الله فيها المشركين على إتباعهم الظن، وفات عليهم أن الظن المذكور هو الذي ليس له مستند إلا حسن ظن هؤلاء المشركين بآبائهم الأقدمين وتعظيمهم(٤).

فهذا هو الظن الذي عابه الله على المشركين، أما الظن الغالب الذي يفيده خبر الآحاد عند من يقول بإفادته للظن فلا يدخل في ذلك(٥).

ولو كان الظن الذي عابه الله على المشركين هو الظن الغالب الذي يفيده خبر الآحاد لكان لا يجوز الأخذ به في الأحكام الشرعية أيضاً، لأن الله عز وجل أنكر على المشركين الأخذ بالظن إنكاراً مطلقاً ولم يخصه بالعقيدة دون الأحكام(٦).

---

١) عبدالجبار بن أحمد: شرح الأصول الخمسة ص ٧٧٠، تعليق أحمد بن الحصين بن أبي هاشم، تحقيق الدكتور عبدالكريم عثمان، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة بالقاهرة، ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م.

٢) قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط ص ١٥٦٦: الظن: التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد غير الجازم وقد يوضع موضع العلم.

٣) سورة النجم: الآية ٢٣.

٤) راجع تفسير ابن كثير ٢٤٥/٤، وتفسير الشوكاني فتح القدير ١٠٩/٥، طبعة بيروت [د. ت].

٥) الأمين الحاج: حجية أحاديث الآحاد، المرجع السابق ص ٦٩.

٦) عمر الأشقر: العقيدة في الله ٤٨-٤٩.

ثم إننا لا نسلم أن خبر الآحاد إذا صح وتلقته الأمة بالقبول لا يفيد إلا الظن، بل هو يفيد العلم عند كثير من العلماء، كما تقدم قبل قليل.

وأما الأخذ بأقوال الصحابة - رضي الله عنهم - أو تقديمها على أقوال من جاء بعدهم، فإن المرجع في ذلك يعود إلى ما خصهم الله به من صحبة رسول الله ﷺ ومعاصرتهم للوحي الإلهي، فهم خير القرون، وأفضل الأمة، وأكرم الخلق على الله بعد النبيين، خصهم بما خصهم به من الفضائل الكثيرة.

قال عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - من كان منكم متأسياً فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»(١).

هذا مع ما يمتازون به من الفهم اللغوي لنصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، فهم أعرف الناس بما يليق بالله تعالى، وما ينزه عنه جل وعلا، ذلك أنهم الجيل المثالي في فهم الإسلام، وتطبيقه، وقد

١) ابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١٩/٢، وابن تيمية الرسالة التدمرية ص ٦٥.

بلغوا الذروة في ذلك استيعاباً وتنفيذاً(١).

موقف السلف من الخوض في علم الكلام(٢):

لقد وقف السلف من علم الكلام موقفاً معارضاً فحرموا الاشتغال به، والخوض فيه، وكرهوا مناظرة أهله، وذموه، وسار على هذا الدرب علماء المدرسة السلفية على امتداد التاريخ الإسلامي، وذلك لكون هذا العلم لم يرد الأمر به في كتاب ولا سنة، ولا وجد في السلف البحث فيه(٣).

ولذلك زجروا عنه، وعدوه من المحدثات والبدع(٤)، وسنورد من أقوال أئمة السلف ما يلقي الضوء على موقفهم في هذا العلم.

---

١) راجع في هذا الموضوع خطط المقريزي ٣٥٦/٢، وتاريخ المذاهب الإسلامية، المرجع السابق ٩٨، والدكتور مصطفى حلمي: قواعد المنهج السلفي ص ٣٩.

٢) علم الكلام: عرفه بداه بن البصيري بقوله: هو ما تنصب فيه الأدلة العقلية، و ينقل فيه أقوال الفلاسفة» الدر النضير في علم الكلام وحقيقة التوحيد ص ٩.

٣) السيوطي: صون المنطق ٦٤/١.

٤) ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله: ١١٩/٢، وابن الجوزي: تلبيس ابليس ص ٨٢-٨٥، تصحيح وتعليق إدارة الطباعة المنيرية، بمساعدة بعض علماء الأزهر، طبعة دار الفكر [د. ت].

فقد أخرج الهروي بسنده عن عكرمة بن عبدالله مولى ابن عباس أن نجده بن عامر(١) قال لعبدالله بن عباس : كيف معرفتك بربك؟ فقال ابن عباس : إن من ينصب دينه للقياس من لا يزال الدهر في التباس مائلا عن المنهاج طاعنا في الاعوجاج ، أعرفه بما عرف به نفسه ، ومن غير روية وأصفه بما وصف به نفسه»(٢).

وأخرج ابن عبدالبر بسنده عن الحسن البصري : «لا تجالسوا أهل الأهواء»(٣) ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم»(٤).

---

١) نجدة بن عامر الحنفي زعيم فرقة من الخوارج ، وكان السبب في زعامته أن جماعة من أتباع نافع بن الأزرق نقموا عليه أشياء ، فذهبوا إلى اليمامة ، وأخبروا بذلك نجدة بن عامر ، وبايعوه ،اكفروا من قال بإمامة نافع بن الأزرق ، وأقاموا على إمامة نجدة إلى أن اختلفوا عليه في أمور نقموها عليه فقتلوه عام ٦٩هـ بعد أن استولى على اليمامة والبحرين ، عبدالقاهر بن طاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق : ص ٨٧-٩٠ ، والشهرستاني : الملل والنحل ١/١٢٢-١٢٣ ، ومحمد أبو زهرة تاريخ المذاهب الإسلامية ص ٧٤-٧٦.

٢) الهروي : ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق : ٨٨/١.

٣) رأس الأهواء : القدر ، والإرجاء ، ورأي الحرورية ، والرافضة ، أبو المظفر السمعاني : الانتصار لأهل الحديث ، تلخيص السيوطي في صون المنطق : ٢٠٥/١ ، وأصل الهوى في اللغة العشق ، وإرادة النفس ، قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط ص ١٧٣٥ : والهوى بالقصر العشق ، يكون في الخير والشر ، وإرادة النفس ، وقال الشوكاني عند تفسيره للآية ٢٣ من سورة النجم : وهي قوله تعالى : ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس﴾ قال : المعنى : تميل إليه وتشتهيه من غير التفات إلى ما هو الحق الذي يجب الاتباع له» فتح القدير ١١٩/٥ ، وانظر المرجع السابق نفسه ٢٦٥/٢.

٤) جامع بيان العلم وفضله : ١١٨/٢ ، والهروي : ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق ٩١/١.

وأخرج الهروي بسنده عن نوح الجامح قال : قلت لأبي حنيفة - رحمه الله - ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال : مقالات الفلاسفة عليك بالأثر ، وطريقة السلف ، وإياك وكل محدثة»(١).

وسئل أبو حنيفة مرة أخرى عن الكلام في الأعراض والأجسام فقال : لعن الله عمرو بن عبيد فإنه هو الذي فتح على الناس الكلام في هذا»(٢).

وقال محمد بن الحسن : كان أبو حنيفة يحثنا على الفقه وينهانا عن الكلام»(٣).

وقال أبو يوسف : العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم ، وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل له زنديق(٤).

ومراده رحمه الله - بالجهل عن اعتقاد عدم صحته لأن ذلك علم نافع(٥).

وقال أبو يوسف أيضاً : من طلب العلم بالكلام تزندق»(٦).

---

١) المصدر السابق نفسه ٩٩/١-١٠٠.

٢) ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٩٢.

٣) ابن أبي العز الحنفي ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٠١.

٤) الهروي : ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق ١٠٠/١ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٢.

٥) المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها.

٦) الهروي : ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق ٩٦/١ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٢ ، وبداه بن البصيري ، الدر النضير ص ٦-٧.

وقال مالك رحمه الله - الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه ، وينهون عنه نحو الكلام في رأي جهم ، والقدر ، وكل ما أشبه ذلك ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل»(١).

وقد أورد ابن عبدالبر - رحمه الله - هذا النص وعلق عليه بقوله : إن الذي قاله مالك هو الذي عليه جماعة الفقهاء ، والعلماء ، قديماً وحديثاً من أهل الحديث والفتوى»(٢).

وأخرج الهروي بسنده عن مالك أنه قال : إياكم والبدع ، قيل يا أبا عبدالله وما البدع؟ قال : أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله ، وصفاته ، وكلامه ، وعلمه ، وقدرته ، ولا يسكتون عما سكت عنها الصحابة ، والتابعون»(٣).

وكان مالك رحمه الله - يقول : من طلب الدين بالكلام تزندق ، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس ، ومن طلب غريب الحديث كذب»(٤).

وقال مالك أيضاً : أرأيت إن جاء من هو أجدل منه أبدع دينه كحل يوم

---

١) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم وفضله

٢) المصدر السابق نفسه ، والصفحة نفسها ، وبداه بن البصيري : الدر النضير ص ٧.

٣) الهروي : ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق : ٩٦/١.

٤) عبدالغني الدقر : الإمام مالك بن أنس ص ٢٨٥ ، دار القلم ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٤١٠هـ وبداه بن البصيري : الدر النضير ص ٦ ، وراجع : الهروي : ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق ٩٦/١.

لدين جديد؟(١).

وأخرج الهروي بسنده عن عبدالرحمن بن مهدي أنه قال: دخلت على مالك وعنده رجل يسأله عن القرآن فقال: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد لعن الله عمرو بن عبيد فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام، ولو كان الكلام علماً لتكلم به الصحابة، والتابعون كما تكلموا في الأحكام، وهي: كون الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين لهم لم يتكلموا به.

وقد ذكر ابن عبدالبر عن الإمام مالك أنه قال: لا تجوز الإجارات في شيء من كتب الأهواء والبدع ثم قال: وأهل البدع عند مالك أهل الكلام، فكل متكلم، فهو من أهل الأهواء، والبدع أشعرياً كان أو غير أشعري(٢).

ونقل ابن الجوزي عن مالك أيضاً أنه قال: من قال القرآن مخلوق فيستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه»(٣).

وقال الشافعي - رحمه الله - حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر، والقبائل، وينادى هذا جزاء من ترك

---

١) ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله ١١٦/٢، والهروي: ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق ٩٦/١.

٢) جامع بيان العلم وفضله ١١٧/٢.

٣) تلبيس إبليس ص ٨٩.

الكتاب والسنة، وأخذ في الكلام»(١).

وهذا النص من الإمام الشافعي يدل على أن من الأسباب التي ذم بها أهل السنة علم الكلام هي: أنه يؤدي إلى ترك الكتاب والسنة، وكان الشافعي رحمه الله من أكثر علماء السلف كراهية لعلم الكلام، وذماً له، ولأهله.

وقد روى عنه أنه قال: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم غير المسمى، والشيء غير الشيء، فاشهدوا عليه بالزندقة(٢).
وقال: حكمي في أهل الكلام حكم عمر في صبيغ(٣).

وهذا الكلام من الشافعي - رحمه الله - يدل على أنه لا يرى فرقاً بين الخوض في متشابه القرآن والخوض في علم الكلام، فكل منهما بدعة

---

١) الهروي: ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق ١٠٦/١، وابن الجوزي تلبيس إبليس ص ٨٢-٨٣، وابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٢، وبداه بن البصيري: الدر النضير ص ٥.

٢) الهروي: ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق ١٠٦/١، وابن الجوزي تلبيس إبليس ص ٨٢.

٣) الهروي: ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق ١٠٦/١، وصبيغ رجل قدم الى المدينة في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصار يسأل عن متشابه القرآن، فدعاه عمر وضربه بعراجين النخل حتى أدماه ثم تركه حتى بريء فعاد له بمثل ذلك، ونفاه إلى البصرة، وأرسل إلى واليها أبي موسى الأشعري يأمره بأن يحرم عطاءه ورزقه وأن لا يجالس وإذا مرض فلا يعاد، وإذا مات فلا يشهد، السيوطي صون المنطق ٥٠/١-٥١، ١١٣.

مذمومة عند السلف قد تؤدي إلى المروق من الدين - والعياذ بالله تعالى.

وقال أحمد بن حنبل - رحمه الله - لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة(١).
وقال رحمه الله - لا يفلح صاحب كلام أبداً ولا ترى أحد نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغل(٢).
وقال أيضاً : لا يخلو من نظر في الكلام إلا تجهم(٣) . ووصف علماء الكلام بأنهم زنادقة(٤).

وموقف الإمام أحمد - رحمه الله - من علم الكلام وأهله وتمسكه بالكتاب والسنة، والتزامه بنهج السلف الصالح، أمر مشهور لا يحتاج إلى تطويل، وهذا ما يصوره لنا النص الآتي :
« فقد أخرج الهروي بسنده عن عبدالله بن أحمد بن حنبل أنه قال : كتب أبي إلى عبيدالله بن يحيى بن خاقان يقول : لست بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلا ما كان من كتاب الله أو في حديث عن رسول

---

١) ابن الجوزي : مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ٢٠٥ ، تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، والدكتور علي محمد عمر ، الطبعة الأولى مكتبة الخانجي بمصر ١٣٩٩هـ وابن رجب الحنبلي : بيان فضل علم السلف على علم الخلف ص ٤٣-٤٤.
٢) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم وفضله ١١٦/٢ ، وراجع كتاب ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص ٨٣ ، وقال الفيروزآبادي في القاموس المحيط ص ١٢٩١ : الدغل محركة دخل في الأمر مفسد ، والشجر الكثير الملتف ، واشتباك النبت ، وكثرته ، والموضع يخاف فيه الاغتيال.
٣) ابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على علم الخلف ص ٤٣.
٤) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ٨٣.

الله ﷺ فأما غير ذلك فالكلام فيه غير محمود»(١).

وقال أبو عمر بن عبدالبر : أجمع أهل الفقه والآثار في جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدغ وزيغ ، ولا يعدون عند الجميع في جميع طبقات العلماء وإنما العلماء أهل الأثر ، والتفقه فيه ، ويتافضلون فيه بالاتقان والحيز والفهم»(٢).

وذكر ابن الجوزي أن علم الكلام أدى ببعض أهله إلى الإلحاد حيث قال : ومن الناس من حسن له إبليس الخوض في علم الكلام ، والنظر في أوضاع الفلاسفة ليخرج بزعمه من غمار العوام ، وقد تنوعت أحوال المتكلمين وأفضى الكلام بأكثرهم إلى الشكوك ، وببعضهم إلى الإلحاد ، ثم قال .. أعوذ بالله من نظر ، وعلوم أوجبت هذه المذاهب القبيحة»(٣).

ووصف ابن رجب الحنبلي علم الكلام والفلسفة بالشر حيث قال: فأما الدخول في كلام المتكلمين ، أو الفلاسفة فشر محض ، وقل من دخل في شيء من ذلك إلا وتلطخ ببعض أوضارهم»(٤).

---

١) الهروي : ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق ١٠٨/١.

٢) جامع بيان العلم وفضله ١١٧/٢.

٣) تلبيس إبليس : ص ٨٢ ، ٨٤-٨٥.

٤) بيان فضل علم السلف على علم الخلف ص ٨٣ ، وقال الفيروزآبادي في القاموس المحيط ص ٦٣٣-٦٣٤ : الوضر محركة : وسخ الدسم ، أو غسالة السقاء ، والقصعة ونحوهما.

وهنا ربما تساءل البعض قائلا : إذا كان الجدال مذموماً في مسائل الاعتقاد فلماذا لا يكون كذلك في مسائل فروع الدين؟..

والجواب كالتالي :

مما لا شك فيه أن السلف تناظروا في الفقه وتجادلوا فيه ، لأنه علم يحتاج فيه إلى رد الفروع على الأصول ، لأن الحوادث في المعاملات متجددة وبالناس حاجة إلى معرفة الحكم فيها ، وليس الاعتقاد كذلك»(١).

ومن هنا استحبوا المناظرة في المسائل الفقهية ، وكرهوا الجدال في مسائل الاعتقاد»(٢).

وليس ذلك لمجرد ما في علم الكلام من اصطلاحات ولا كرهوا أيضاً الدلالة على الحق والمحاجة لأهل الباطل ، وإنما لما اشتمل عليه من أمور كاذبة ، مخالفة للحق ، ومن ذلك مخالفتها للكتاب والسنة ، ولاشتمال مقدماته على الحق والباطل كثر المراء والجدال ، وانتشر القيل والقال ، وتولد عن ذلك من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيق عنه المجال»(٣).

---

١) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم وفضله ١١٣/٢ ، وأبو المظفر السمعاني : الانتصار لأهل الحديث تلخيص السيوطي في صون المنطق ١١٠/١ ، وما بعدها ، وبداه بن البصيري : الدر النضير ص ٢٣.

٢) ابن عبدالبر : جامع بيان العلم وفضله ١١٩/٢-١٢٠ ، وبداه بن البصيري : الدر النضير في علم الكلام وحقيقة التوحيد ص ٢٣.

لقد أسرف المتكلمون في الاعتماد على الأدلة العقلية ، حتى عارضوا بها نصوص الكتاب والسنة ، فضلوا عن سواء السبيل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : إن نفاة الصفاة أو بعضها يعتمدون على ما يظنونه أدلة عقلية يعارضون بها ما جاء به الرسول ﷺ وحقيقة قولهم : أن الرسول ﷺ لم يذكر في ذلك ما يرجع اليه لا من سمع ولا عقل ، فلم يخبر بذلك خبراً يبين به الحق على زعمهم ولا ذكر أدلة عقلية تبين الصواب في ذلك على حد زعمهم فاحتاج الناس إلى التأويل أو التفويض»(١).

ويكفي في الاستدلال على فساد قول هؤلاء أنه ليس عندهم قاعدة ثابتة مطردة فيما يحيله العقل ، بل منهم من يزعم أن العقل يجيز أو يوجب ما يدعي الآخر أن العقل يحيله(٢).

وقد انعكس هذا الاضطراب في المنهج على المتكلمين ويظهر ذلك جلياً حين ينظر المرء إلى فرق المتكلمين ، فربما وجد الفرقة الواحدة منقسمة شيعاً وأحزاباً ، وكل طائفة منها تكفر أو تضلل الطوائف الأخرى

---

٣) ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٤.

١) الفرقان بين الحق والباطل ص ١١ ، والحموية الكبرى ص ٢٠-٢١ ، وراجع أقوال العلماء في معنى التفويض في خطط المقريزي ٢/٣٦٠ ، وللتوسع في هذا الموضوع انظر : ابن العربي : قانون التأويل ص ٦٦٦-٦٦٧ ، تحقيق محمد السليماني الطبعة الأولى ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدة ، مؤسسة علوم القرآن بيروت ، ١٤٠٦هـ وشيخ الإسلام ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٥/٤١-٤٢.

٢) شيخ الإسلام ابن تيمية : الحموية الكبرى ص ٣٤.

وتتبرأ منهم(١).

وفي الحقيقة : إن الالتزام بمنهج السلف هو الذي يضمن السلامة للمسلمين في دينهم ودنياهم ، ولذلك فقد عصم الله أهل السنة والجماعة من الاختلاف والتفرق الذي وقع فيه المتكلمون وغيرهم من الفرق المنحرفة ، المنتسبة للإسلام ، وكان السبب في ذلك أنهم أخذوا الدين من الكتاب والسنة ، وطريق النقل فأورثهم الاتفاق ، والائتلاف(٢).

بخلاف المتكلمين فإنهم أخذوا الدين من المعقولات ، والآراء فأورثهم ذلك الافتراق والاختلاف وضعف اليقين والمعرفة(٣).

وقد ناقش شيخ الإسلام ابن تيمية آراء الفرق الكلامية مناقشة مستفيضة وانتقدها ورد عليها ، وأظهر تناقضها ثم قال:

« وهذا يبين لك أن من خرج عن الكتاب والسنة فليس معه عالم لا عقلي ولا سمعي لا سيما في هذا المطلوب الأعظم»(٤)..

ويقصد شيخ الإسلام بالمطلوب الأعظم ما يتعلق بالذات الإلهية وصفاتها العلية ، ولو أن المتكلمين الذين أقحموا العقل في غير ميدانيه

---

١) راجع : صون المنطق د. المصدر السابق ١/٢٢٠.

٢) المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

٣) راجع ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٤ ، والسيوطي : صون المنطق ١/٢٢٠.

٤) الفرقان بين الحق والباطل ص ١١٨ ، والرسالة التدمرية ص ١٥.

، وأسرفوا في تقدير سلطانه ، رجعوا إلى الكتاب والسنة لوجدوا أن الرسول ﷺ بلغ البلاغ المبين ، فمن المحال أن يترك تعليم الناس فيما يقولونه بألسنتهم ويعتقدونه في قلوبهم»(١).

ولو تدبروا كتاب الله تعالى لوجدوا فيه الأدلة العقلية التي تدل على الحق بأوجز عبارة ، وأبلغها ، ولوجدوا أن الرسول ﷺ أعرف الناس بالأمور الإلهية ، والمعارف الدينية ، وأنه بين للناس أمر هذا الدين أكمل بيان ، تارة بالأدلة العقلية ، وتارة بالأدلة السمعية ، ولا خلاف بين النظار من جميع الطوائف أن القرآن الكريم اشتمل على الأدلة العقلية في المطالب الدينية(٢).

وإذا كان الله عز وجل قد أكمل الدين وبلغه الرسول ﷺ البلاغ المبين ، وهو الغاية في الفصاحة ، والعلم ، والقدرة على البلاغ ، وإذا كان القرآن العظيم قد اشتمل على الأدلة العقلية في المطالب الدينية التي تدل على الحق بأبلغ عبارة ، وأوجزها ، فإن أدلة المتكلمين سريعة التهافت كثيرة التناقض ، فما من كلام تسمعه لفرقة منهم ، إلا وتجد لخصومهم عليه كلاماً يوازيه ، أو يقاربه كل بكل مقابل ، وبعض ببعض

---

١) شيخ الإسلام ابن تيمية : الحموية الكبرى ص ١٢ ، والهروي : ذم الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق : ١٠٤/١. وبداه بن البصيري : الدر النضير ص ٥.

٢) شيخ الإسلام ابن تيمية : الفرقان بين الحق والباطل ص ٩٠ ، وعقيدة باب بن الشيخ سيدي ، المرجع السابق ص ٤.

معارض»(١).

وقبل نهاية هذا المبحث، ينبغي التنبيه على أمرين:

○ أولهما : أن السلف لم يذموا جنس الكلام، فإن كل آدمي يتكلم ولا ذموا الاستدلال، والنظر والجدل الذي أمر الله تعالى به، ولا ذموا كلاماً هو حق، وإنما ذموا الكلام الباطل المخالف للشرع والعقل(٢).

○ الأمر الثاني : أن السلف لم يسكتوا عن الكلام عجزاً ولكنهم رأوا أنه لا يروي غليلا، ولا يشفي عليلا، بل يرد الصحيح عليلا، فأمسكوا عنه، ونهوا عن الخوض فيه(٣).

وإذا كان هذا هو موقف السلف وعلماء السنة من علم الكلام، فإن عدداً من كبار علماء المتكلمين قد رجعوا إلى عقيدة السلف، وأقلعوا عن علم الكلام لما رأوا من قبح غوائله(٤).

وأقروا في نهاية المطاف بأن الصواب في الرجوع إلى مذهب السلف وترك الخوض في طرق المتكلمين ومناهجهم العقلية التي أدت بهم إلى الانحراف عن النهج القويم، كما ذكر علماء السنة ومنهم -

---

١) الخطابي : الغنية عن الكلام تلخيص السيوطي في صون المنطق : ١٤٥/١، وبداه بن البصيري : الدر النضير ص ٤٣.

٢) شيخ الإسلام ابن تيمية : الفرقان بين الحق والباطل ص ٩٦.

٣) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ٨٢، وراجع كتاب ابن عبدالبر جامع بيان العلم وفضله : ١٨/٢.

٤) راجع كتاب ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ٨٤.

الشوكاني الذي وصفهم بقوله : «إنهم - أي المتكلمون - لم يقفوا حيث أوقفهم الله ، ودخلوا في أبواب لم يأذن الله لهم بدخولها ، فحاولوا علم شيء استأثر الله بعلمه»(١).

وبذلك فإنهم لم يقنعوا بالتسليم لنصوص الكتاب والسنة ، ولم يقفوا عندها ، بل ذهبوا في طلب التعليلات العقلية التي لم يدركوها مما ابتعد بهم عن النهج الإسلامي السليم(٢).

ومن ثم فإن البناء العقلي لهذا العلم قد تلاشى ، وسوف أسوق هنا أمثلة مما حدث من انقلاب فكري لبعض كبار المتعمقين في هذا العلم في مواقفهم الأخيرة بعد رحلة وتجارب طويلة ، وعثرات كثيرة ، حيث أعلنوا البراءة منه ، ورجعوا إلى منهج السلف.

فهذا أبو الحسن الأشعري الذي نشأ في حجر أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في عصره ، وظل على مذهب المعتزلة أربعين عاماً ، قضاها في الدراسة والبحث ، حتى تصدر المعتزلة ، رجع عن الاعتزال ، وأعلن ذلك للناس على منبر جامع البصرة ، وفي آخر مطافه قرر الرجوع إلى عقيدة السلف بعد طول فكر وإمعان نظر ، ودون عقيدته التي استقر عليها أمره

---

١) التحف في مذاهب السلف ص ٣٩.

٢) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ٨٩.

أخيراً في كتابه : الإبانة عن أصول الديانة(١).

وهذا أيضاً إمام الحرمين أبو المعالي الجويني الذي تعمق في هذا العلم يقول عن نفسه : لقد خضت البحر الخضم ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم ، وخضت في الذي نهوني عنه كل ذلك طلباً للحق ، وهرباً من التقليد ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان ، وها أنا أموت على عقيدة أمي»(٢).

ومن أكثر المتكلمين تعمقاً في علم الكلام فخر الدين الرازي ، وهو كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : ومن أعظم الناس طعناً في الأدلة السمعية حتى ابتدع قولا ما عرف به قائل مشهور غيره ، وهو أنها لا تفيد اليقين»(٣) ، ومع هذا فإنه صرح في مرض موته بما يدل على أنه رجع إلى عقيدة السلف حيث قال:

« لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي غليلا

---

١) راجع كتاب ابن عساكر : تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعريص ٣٨-٨٣. ومطصفى حلمي : قواعد المنهج السلفي ص ٣٠ ، ومحمد الهبراوي المرجع السابق ص ٥٣-٦١ ، ومقدمة حماد الأنصاري لكتاب الإبانة عن أصول الديانة ، لأبي الحسن الأشعري ص ٧ وما بعدها.

٢) ابن الجوزي : تلبيس إبليس ص ٨٤-٨٥ ، وابن تيمية : الحموية الكبرى ص ١٥ ، وصون المنطق المصدر السابق ٢٣٤/١-٢٣٧ ، وبداه بن البصيري : الدر النضير ص ١٩-٢٠ ، ٢٨، ٣٠ ، وعقيدة باب بن الشيخ سيدي المرجع السابق ص ٦ ، وراجع كتاب الشوكاني : التحف في مذاهب السلف تجد فيه بحثاً قيماً في هذا الموضوع ص ٤٢-٤٣.

٣) الفرقان بين الحق والباطل ص ٩٢.

ولا تروي عليلا ، ورأيت أقرق الطرق طريقة القرآن أقرأ في الإثبات ، ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾(١) ، ﴿الرحمن على العرش استوى﴾(٢) واقرأ في النفس ﴿ليس كمثله شيء﴾(٣) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»(٤).

وقد رجع هؤلاء وغيرهم عن الخوض في علم الكلام، وقرروا الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة بعد أن انتهوا إلى غاية التدقيق في النظر، وأذعنت عقولهم أنها لن تدرك الحقيقة الإلهية وصفاتها العلية.

وأخيراً فإنه مما تجدر ملاحظته أنه لا خير في مذهب قد رجع عنه رءوسه وسجل المتعمقون فيه براءتهم منه في آخر حياتهم، وفي نهاية الكلام عن منهج السلف سوف نرى موقع هذه العقيدة واهتمام الناس بها، واعتقادهم لها في داخل موريتانيا موضوع هذه الرسالة، ولعله من الأفضل والمفيد أن نعطي نبذة عن المرابطين والأسس التي قامت عليها دعوتهم، قبل الدخول في التفاصيل.

---

١) سورة فاطر الآية : ١٠.

٢) سورة طه الآية : ٥.

٣) سورة الشورى الآية : ١١.

٤) ابن تيمية ، الحموية الكبرى ص ١٥ ، والنبوات ص ١٥٩ ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٢هـ ، وابن قيم الجوزية : اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص ١٢١-١٢٢ ، طبعة المكتبة السلفية بالمدينة المنورة [د. ت] وابن أبي العز الحنفي شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٢٧-٢٢٨.

الفصل الثاني
المرابطون وأسس دعوتهم

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : التعريف بالمرابطين ، وبداية دعوتهم.. وفيه مطلبان:

المطلب الأول : التعريف بالمرابطين.

المطلب الثاني : بداية دعوة المرابطين.

المبحث الثاني : أسس دعوة المرابطين ، وفيه أربعة أسس :

الأساس الأول : التعليم والتربية الإسلامية.

الأساس الثاني : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الأساس الثالث : الجهاد في سبيل الله .

الأساس الرابع : العدالة الاقتصادية.

○○○○

المطلب الأول

التعريف بالمرابطيــــــــــن

يطلق إسم المرابطين على مجموعة كبيرة من القبائل ، أبرزها لمتونة ، وجدالة ، ومسوفة ، وجزولة ، وتندغ ، ولمطة ، وكان لهذه القبائل أثر ملحوظ في تاريخ المغرب الإسلامي ، ونشر لواء الإسلام في شمال وغرب إفريقيا(١).

وقد اختلف النسابة في أصل هذه القبائل هل هي من أصل عربي أو بربري ، واقتصر صاحب عمود النسب(٢) على القول بأنها من حمير ، حيث قال:

يوسف العدل بن تاشفينا الحميري ثم من لمتونا (٣)

---

١) راجع كتاب علي بن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ص ١٢٠ ، طبعة دار المنصور للطباعة والوراقة بالرباط ١٩٧٢م، ومحمد عبدالله عنان : دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ص ٢٩٨ ، الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٣٨٩هـ وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٩-٤٠.

٢) هو أحمد البدوي المجلسي فقيه ومؤرخ له اليد الطولى في علم السيرة والأنساب ، توفي حوالي ١٢٢٠هـ ، بكر أبو زيد : طبقات النسابين ص ١٨٦-١٨٧ ، الطبعة الأولى دار الرشيد بالرياض ١٤٠٧هـ وأحمد المختار إكمال تحفة الألباب ١/٩-١١.

٣) المرجع السابق نفسه ٣/٩٢.

وقد أشار أحمد بن الأمين إلى خلاف المؤرخين في نسب هذه القبائل بقوله : والخلف في لمتونة بين المؤرخين قديم ، فالأكثر أنهم من حمير ، ودخلوا في بلاد المغرب في الجاهلية(١).

والجدير بالذكر أن قبائل المرابطين جزء من قبيلة صنهاجة ، وهذه القبيلة ذهب جماهير النسابة والمؤرخين من العرب إلى أنها تنتمي إلى العرب القحطانيين الحميريين.

وممن قال بذلك ابن جرير الطبري ، وابن الأثير ، وابن خلكان ، والفيروزآبادي ، وغيرهم كثير.

وذهب ابن حزم ، وابن خلدون ، إلى أن صنهاجة من قبائل البربر(٢).

وقد يكون من المناسب أن نعرج على سبب هذه التسمية [المرابطون] وقبل الدخول في التفاصيل ينبغي أن نعرف الرباط ، ونشير

---

١) أحمد بن الأمين ، الوسيط : ص ٤٧٧.

٢) راجع عن هذا الموضوع : الكامل في التاريخ ، المصدر السابق ٧٤/٨ ، وابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ١٢٨/٧ ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، طبعة دار الثقافة ، بيروت ١٩٧١م، وابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس من أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص ١١٩ ، وابن عذاري البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ١٧/٤-١٨ ، ٤٦ ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، طبعة دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣م. وابن خلدون : العبر ٨٩/٦-٩٧ ، والقاموس المحيط للفيروزآبادي المصدر السابق : ص ٤٤٥ ، والدكتور حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ١١٦/٤-١١٧ ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٧م ، ومعهد البحوث ، المرجع السابق ص ٨ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٢٨.

إلى فضله.

قال الرازي في مختار الصحاح : الرباط : بالكسر ما تشد به الدابة ، والقربة ، وغيرهما ، والجمع ربط ، بسكون الباء ، والرباط أيضاً المرابطة ، وهي ملازمة نفر العدو ، والرباط أيضاً واحد الرباطات المبنية أو رباط الخيل مرابطتها"(١).

ويظهر من هذا التعريف أن الرباط يشمل المقام في الثغور ، كما يشمل الأماكن المبنية ذاتها.

وقد ورد معنى الرباط في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾(٢).

وذكر الشوكاني عند قوله تعالى : [ورابطوا] قولين للمفسرين:

فالجمهور على أن المراد الأقامة في ثغور العدو ، وقيل : انتظار الصلاة بعد الصلاة(٣).

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ، أن الرباط في ثغور المسلمين أفضل من سكنى مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ، على نية العبادة ، ثم قال : وما أعلم في هذا نزاعاً بين أهل العلم ، وق نص على ذلك غير واحد من

---

١) محمد بن أبي بكر ، مختار الصحاح ص ٢٢٩.

٢) سورة آل عمران : الآية ٢٠٠.

٣) فتح القدير ٤١٥/١.

الأئمة»(١).

ومن هنا أنشأ عبدالله بن ياسين رباطه للدفاع عن ثغور المسلمين، وللتعليم والعبادة، ولما اشتهر أمره وفد عليه كثير من أشراف صنهاجة، فكلف على تعليمهم وإعدادهم لحمل مسؤولية الجهاد، وسماهم بالمرابطين للزومهم رابطته»(٢).

وقد اختلف المؤرخون في تحديد الموضع الذي أقام فيه عبدالله بن ياسين رباطه، فيذكر ابن أبي زرع أنه في جزيرة في البحر يسهل الخوض في الماء للوصول إليها إذا كان الجزر، وتركب إليها الزوارق إذا كان المد(٣).

واشار ابن خلدون إلى أنه في ربوة يحيط بحر النيل من جهاتها ضحضاحاً في المصيف، وغمراً في الشتاء، فتعود جزراً منقطعة(٤).
وفسر جمهور الباحثين في شمال وغرب إفريقيا ما قصده ابن أبي زرع

---

١) مجموع الفتاوى ٥/٢٨.
٢) محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ص ٣٠٢ ، وحسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ١١٥/٤ ، وإبراهيم الجمل : المرجع السابق ص ٨٩-٩٠ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٦٥ ، والفريل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ص ٢٣١ ، ترجمه عن الفرنسية عبدالرحمن بدوي ، الطبعة الثالثة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٧٧م.
٣) الأنيس المطرب ص ١٢٤-١٢٥.
٤) العبر ١٨٣/٦.

وابن خلدون بإحدى جزر البندرة شمال رأس تيمريس على بعد ثلاثين كيلا من نواكشوط عاصمة موريتانيا(١).

وعزز الدكتور حسن أحمد محمود هذا الرأي، بأن الرباط لا يبنى عادة إلا في المناطق التي تتعرض للغزو، ولا يوجد ثمة خطر إلا من المماليك الزنجية الواقعة إلى جنوب حوض السنغال التي تغير على مضارب الملثمين باستمرار، فكان من المعقول أن يتخذ ابن ياسين نهر السنغال وهو الحد الفاصل بين مضارب الملثمين ومضارب الزنوج مستقراً لرابطته، بقصد الجهاد ونشر الإسلام في ديار الزنوج، ومحاولة وقف عدوانهم، وحسر تيارهم، والحيلولة بينهم وبين الإغارة على مضارب الملثمين(٢).

أما الفريق الآخر فيرى أن عبدالله بن ياسين أقام رباطه في جزيرة تقع في منحنى النيجر على مقربة من تيسنبكتو(٣).

والذي أراه أن الرأي الأول هو الصحيح، للمرجحات التالية:

---

١) انظر على سبيل المثال المراجع التالية: معهد البحوث المرجع السابق ص ١٣، وعبدالله حميده المرجع السابق ص ١٧، وابراهيم الجمل: المرجع السابق ص ٧٧، ومحمد الصوفي: المرجع السابق ص ٣٤، والخليل النحوي: المرجع السابق ص ٦٥، ١٢٨، وحسن ابراهيم حسن: المرجع السابق ٢٨٤/٤، والدكتور محمد عبدالله النقيرة: التأثير الإسلامي في غرب إفريقية، ص ٥٥، الطبعة الأولى مطابع الفرزدق التجارية، الرياض ١٤٠٨هـ.

٢) قيام دولة المرابطين ص ١٢٥-١٢٦.

٣) محمد عبدالله عنان: دول الطوائف ص ٣٠٢، والفرد بل: الفرق الاسلامية في الشمال الإفريقي ص ٢٣١.

١- أن الأمير يحيى بن إبراهيم الجيرالي هو الذي اختار مكان الرباط ومضارب قبيلته جدالة تقع في جنوب الصحراء ، وتمتد على شمال نهر السنغال ، فهو يعرف تلك المنطقة جيداً ، ومن المستبعد أن يذهب إلى مكان بعيد في منحنى النيجر ليس فيه خطر يذكر على الملثمين ، ويترك جهة الخطر ، وهي نهر السنغال ، حيث المماليك الزنجية المجاورة لقبيلة جدالة التي تغير عليها باستمرار.

٢- أن الجزيرة التي تقع في منحنى النيجر تكاد تكون شاقة بسبب قلة موارد الماء ، وضيق رقعتها ، فلا تستطيع أن تعول عدداً ضخماً من المرابطين بلغ في بعض الأحيان أكثر من ألف مجاهد(١) ؛ على حين تتيسر الحياة في الجزر الواقعة قرب نهر السنغال ، بسبب وفرة المياه العذبة ، ووفرة النبات ، والصيد ، يتضح ذلك من قول صاحب الروض : «فيها الحلال المحض ، الذي لا شك فيه من أشجار البرية ، وصيد البر ، وأصناف الطير والوحش والحوت..»(٢).

٣- أن الأطراف الجنوبية لديار جدالة كانت تمتد حتى تدرك حوض السنغال ، وكانت هذه القبيلة تستطيع أن تحمي ظهر العصبة المرابطية ، إذا ما فكر الزنوج الوثنيون في الاعتداء عليها ، وهذه الميزة غير موجودة في الجزيرة الصغيرة التي تقع في منحنى النيجر.

---

١) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ص ١٢٦.

٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٢٥.

المطلب الثاني

بداية دعوة المرابطين

تولى يحيى بن إبراهيم الجدالي زعامة الملثمين - كما مر - وكان راجح العقل ، بعيد النظر ، شديد الحماس للدعوة الإسلامية ، وأدرك أن أحلاف الملثمين السابقة لم تستطع إسقاط حكام غانة الوثنيين ، بسبب جهل الملثمين لتعاليم الإسلام ، وضعف حماسهم للجهاد ، فأراد أن يقيم اتحادهم على تعاليم الإسلام والدعوة إليه ، فترك أمر الملثمين لابنه إبراهيم بن يحيى ، وتوجه إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج.

وفي عودته مر بالقيروان ، حاضرة المغرب الثقافية ، وتتلمذ على أبي عمران الفاسي(١) إمام المالكية بالمغرب في وقته(٢) ، وشكا إليه عدم وجود

---

١) هو موسى بن عيسى بن أبي حجاج الغفجومي أصله من فاس من بيت مشهور استوطن القيروان ، وحصلت له بها رياسة العلم ، له اليد الطولى في القرآن وعلومه ، والحديث ، والفقه ، [ت ٤٣٠هـ] ابن فرحون ، الديباج المذهب في معرفة علماء أعيان المذهب ص ٣٤٤-٣٤٥ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، [د. ت] والنادلي التشوف إلى رجال التصوف ، وأخبار أبي العباس السبتي ص ٨٧-٨٩ ، تحقيق أحمد التوفيق ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية جامعة محمد الخامس بالرباط ١٤٠٤هـ.

٢) راجع ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٢٢ ، ومحمد يوسف مقلد ، موريتانيا الحديثة ص ٨٧-٨٨ ، والجدير بالذكر هنا أن هذه الرحلة نسبها ابن الأثير للجوهر بن سحيم ، خلافاً لما

معلم وطلب منه أن يبعث معه من يقوم بتعليم الدين الإسلامي للملثمين ، حيث قال له:

« إننا في الصحراء منقطعون ، لا يصل إلينا إلا بعض التجار حرفتهم الاشتغال بالبيع والشراء ، وفينا أقوام يحرصون على تعلم القرآن لو وجدوا من يقرؤهم القرآن ، ويدرس لهم العلم ، ويفقههم في دينهم ، ويدعوهم إلى العمل بالكتاب والسنة ، ويعلمهم شرائع الإسلام ، فابعث معي من تلاميذك من يقوم بذلك وسيكون لك الأجر العظيم ، والثواب الجسيم عند الله عز وجل»(١).

وقد استجاب أبو عمران القاضي لهذا الطلب ، وأرسله إلى أحد تلاميذه النابهين الزاهدين ، وهو وجاج بن زلو(٢) بالمغرب الأقصى وعهد إليه أن يتلمس له من يثق بدينه وعلمه ويروض نفسه على سغبة أرضهم في معاشه(٣).

عليه جماهير المؤرخين من أن صاحبها هو يحيى بن إبراهيم الجدالي ، كما أثبتناه في الصلب ، وسيأتي أن الجوهر بن سحيم ممن ثاروا على عبدالله بن ياسين.. راجع الكامل في التاريخ ٧٤/٨.

١) ابن عذارى المراكشي ، المصدر السابق ٧/٤ ، وابن أبي زرع المصدر السابق ص ١٢٣ ، والخليل النحوي المرجع السابق ص ٦٤.

٢) هو وجاج بن زلو اللمطي : رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفامي ثم عاد إلى بلاده في السوس الأقصى وبنى بها داراً لطلبة العلم سماها دار المرابطين ، وكان من أهل الصلاح والتقوى .. التشوف إلى رجال التصوف ، المصدر السابق ص ٨٩ وما بعدها..

فاختار له وجاج فقيهاً نابهاً صالحاً ، شهماً من تلاميذه الملثمين يعرف لسانهم وطبائعهم ، وهو عبد الله بن ياسين(١).

---

٣) ابن خلدون : العبر ١٨٢/٦ ، ومحمد عبدالله النقيرة ، المرجع السابق ص ٥٤.

١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧٤/٨ ، وابن أبي زرع الأنيس المطرب ص ١٢٤ ، وحسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام ٢٨٩/٤-٢٩٠.

التعريف بعبدالله بن ياسين وعقيدته:

هو أبو محمد عبدالله بن ياسين بن مكوك بن سير الجزولي ، ولد في أحواز مدينة أودغست ، في قرية تدعى [تيماما دنت] في أوائل القرن الخامس الهجري ، ولا تعرف سنة مولده على وجه الدقة ، وبعد أن قضى طفولته في مسقط رأسه رحل إلى مدن العلم في المغرب ، وتلقى العلم فيها ، ثم غادر المغرب إلى الأندلس في بداية الربع الثاني من هذا القرن ، ولبث فيها سبع سنين ، حصل خلالها على علوم كثيرة ، ثم رجع إلى المغرب الأقصى ، واتصل برباط وجاج بن زلو وجلس فيه لطلب العلم(١).

وكان عبدالله بن ياسين على سيرة فقهاء المالكية في الزهد والتقشف والبعد عن السلطان ، وقد اجتمع فيه كثير من الخصال الحميدة.
ويصفه ابن أبي زرع بأنه : من الأذكياء النبهاء ، النبلاء ، ومن أهل الدين والفضل ، والتقى ، والورع ، والفقه ، والأدب ، والسياسة ، مشاركاً في العلوم(٢).

ويتفق كثير من الباحثين الذين تناولوا حياة عبدالله بن ياسين على

---

١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٤/١٠ ، وإبراهيم الجمل : المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٤٢-٤٩ ، وعصمت عبداللطيف : المرجع السابق ص ٦٢-٦٣ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١١٥-١١٦.

٢) الأنيس المطرب بروض القرطاس ص ١٢٣.

أنه لم يكن فقيهاً قط ، وإنما كان عالماً محدثاً ومفسراً ويذكر عنه إبراهيم الجمل أنه فسر القرآن لأصحابه ، وروى الحديث ، وكان من تلامذته محدثون ، ثم يقول : وقد برع في الفقه ، والحديث ، والتفسير ، والسياسة ، والجهاد ، وقيادة الشعوب ، وقادة الجيوش ، فهذا ما لم يحدث قبل داعية الله ابن ياسين - رحمه الله - إلا ما ندر في الرعيل الأول في تاريخ دعوتنا المجيدة ، ولم يحدث بعده إلا مقلداً له(١).

وقد أجمع الرواة على أنه كان من الفقهاء النابهين الحذاق شهماً قوي النفس ، ذا رأي وخير ، وتدبير حسن ، وفوق ذلك قائداً مقداماً وزعيماً شجاعاً ومجاهداً مخلصاً(٢).

عقيـــــدته :

كان عبد الله بن ياسين سلفي العقيدة ، متمسكاً بالكتاب والسنة واقفاً عند نصوصها ، متأسياً بالرعيل الأول من هذه الأمة ، بعيداً عن علم الكلام ، والفلسفة ، وغير ذلك من البدع.

ولا خلاف بين من تناولوا حياته بالبحث العلمي في أنه كان سلفي العقيدة ، والمنهج.

---

١) إبراهيم الجمل : المرجع السابق ص ١٣٩-١٤٤ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١١٦ ، ١٦١ ، وعصمت عبداللطيف المرجع السابق ص ٦٤.

٢) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١١٦-١١٧ ، وحسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلامي ٤/٢٨٣.

وقد أشار الدكتور حسن أحمد محمود إلى ذلك بقوله: «ولم يكن عبدالله بن ياسين إلا واحداً من الفقهاء الذين ترسموا خطى إمامهم مالك وغيره من أهل السنة في إثبات الصفات لله عز وجل، وعزوفهم عن التأويل واشتغالهم عن الخوض في بحر خضم، هو بحر علم الكلام، والفلسفة(١).

وركز إبراهيم الجمل في كتابه: الإمام عبدالله بن ياسين على جانب العقيدية، فوصفه بأنه سلفي العقيدة، والسلوك، والمنهج، والتعاليم، متأسياً بالرعيل الأول في كل ما يقوم به، يتصرف في النصوص بما يتفق وأصول الدين الإسلامي القويم، فهم الإسلام فهماً صحيحاً ووعى تعاليمه، فلم يبتدع أو يتأول، شديد الدعوة إلى ترك البدع والضلالات(٢).

وما ذكره الباحثون المسلمون عن عبدالله بن ياسين من التمسك بالكتاب والسنة واقتفاء آثار السلف الصالح ذكره الباحثون المستشرقون عنه أيضاً والحق ما شهدت به الأعداء.. ومنهم على سبيل المثال: مؤلف كتاب الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي الذي نص على أنه «لم يكن من علماء الكلام بل كان فقيهاً مالكياً لا يدرس إلا القرآن والشريعة

---

١) قيام دولة المرابطين ص ١٨٤.

٢) إبراهيم الجمل، المرجع السابق ص ٤٤، ٦١، ١٢٠-١٢٢.

والعبادات»(١).

وقد قامت دعوته على التمسك بالكتاب والسنة، وترسم خطى السلف الصالح وتطهير العقيدة الإسلامية من شوائب البدع والخرافات، وتطبيق أحكام الإسلام وحدوده وشعائره، وإقامة مجتمع إسلامي متكامل يؤمن بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة.

وعانى في سبيل ذلك مشقات كبيرة حتى استشهد في الجهاد في سبيل الله عام ٤٥١هـ(٢).

وقد سافر عبدالله بن ياسين هذا مع الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي لتعليم الملثمين دين الإسلام الصحيح، ومنذ ذلك التاريخ بدأ مهمته التي انتدبه إليها شيخه وجاج بن زلو وهي ما سنتحدث عنه في أسس دعوة المرابطين.

---

١) الفرد بل، المرجع السابق ص ٢٣١.

٢) راجع عصمت عبداللطيف، المرجع السابق، ص ١٤١، وسلامة الهدف المرجع السابق ص ١٢٥، وابراهيم الجمل: المرجع السابق ص ٣٧-٣٩، ١٤١-١٤٤، ١٥١-١٥٣، والفرق الإسلامية في الشمال الافريقي: المرجع السابق ص ٢٣٠-٢٣١.

المبحث الثاني

أسس دعوة المرابطيـــــن

الأساس الأول : التعليم والتربية الإسلامية:

إن الإسلام دين العلم ، أمر به وحث عليه ، ورفع من شأنه وقد مر معنا أهمية العلم في الإسلام(١).

وكان عبدالله بن ياسين يؤمن إيماناً عميقاً بتعاليم الإسلام ، ويعلم أن أول أهداف الدعوة هو تكوين رجال صالحين يعرفون تعاليم الإسلام معرفة صحيحة ، لأن تحقيق نجاح الدعوة الإسلامية لا بد أن يكون مبنياً على تعاليم الكتاب والسنة.

لذلك ، فإنه بدأ مهمة الدعوة والإصلاح التي قادها بالتعليم والتربية الإسلامية ، فما إن خرج مع أمير الملثمين يحيى بن إبراهيم الجدالي ، حتى بدأ يحط الركب ويذكرهم بما يجب عليهم نحو خالقهم ، ويعلمهم أصول دينهم ، ويدعوهم إلى الجهاد ، وإعلاء كلمة الله ، بلغة عربية سهلة ، وبربرية واضحة ، يفهمها الجميع ، ويؤكد على المحافظة على الصلاة ، بطهارة في

---

١) راجع المبحث الرابع من الفصل الأول ص :

أول وقتها مع الجماعة(١).

ولما وصل الركب إلى ديار الملثمين ، قام الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي عن راحلته ، وأخذ بزمام البعير الذي عليه عبدالله بن ياسين ، تعظيماً له ، وقدمه إلى الحاضرين قائلا : «هذا عبدالله بن ياسين ، محي سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، جاء ليعلمنا أمور ديننا ، ويدعونا إلى ما كان عليه الرسول ﷺ».

فتلقاهما الناس بالإكرام ، وفرحوا بقدومهما ورحبوا بالفقيه عبدالله بن ياسين ، وبالغوا في إكرامه(٢).
وجلس فيهم يعلمهم القرآن ، وأحكام الإسلام ، وفرائضه ، منقادين لتعاليمه ، وممتثلين لأوامره ونواهيه ، وبقي على هذا الحال حتى خرجت عليه طائفة من أهل الشر ضاقت ذرعاً بتطبيق تعاليم الإسلام(٣).

وقد قاد هذه الطائفة رجل من الملثمين يدعى الجوهر بن سحيم ،

---

١) إبراهيم الجمل : المرجع السابق ص ٦٥ ، وعصمت عبداللطيف المرجع السابق ص ٦٥-٦٦.
٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧٤/٨ ، وابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٢٤ ، وإبراهيم الجمل : المرجع السابق ص ٦٥ ، وعبدالله حميده ، المرجع السابق ص ١٦.
٣) ذكر ابن الأثير أن هذه الطائفة من الملثمين ضاقت ذرعاً بتعاليم الإسلام التي يعلمهم إياها عبدالله بن ياسين ، فقالوا له : أما ما ذكرت من الصلاة والزكاة فصحيح قريب ، وأما قولك من قتل يقتل ، ومن سرق يقطع ، ومن زنى يجلد أو يرجم ، فأمر لا نلتزمه اذهب إلى غيرنا.. الكامل في التاريخ ٧٤/٨ ، وحسن إبراهيم حسن : تاريخا لاسلام ٢٨٤/٤.

واتفق مع بعض كبراء قومه فعزلوا عبدالله بن ياسين ، واعتدوا عليه فخرج منهم خائفاً يترقب(١).

إلا أن الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي الذي جاء به أصر على بقائه واستمرار الاستفادة منه ، فلحق به وقال له : إنما أتيت بك لأنتفع بعلمك في خاصة نفسي ، وديني ، وما علي في من ضل من قومي(٢).

فوافق عبدالله بن ياسين على البقاء معه ومن هنا بدأ الدور الإيجابي في دعوته ، حيث أشار عليه الأمير يحيى بن إبراهيم بالخروج الى جزيرة بالبحر(٣) ، يمكنه فيها اعتزال المشاغبين ، ويقيم فيها رباطاً يكون مقراً له ولدعوته ، وحصناً لأتباعه يدفع عنهم خطر أعدائهم ، ويتيح لهم لوناً من الحماية يفيئون إلى ظلها ، وينصرفون إلى تعليمهم وعبادتهم وإعداد إنفسهم للجهاد.

فوافق عبدالله بن ياسين على هذا الرأي وارتاح له(٤) وليس ذلك بغريب منه ، فهو قد تعود على حياة الرباط ، حيث أخذ العلم في رباط وجاج

---

١) ابن عذارى : البيان المغرب ، في أخبار الأندلس والمغرب ٨/٤-٩ ، وابن خلدون : العبر ١٨٢/٦-١٨٣ ، وإبراهيم الجمل : المرجع السابق ص ٧٤.

٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٢٤ ، وحسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ٢٨٤/٤ ، وعبدالله حميدة : المرجع السابق ص ١٦.

٣) تقدم الكلام عن مكان هذه الجزيرة في المبحث الأول من هذا الفصل

٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٢٤-١٢٥ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٢٤ ، وإبراهيم الجمل : المرجع السابق ص ٧٥-٧٦.

بن زلو ، وعاش فيه فترة من الزمن.

ولا ندري بالتحديد كم كانوا حين انتبذوا مكانهم ذاك وإن قيل إن عبد الله بن ياسين ويحيى بن إبراهيم الجدالي عندما دخلا في الجزيرة كان يصحبهما سبعة رجال من الملثمين(١).

وفي هذه الجزيرة بنوا رباطاً وأقاموا فيه يتعلمون القرآن وأحكام الإسلام ، ويعبدون الله تعالى ، فسمع الناس بأخبارهم ، وأقبلوا يفدون إليهم ، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى اجتمع عليهم عدد كبير من أشراف صنهاجة(٢).

وقد بذل عبد الله بن ياسين - رحمه الله - لأصحابه في الرباط كل ما في وسعه من العناية ، والحرص على تكوين جيل من الدعاة السلفيين القادرين على حمل مسؤولية الدعوة الإسلامية طبقاً لمنهج السلف الصالح رضي الله عنهم ، فلم يتوان في تعليمهم عقيدة الإسلام وأحكامه من الكتاب والسنة ، حتى تفقهوا في الدين(٣).

---

١) ابن أبي زرع المصدر السابق ص ١٢٥ ، وابن الخطيب : المصدر السابق ص ٢٢٧ ، وعصمت عبداللطيف المرجع السابق ص ٧٣.

٢) راجع الأنيس المطرب ، المصدر السابق ص ١٢٥.

٣) راجع المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها ، والكامل في التاريخ : المصدر السابق ٧٥/٨ ، وقيام دولة المرابطين : المرجع السابق ص ١٤٤ ، وعصمت عبداللطيف : المرجع السابق ص ٧٤.

وقد اشتهر عن عبدالله بن ياسين - رحمه الله - حب الإلتزام بتعاليم الإسلام والنصح للمسلمين، والتفاني في الإخلاص للدعوة الإسلامية، وبهذه الصفات استطاع أن يكون في رباطة دعاة صالحين، يلتزمون بتعاليم الإسلام على نهج السلف الصالح، وقد برز هذا الرباط في نواحي ثلاث: التعليم، والعبادة، والاستعداد لجهاد المشركين والقضاء على عنصر الفتنة(١).

ولم يغفل المرابطون أمر الدعاية لرباطهم ونشر أخبارهابين الناس، بل إن عبدالله بن ياسين كان يبعث بعض المساعدات المالية إلى طلاب العلم والفقهاء، ويشرح لهم منهج المرابطين القائم على الكتاب والسنة، وما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم، والتابعون لهم بإحسان، فكان الناس يقبلون عليه ويحبونه ويرضون بأحكامه عن طيب خاطر(٢).

وبهذا المنهج استطاع عبدالله بن ياسين - رحمه الله - أن ينجح في خطته في الدعوة، فتداعى إليه الناس من كل الجهات، التي إنتشر فيها

---

١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ٤/٢٨٥ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٤٤ ، وإبراهيم الجمل : المرجع السابق ص ٨٢-٨٣.

٢) راجع الأنيس المطرب : المصدر السابق ص ١٢٥ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ١٤٤-١٤٥ ، ١٥٨ ، وعصمت عبداللطيف : المرجع السابق ص ١٢٥ ، وإبراهيم الجمل : المرجع السابق ص ٨٤.

خبره ، وما يقوم به من تعاليم الإسلام ، والدعوة إلى الحق ، وتمكن من تكوين جيل من الفقهاء السلفيين ، عرفوا بالتقوى والورع وإنكار الذات ، خلصت نياتهم وزكت نفوسهم(١).

كما استطاع هذا الفقيه الداعية أن يكون من قبائل الملثمين قوة إسلامية سلفية تقوم على : الإيمان الراسخ بالله عز وجل ، وإقامة شعائر الإسلام ، مع التمسك بمذهب الإمام مالك رحمه الله-(٢).

والواقع أن تعاليم عبدالله بن ياسين - رحمه الله - في هذا الرباط أعطت ثمارها كاملة ، فقد تمخض عنها تأمين مركز قوي للدعوة الإسلامية ، وتكوين قوة سلفية ذات عزم يهابها أعداء الإسلام.
وقد وصفهم ابن خلكان بقوله : «وكان قد ظهر لأبطال الملثمين في المعارك ضربات بالسيوف تفد الفارس وطعنات تنظم الكلى ، فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم»(٣).

---

١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص١٤٨.

٢) إحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧١.

٣) وفيات الأعيان ١١٣/٧.

الأساس الثاني

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من الأسس المهمة التي قامت عليها دعوة المرابطين مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو مبدأ إسلامي عظيم، متفق على وجوبه بين المسلمين، ولم يخالف في ذلك إلا طائفة من الرافضة، الذين يقولون بعدم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بوجود الإمام الذي ينتظرونه.

قال النووي: وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو أيضاً من النصيحة التي في الدين، ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة، ولا يعتد بخلافهم..»(١).

وقد تجاهل ابن حزم هذا الخلاف، فلم يذكره حيث قال: اتفقت الأمة كلها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف من أحد

١) شرح صحيح مسلم ٢/٢٢.

فيها»(١).

ويقول القاضي عبد الجبار : لا خلاف في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنما الخلاف في أن ذلك هل يعلم عقلا أو لا يعلم إلا سمعاً(٢).

وقد دل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة والإجماع ، فمن القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾(٣).
قال الشوكاني : وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها»(٤).

وذكر ابن كثير أن المقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد من الأمة ، بحسبه ، كما ثبت في صحيح مسلم(٥).

---

١) الفصل في الملل والنحل ١٩/٥.
٢) شرح الأصول الخمسة : ص ١٤٢.
٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٤.
٤) فتح القدير ٣٦٩/١ وراجع : تفسير الطبري : جامع البيان عن تأويل القرآن ٣٨/٤ ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٦٥/٤.
٥) تفسير ابن كثير ٣٩٠/١.

ومن السنة التي تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قوله ﷺ : [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، ذكل أضعف الإيمان](١).

وقذ ذكر الله عز وجل خيرية هذه الأمة على الأمم الأخرى ، وقرن ذلك باتصافها بأداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بعد الإيمان بالله تعالى ، حيث قال في كتابه العزيز ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾(٢).

قال الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية : خير أمة ما أقاموا على ذلك واتصفوا به ، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زال عنهم ذلك(٣).

وعلى كل حال ، فإن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، من المبادىء الإسلامية المهمة ، وهو أصل عظيم من أصول الإسلام ، وواجب من واجباته ، وبالقيام به تحمل الناس على السير في طريق الحق ، فتقل المفاسد ، وتسود المثل العليا الرفيعة.

---

١) صحيح مسلم بشرح النووي ٢/٢٢-٢٥ ، والمنذري مختصر صحيح مسلم ص ١٦ ، تحقيق الألباني ، الطبعة الخامسة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ١٤٠٥هـ.

٢) سورة آل عمران ، الآية : ١١٠.

٣) فتح القدير ١/٣٧١ ، وراجع تفسير الطبري : جامع البيان عن تأويل القرآن ٤/٤٣-٤٦ ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٤/١٧٠-١٧٢ ، وتفسير ابن كثير ١/٣٩١.

وكان فقهاء المالكية في المغرب الإسلامي - على ما تذكر المصادر - أهل جرأة في بيان الحق ، ومن أكثر الناس أداءاً لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد تجاوز ذلك عامة الناس إلى الأمراء ، فكانوا يقولون كلمة الحق أمامهم لا يخشون في ذلك لومة لائم(١).

فقد تمثل المالكيون قول الإمام مالك - رحمه الله - حق على كل مسلم أو رجل ، جعل الله في صدره شيئاً من العلم والفقه أن يدخل إلى كل ذي سلطان يأمره بالخير ، وينهاه عن الشر ، ويعظه حتى يتبين لأن العالم إنما يدخل على السلطان بذلك فإذا كان فهو الفضل الذي ما بعده فضل(٢).

لقد اضطلع فقهاء المالكية في المغرب والقيروان ، بهذا الأمر بعدما ظهر لهم انحراف الناس عن جادة الحق ، وانحراف الأمراء إلى غير إصلاح أحوال المجتمع ، فقاموا بواجبهم في الأمر بالمعروف

---

١) ذكر القاضي عياض أمثلة كثيرة تدل على أن فقهاء المالكية في المغرب والقيروان كانوا لا يهابون الأمراء في بيان الحق ، ولا يخشون في ذلك لومة لائم ، ومن ذلك قوله : لما قام امنصور علي بن الأغلب ودنا من القيروان ، خرج إليه أسد بن الفرات ، وأبو محرز وهما قاضيان ، فكان من قوله لهما : أخرجا معنا أما تعلمان أن هذا ظلم المسلمين؟ فقال أسد : قد كنتم أعواناً له وأنتم وهو على مثل هذه الحال.. ترتيب المدارك ٣٠٨/٣ تقديم أحمد بركاش ، وعبدالقادر الصحراوي ، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ١٣٨٨هـ.

٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٧.

والنهي عن المنكر ، وشنوا على المفاسد والمناكر حرباً لا هوادة فيها ، وضيقوا على أهلها في ملاهيهم ، وحاربوا أصحاب العقائد الضالة(١).

وكان عبدالله بن ياسين يترسم خطى فقهاء القيروان وغيرهم من فقهاء المالكية في المغرب ، فلم يقنع بتعليم الناس وتثقيفهم في دينهم ، بل أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وإذا كان فقهاء القيروان قد قاموا بمحاولات فردية في هذا السبيل(٢) فإن عبدالله بن ياسين أسس دولة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، سخرت سيوفها لتقويض صرح الباطل ، وتطهير المجتمع من أدرانه ومفاسده.

وتتفق المصادر والمراجع على أن عبدالله بن ياسين كان من أكثر علماء المسلمين قياماً بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويشير القاضي عياض لذلك بقوله:

---

١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٦٠/٤ ، تحقيق عبدالقادر الصحراوي ، الطبعة الثانية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ١٤٠٣هـ وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٧١.

٢) ذكر القاضي عياض : أن سحنون بن سعيد التنوخي كان يؤدب الناس على الأيمان التي لا تجوز ، من الطلاق ، والعتق حتى لا يحلفوا بغير الله عز وجل ، ويؤدبهم على سوء الحال ، وما نهى عنه ، ويأمرهم بحسن السيرة والقصد ، ويقيم الحدود في الجامع ، ويضرب بالدرة على القفا ، وقيد امرأة كانت تتهم بسوء حال حتى ثبتت عنده توبتها ، وضرب أخرى بين قوم صالحين ، وكان يجمع الصوفية من البوادي ، فيجتمع اليه منهم نحو ألف يختار مائة قوية منهم يستعين بها على رد المظالم ، راجع ترتيب المدارك ٥٩/٤ ، ٦١، ٦٧.

«كان موصوفاً بالعلم وخبر أخذ من الشدة في ذات الله تعالى وتغيير المناكير وإنذار الناس(١).

ويقول الدكتور حسن أحمد محمود : واستطاع ذلك الفقيه المتواضع - يعني عبدالله بن ياسين - أن يخلق جيلا من المحاربين الأشداء ، يتعصبون لفكرته ، ويخفون إلى نصرته ، ويبايعون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(٢).

ونستطيع أن نقرر أن من المبادىء الأساسية التي نادى بها عبدالله بن ياسين وطبقها في واقعه ومضى شهيداً في سبيلها ؛ مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد باشر هذا المبدأ الإسلامي العظيم في أول يوم بعد قدومه على الملثمين في مسيرة الإصلاح التي قادها ، وكانت بداية بالأمير نفسه ، حيث علم أن له تسع زوجات حرائر ، فأخبره بأن دين الإسلام لا يبيح الجمع بين أكثر من أربع حرائر ، فاستجاب الأمير له ، وفعل مثل ذلك مع بقية أمراء صنهاجة(٣).

---

١) المصدر السابق نفسه ٨١/٨.

٢) قيام دولة المرابطين ص ١٧٢.

٣) راجع : ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب ص ١٢٤ ، ورشود محمد السلمي : شعر الزهد في عصر المرابطين والموحدين ص ٢٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، قسم الدراسات العليا ، شعبة الأدب والبلاغة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٤١٠هـ.

وتتابعت مسيرة الاصلاح على هذا المبدأ ، فكان حرباً على البدع والفساد ، والإثم ، لا تكاد عصبته تطأ أرضاً حتى تغير المنكر ، وتقطع المزامير وتريق الخمور(١).

وقد كون تلاميذه على هذا المبدأ وعودهم عليه ، حتى صاروا مجتمعاً يسود فيه التقوى والصلاح ، لا تأخذهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لومة لائم(٢).

وإذا كانت أحكام الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تقتضي ألا يؤخذ مال مسلم بغير حق ، ولا يضرب ظهره بغير حق(٣) ، لأن ذلك إثم وعدوان ، محرم لقول النبي ﷺ [إن دماءكم وأموالكم وأبشاركم وأعراضكم حرام عليكم](٤).

أقول .. إذا كانت أحكام الإسلام قد قضت بذلك ، فإن عبدالله بن ياسين كان عادلا ، عفيفاً لا يتجاوز الحدود التي رسمتها الشريعة الإسلامية ، فلم يهتك حريماً ، ولم يأخذ مالا بغير حق ، وكذلك تلاميذه من بعده(٥).

---

١) الأنيس المطرب المصدر السابق ص ٧١ ، وابراهيم الجمل : المرجع السابق ص ٧٢-٧٣.

٢) المرجع السابق نفسه ص ٨٥ ، ورشود محمد السلمي : المرجع السابق ص ٢٨.

٣) ابن حزم ، الفصل : ٢٤/٥.

٤) صحيح البخاري مع الفتح ٢٦/١٣.

٥) راجع ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧٦/٨ ، وحسن أحمد محمد : قيام دولة المرابطين ص ١٧٣.

بل على العكس من ذلك ، فقد اشتهر عنهم الزهد في الدنيا ، والخوف من الله عز وجل ، والعدل ، والإنصاف ، والتحلي بالحكمة والموعظة الحسنة ، والتواضع ، والسلوك الإسلامي المثالي أثناء مسيرة الإصلاح التي نجحوا فيها(١).

والواقع أن عبدالله بن ياسين - رحمه الله - قد توفرت فيه صفات الداعية الناجح ، وبذلك استطاع أن يحول الملثمين إلى دعاة سلفيين ، متفانين في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ونصرة السنة ، ومحاربة من حاد عن جادتها.

---

١) راجع ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ٢٦ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٦٥ ، وإبراهيم الجمل : المرجع السابق ص ١٢٩-١٣٠. وعصمت عبداللطيف : المرجع السابق ص ٧٩.

الأساس الثالث
الجهاد في سبيـــــل الله

مدخـــــل :

يعتبر الجهاد ركناً من أركان الدعوة الإسلامية ، وفرضاً من فروض الإسلام قال تعالى : ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾(١)..

قال الشوكاني عند تفسيره لهذه الآية : فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد ، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم ، والأغنياء بأموالهم ، وأنفسهم ، والجهاد من آكد الفراض ، وأعظمها ، وهو فرض كفاية ، مهما كان البعض يقوم بجهاد العدو ويدفعه ، فإن كان لا يقوم بالعدو إلا جميع المسلمين في قطر من الأرض ، أو أقطار ، وجب عليهم ذلك وجوب عين»(٢).

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على الجهاد ، وتبين فضله وأهميته ، منها قوله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا

---

١) سورة التوبة ، الآية : ٤١.

٢) فتح القدير ٣٦٣/٢ ، وراجع تفسير الطبري : جامع البيان عن تأويل القرآن ١٤٠/١٠ ، وتفسير ابن كثير ٣٥٩/٢ ، ٣٦٠ ، ٢٣٦/٣.

ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾(١).

يقول سيد قطب : إن الدخول في الإسلام صفقة بين متابعين الله تعالى هو المشترى ، والمؤمن فيها هو البائع ، فهي بيعة مع الله ، لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه ، ولا في ماله يحتجزه دون الله سبحانه ، ودون الجهاد في سبيله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وليكون الدين كله لله ، فقد باع المؤمن لله في تلك الصفقة نفسه ، وماله ، مقابل ثمن محدود معلوم هو الجنة ، وهو ثمن لا تعدله السلعة ولكنه فضل ومنة من الله»(٢).

كما وردت في القرآن الكريم آيات أخرى تهدد وتنذر من تثاقل عن الجهاد لما لذلك من عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة ، يقول تعالى: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير﴾(٣).

والخطاب في هذه الآية لقوم معينين في وقت معين ، ولكنه عام في مدلوله لكل ذي عقيدة في الله تعالى ، والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب

---

١) سورة التوبة ، الآية : ١١١.

٢) في ظلال القرآن ١٧١٣/٣-١٧١٤ ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ وراجع الطبري ، المصدر السابق : ٣٥/١١-٣٦.

٣) سورة التوبة ، الآية : ٣٩.

الآخرة وحدها ، فهو كذلك عذاب الدنيا(١).

لقد أخذ الجهاد منذ أن نزل الأمر به في القرآن الكريم(٢) يحتل في الإسلام مكاناً مرموقاً ، فكان المسلمون يرابطون في الثغور ويتسابقون إلى جهاد أعداء الإسلام ، من المشركين ، وأهل الكتاب ، والمرتدين ، ابتغاء مرضاة الله عز وجل ، وإعلاء لكلمته ، ونشراً لدينه.

وقد احتل الجهاد في المغرب الإسلامي مكاناً رفيعاً لأن المغرب كان من أكثر بلاد المسلمين تعرضاً لغارات الروم ، فقد كانت سواحله الطويلة مكشوفة للغزو في أي وقت ، وكانت أساطيل العدو لا تكف عن الإغارة على المدن الآمنة ، لذلك عني المسلمون في المغرب بمواقعة الروم أشد العناية ، واتخذوا الأهبة لرد عدوانهم ، فكانوا يفدون على الأندلس ، ويرحلون إلى الثغور للمرابطة ، والجهاد ، والمشاركة في دفع العدو ، ورده على أعقابه(٣).

---

١) سيد قطب ، في ظلال القرآن ١٦٥٥/٣ ، والطبري : جامع البيان عن تأويل القرآن ١٣٤/١٠-١٣٥ ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٤١/٨-١٤٢.

٢) قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ سورة البقرة الآية : ١٩٠ ، هذه الآية نزلت في الأمر بالقتال ولا خلاف في أن القتال كان محظوراً قبل هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ، وروي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن أول آية نزلت في القتال قوله تعالى : ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾ سورة الحج الآية : ٣٩ ، والأول أكثر ، راجع الجامع لأحكام القرآن ٣٤٧/٢ ، ٦٧/١٢-٦٨.

والدارس لتاريخ الدعوة الإسلامية في شمال وغرب إفريقيا ، لا يستطيع أن ينكر أو يتجاهل حركة الجهاد الناجحة التي قادها المرابطون ، فقد نشأت الدعوة المرابطية مقترنة برغبة جادة في رفع راية الإسلام ، وجهاد أعدائه ، وكان الجهاد في سبيل الله من أهم المبادئ التي تأسست عليها الدولة المرابطية ، واستمرت فيه طوال فترة حكمها القصير ، وسخرت طاقاتها ومواردها لهذا العمل الإسلامي العظيم.

يقول الدكتور حسن أحمد محمود : «من الغريب أن دولة المرابطين لم تضع السيف أبداً منذ قيامها حتى قدر لها أن تسقط ، فبعد أن تم الجهاد في المغرب انتقل الجهاد إلى الأندلس ، فكانت للجهاد ، وله عاشت ، وذهبت في سبيله»(١).

فقد كان الجهاد من أخص صفات المرابطين ، وكانوا يتسابقون إليه يبتغون به وجه الله - تعالى - وينالون به الشهادة ، وكانت لهم قوة ذات عزم لم تشهد إفريقيا من قبل أو من بعد قوة ذات عزم مثلها..(٢).

---

٣) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٦٦-١٦٧.

١) المرجع السابق نفسه : ١٦٨-١٦٩.

٢) إبراهيم الجمل : المرجع السابق ص ٧٨ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٨٠ ، وعصمت عبداللطيف : المرجع السابق ص ٧٩.

وقد ذكرنا قبل قليل أن عبدالله بن ياسين - رحمه الله - تمكن من تكوين جيل من الفقهاء السلفيين ، وحين بلغ عدد تلاميذه في الرباط ألف رجل من أشراف الملثمين ، وتم إعدادهم واستعدادهم لحمل مسؤولية الجهاد(١) قام فيهم خطيباً ، فوعظهم ، ودعاهم إلى الجهاد وقال:

«يا معشر المرابطين ، إنكم جمع كثير ، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى ، وهداكم إلى الصراط المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده»(٢).

فأجابوه على السمع والطاعة قائلين : أيها الشيخ المبارك : مرنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين ، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا(٣).
وهذه الاستجابة الكاملة تدل دلالة واضحة على أن المرابطين أصبحوا واثقين بشيخهم عبدالله بن ياسين - رحمه الله - ومستعدين للتضحية في تنفيذ أوامره.

---

١) راجع العبر ، المصدر السابق ١٨٣/٦ ، والدكتور السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٦٠٩-٦١٠ ، الناشر : مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، [د. ت].

٢) ابن أبي زرع : المصدر السابق ، ص ١٢٥ ، والسيد عبدالعزيز سالم ، المرجع السابق ص ٦١٠ وما بعدها.

٣) ابن أبي زرع : المصدر السابق ١٢٥ ، وابراهيم الجمل : المرجع السابق ص ٨٦.

وما أن سمع منهم هذا الاستعداد الكامل للجهاد من أجل إعلاء كلمة الله حتى بادر بقوله : اخرجوا على بركة الله ، وأنذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وبلغوهم حجته ، فإن تابوا ورجعوا إلى الحق ، وأقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم ، وإن أبوا عن ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم ، استعنا بالله تعالى عليهم ، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين»(١).

ولما سمع المرابطون هذا الكلام من شيخهم ، ذهب كل فريق إلى عشيرته يعظهم وينذرهم ، فلم ينتهوا عما هم فيه من ضلال ، ثم خرج عبدالله بن ياسين نفسه فجمع أشياخ القبائل ورؤساءهم ، وقرأ عليهم حجة الله ، ودعاهم إلى التوبة ، فلم يلتفتوا الى قومه ، ولم يزدادوا إلا فساداً وبعداً عن الحق(٢).

فلما يئس منهم قال لأصحابه : قد بلغنا الحجة ، وأنذرنا ، وقد وجب علينا الآن جهادهم ، فاغزوهم على بركة الله تعالى ، وجعل على قيادة

---

١) ابن أبي زرع : المصدر السابق ص ١٢٥ ، وعصمت عبداللطيف المرجع السابق ص ٧٥-٧٦.

٢) ابن الخطيب ، المصدر السابق ص ٢٢٧ ، وابن أبي زرع ، المصدر السابق ص ١٢٥-١٢٦ ، وعصمت عبداللطيف المرجع السابق ص ٧٦.

الجيش الأمير يحيى بن عمر(١) ، ولما قتل اختار أخاه أبا بكر(٢) ابن عمر، وظل هو بمنأى عن مباشرة القيادة ، ولكنه يوجه أصحابه التوجيه الإسلامي ، ويرسم لهم السياسة وفق أحكام الشريعة الإسلامية(٣).

وانطلق المرابطون في الجهاد وتوجهوا أولا إلى قبيلة جدالة فهزموها وقتلوا منها عدداً كثيراً ، وأسلم الباقون إسلاماً صحيحاً ، وحسن حالهم وأدوا ما يلزمهم فيما فرض الله عليهم ، وجاءت لمتونة منضاعة إلى الحق ، فبايعت على الكتاب والسنة ، وأذعنت مسوفة وبايعت على ما بايعت عليه لمتونة وجدالة(٤).

بعد أن بايعت هذه القبائل الثلاث وهي أهم قبائل الملثمين على الكتاب والسنة ، توجه المرابطون إلى القبائل الأخرى التي تسكن

---

١) هو أبو زكريا يحيى بن عمر أمير قبيلة لمتونة ، اشتهر بالورع والتقوى والاخلاص في الدعوة السلامية ، والانقياد لعبدالله بن ياسين ، وتنفيذ أوامره وتعاليمه سماه عبدالله بن ياسين ، أمير الحق ، استشهد في معركة فتح مدينة أودغست عام ٤٤٨هـ وقيل ٤٤٩هـ ، راجع ابن عذارى المراكشي ، المصدر السابق ٤/١٢-١٤ ، ومحمد عبدالله النقيرة ، المرجع السابق ص ١١١ ، وابراهيم الجمل : المرجع السابق ص ٨٧ ، ومعهد البحوث المرجع السابق ص ١٤، وعبدالله حميده ، المرجع السابق ص ١٨.

٢) ستأتي ترجمته قريباً

٣) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص ١٢٧ ، وعصمت عبداللطيف : المرجع السابق ص ٨٣ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٦٨.

٤) ابن أبي زرع ، المصدر السابق ص ١٢٦ ، والناصري الاستقصا ٢/١٠ ، وعبدالله حميده ، المرجع السابق ص ١٧.

الجبال الموالية للمتونة ، وكان كثير منهم على غير دين الإسلام ، وقد سبق أن بعث إليهم عبدالله بن ياسين بعوثاً وطلب منهم الدخول في الإسلام ، وأن يؤدوا ما فرض الله عليهم من الزكاة فامتنعوا وقتلوا مبعوثه ، فأمر بغزوهم ، واشتبك الطرفان ودارت معارك عنيفة بينهما ، وانتصر المرابطون فهزموا عدوهم ، وغنموا أمواله ، وسبوا نساءه ، وعادوا إلى بلادهم ، فأمرهم عبدالله بن ياسين بإعطاء الخمس(١) لأميرهم يحيى بن عمر(٢).

وكانت قسمة الغنائم طيلة عهد المرابطين وفق ما قضت به الشريعة الإسلامية(٣).

وبعد استشهاد الأمير يحيى بن عمر لم يتردد عبدالله بن ياسين في اختيار أخيه أبي بكر بن عمر(٤). ليحل محله في قيادة الجيش.

---

١) قال تعالى : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله﴾.. سورة الأنفال الآية : ٤١ ، قال القرطبي عند تفسيره لهذه الآية اختلف العلماء في كيفية قسم الخمس على أقوال ستة ، راجع الجامع لأحكام القرآن ٨/ ١٠-١١ ، والشوكاني في فتح القدير ٢/ ٣١٠.

٢) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ٤/١٢-١٣ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ٧٧.

٣) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٦٩ ، وحسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ٤/ ٢٨٧ ، وعن حكم الإسلام في قسمة الغنائم راجع القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣-٢٠ ، والشوكاني فتح القدير : ٢/ ٣٠٩ ، ٣١٣.

٤) هو الأمير أبو بكر بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني كان من أوائل المرابطين الذين صحبوا عبدالله بن ياسين إلى رباطه ، وكان رجلا صالحاً ورعاً منفذاً لتعاليم عبدالله بن ياسين ، مطيعاً لأوامره ، شارك في الدعوة منذ بدايتها ، وكانت له جهود كبيرة في نشر الإسلام ، والقضاء

وقد عرف عن عبدالله بن ياسين إعجابه بقبيلة لمتونة ، ولعل ذلك يعود إلى ما اشتهروا به من إخلاص في الدعوة الإسلامية ، وبلاء في الجهاد ، فقد عمل عبدالله بن ياسين على أخذ البيعة من القبائل لأبي بكر بن عمر ، فتوجه إلى سجلماسة ، وأخذ له البيعة من أهاليها ، فوعظهم وخطب فيهم قائلا : اتقوا الله ، وارتدوا عما أنتم عليه من فتنتكم وقدموا على أنفسكم منيؤلفكم ، ثم عرض عليهم البيعة لأبي بكر بن عمر بقوله : هذا أمير لمتونة الصحراء أهل الزهد والورع ، فوافقوا عليه ، وأخذ عليهم العهد والمواثيق بالبيعة له(١).

وبعد أن تمت البيعة لأبي بكر بن عمر ازداد نفوذ المرابطين ، وقويت شوكتهم لأن القبائل توحدت تحت لوائهم ، عن طواعية منها حين أخذ عبدالله بن ياسين البيعة منها لتلميذه أبي بكر بن عمر ، وبذلك أصبح المرابطون يشكلون قوة إسلامية سلفية ذات شوكة تحارب أهل الضلال والفساد ، حرباً لا هوادة فيها.

وتوالت انتصاراتهم ، واستمروا في زحفهم المظفر إلى أن تم نشر

على عنصر الفتنة والضلال.. ابن الخطيب المصدر السابق ص ١٢٢ ، وابن أبي زرع : المصدر السابق ص ١٢٨ ، وعصمت عبداللطيف المرجع السابق ص ٩٥.

١) ابن عذارى : المصدر السابق ٤/١٤ ، ١٥ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ٨٤.

الإسلام الخالي من البدع والشوائب في المنطقة كلها(١).
فقاموا بالقضاء على الفرق الضالة ، التي كانت منتشرة في البلاد حينذاك ، مثل قبائل غمارة ، التي كانت الإباحية فيها مطلقة ، وقد تنبأ فيهم رجل يعرف بحاميم بن من الله ، ويلقب بالمفتري ، وأقر كثير من غمارة بنبوته ، ووضع لهم شريعة وقرآنا باللغة بالبربرية ، وتفشت ضلالاته في قبائل غمارة ، واستمرت فيها حتى قضى عليها المرابطون»(٢).

وقبائل برغواطة التي كانت تدين بمذهب لا تمت تعاليمه إلى الإسلام بصلة ، أسسه رجل يهودي الأصل ، يدعى صالح بن طريف البرغواطي(٣).
وكان البرغواطيون متأصلون في الضلال ، وقد عاثوا إفساداً في المنطقة ، وكان صالح بن طريف عارفاً بعلم السحر ، وقد استطاع أن يستميل الناس بسحره ، وأظهر لهم الإسلام ، والورع ، والزهد ، فأخذ بعقولهم ، ثم ادعى النبوة ووضع لهم تشريعاً مناقضاً للإسلام ، وأمرهم أن يقروا بنبوته ، ويصوموا شهر رجب ، ويتركوا صيام شهر رمضان ، وفرض عليهم عشر صلوات خمس بالليل وخمس بالنهار ، وأوجب الأضحية ، وجعل وقتها في الحادي والعشرين من محرم ، ووضع لهم قرآنا ، وزعم أنه وحي من الله عز

---

١) ابن أبي زرع : المصدر السابق ص ١٢٩ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، وحسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ١١٨/٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨.
٢) أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٧٧-٢٧٨.
٣) نسبة إلى برباط وهو حصن من أعمال شذونة بالأندلس ، راجع ابن أبي زرع المصدر السابق ص ١٣٠.

وجل نزل عليه ومن شك في شيء من ذلك فهو كافر(١).

وقد اشتبك المرابطون مع هذه الفرقة الضالة ، واستمروا في جهادها حتى قضوا على آخر ملوكهم الحاجب البرغواطي ضياء الدولة صاحب سبتة وطنجة ، فأذعنوا بالطاعة وأسلموا إسلاماً جديداً صحيحاً ولم يبق لديانتهم أثر إلى اليوم(٢).

وقد قدر لشيخ المرابطين عبدالله بن ياسين - رحمه الله - أن يرزق الشهادة في المعارك الضارية التي دارت بين المرابطين والبرغواطيين ، حيث أصيب بجراح شديدة توفي على أثرها عام ٤٥١هـ ودفن بموضع يعرف بكريفة ، على مقربة من مدينة الرباط(٣)، العاصمة الحالية للمملكة المغربية.

---

١) المصدر السابق نفسه ص ١٣٠-١٣١ ، وأحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٨-٢٨٧ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢١١-٢١٢ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ٨٨-٨٩.

٢) ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ١٦/٤ ، وابن أبي زرع : المصدر السابق ص ١٣٣ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢١٣ ، وأحمدمختار العبادي : المرجع السابق ص ٢٨٦.

٣) ابن أبي زرع : المصدر السابق ص ٢٣٢ ، والقاضي عياض : ترتيب المدارك ٨٣/٨ ، تحقيق سعيد أحمد اعراب طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، ١٤٠٣هـ وحسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ٢٨٩/٤ ، والجدير بالذكر أن المرابطين بعد استشهاد إمامهم عبدالله بن ياسين بايعوا بالإمامة لأبي بكر بن عمر فجمع بذلك بين القيادة الدينية والقيادة العسكرية.. راجع معهد البحوث ، المرجع السابق ، ص ١٤ ، وعصمت عبداللطيف المرجع السابق ص ٩٧.

وبعد أن أذعن البرغواطيون للإسلام ، توجه المرابطون إلى مدينة تاردانت ببلاد السوس الأقصى ، لجهاد طائفة من الشيعة الروافض يقال لهم البجلية ، نسبة إلى علي بن عبدالله البجلي الرافضي ، قدموا إلى السوس الأقصى في عهد عبيدالله المهدى الإسماعيلي ، مؤسس الدولة العبيدية في عام ٢٩٧هـ(١) ، ونشروا مذهبهم في المغرب وتوارثوه جيلا بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، ولا يرون الحق إلا في أيديهم ، وقد دخل المرابطون مدينة تاردانت ، وقضوا على بدع الروافض ، ورجع الناس إلى مذهب أهل السنة والجماعة(٢).

وبعد نجاح المرابطين في القضاء على الفرق الضالة ، رسخت أقدامهم في المنطقة فاتجهوا إلى إقامة دولة منظمة ذات هياكل ثابتة ، ولها عاصمة تكون مقراً للسلطة المركزية ، فأمر أبو بكر بن عمر ببناء مدينة مراكش عام ٤٦٢هـ لتكون عاصمة للدولة المرابطية ، ثم تطلع لفتح الممالك

---

١) عن عبيدالله المهدي والخلاف في نسبه وابتداء الدولة العبيدية [أو الفاطمية] راجع ابن خلدون : العبر ٣١/٤-٤٠ ، وابن قيم الجوزية : المنار المنيف ص ١٤٢ ، والدكتور أحمد محمد جلي : دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين : الخوارج والشيعة ص ٢٦٩ ، ٢٧١-٢٧٢ ، الطبعة الثالثة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ١٤٠٨هـ.

٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٢٩ ، وابن خلدون : العبر ١٨٣/٦ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢١٠-٢١١ ، وحسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ٢٨٨/٤ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٦٣.

الزنجية الوثنية المجاورة بالجنوب ، واستخلف يوسف بن تاشفين(١) على حكم البلاد بعده ، وترك له بعض الجيش ، وسار هو بالبعض الآخر للجهاد في الجنوب(٢).

ولدى عودته وجد أن يوسف بن تاشفين حريص على البقاء في الحكم ، فسلم له الأمر(٣) حقناً للدماء ، وخوفاً من عوامل الفرقة في وقت بدأت فيه معالم الدعوة المرابطية تتجدد ، وتؤتي ثمارها ، وتفانياً في نكران الذات ، ورفعاً لمصلحة الدعوة الإسلامية ، فوق كل الاعتبار.

لذلك كله تجنب أبو بكر بن عمر الخلاف وعاد للمرة الثانية من حيث أتى ، وظل يصارع الوثنية ، وعبادة الأصنام ، وينشر عقيدة الإسلام ومبادئه حتى أدرك الشهادة على أيدي الزنوج الوثنيين بسهم مسموم طعنوه به عام

---

١) هو أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني أمير المسلمين كان رجلا ديناً خيراً حازماً داهية ، مؤثراً للجهاد ، قمع النصارى ، ورفع راية الإسلام ، على أرض الأندلس ، بعدما كادت تسقط على أيدي النصارى الحاقدين على الإسلام وأهله ، ويعد أول ملك مغربي كون جيشاً قوياً تتمثل فيه جميع القبائل المغربية ، توفي عام ٥٠٠هـ على الراجح ، وقيل ٤٩٣هـ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١١٢/٧-١١٣ ، وابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٣٦-١٣٧ ، وعبدالواحد المراكشي : المعجب ص ١٧٠ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧٥/٨-٧٦ ، وحسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ١١٨/٤-١١٩.

٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ٢٣/٤ - ٢٤ ، وابن خلدون : العبر ١٨٤/٦ ، وأحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٠٣.

٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٣/٤-٢٤ ، ومعهد البحوث ، المرجع السابق ص ١٤.

٤٦٨هـ(١) ، ودفن في تكانت بمكان يسمى [المقاسم](٢).

والجدير بالذكر هنا أن أبا بكر ابن عمر - رحمه الله - لم يوافه الأجل المحتوم إلا بعد أن استقام له الأمر في الصحراء كافة ، واستولى على نحو تسعين رحلة من بلاد السودان(٣).

وإذا كان أبو بكر بن عمر - كما رأينا - قد باع نفسه لله تعالى وطبّق المبدأ الإسلامي في الحفاظ على وحدة كلمة المسلمين ، وسن للمرابطين سنة حسنة ، ونفذ وصية شيخه عبدالله بن ياسين ، رحمه الله - التي أوصى بها المرابطين عندما أحس بدنو أجله حيث قال:

«يا معشر المرابطين : إني ميت في يومي هذا لا محالة ، وإنكم في بلاد عدوكم فإياكم أن تجبنوا ، وتتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم وكونوا أعواناً على الحق ، وإخواناً في ذات الله عز وجل ، وإياكم والتحاسد على الرياسة ، فإن الله يؤتي ملكه من يشاء من خلقه ، ويستخلف في أرضه من

---

١) ابن عذارى : البيان المغرب ٢٦/٤ ، ويرى بعض المؤرخين ومنهم ابن خلدون : أن وفاته في عام ٤٨٠هـ راجع ابن خلدون : العبر ١٨٤/٦ ، ومحمد عبدالله النقيرة ، المرجع السابق ص ١١٣.

٢) باب بن الشيخ سيدي ، تاريخ ص ٧ ، وأحمد مختار العبادي في تاريخ المغرب والأندلس : ص ٣٠٥ ، هذا وتجدر الإشارة إلى أن المقاسم : تبعد نحو خمسة وخمسين كيلا عن مدينة تجكجه ، عاصمة ولاية تكانت وهي الولاية التاسعة من ولايات موريتانيا الاثنتي عشرة ، راجع دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ، المرجع السابق ص ١١٥ ، وقد جئت إلى هذه البلاد وزرت قبر أبي بكر بن عمر رحمه الله.

٣) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٣٢ ، وحسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ٢٨٩/٤.

أراد من عباده(١).

أقول : إذا كان هذا هو موقف أبي بكر بن عمر ، وهو موقف مثالي فإن موقف يوسف بن تاشفين يعتبر موقفاً طيباً أيضاً حيث إنه لم يغير في وحدة كلمة المسلمين ، ذلك إنه لما تركه أبو بكر بن عمر على ولاية المغرب لم يغير شيئاً في وحدة الدولة المرابطية ، وظل تابعاً لأبي بكر بن عمر نائباً عنه على حكم المغرب ، ولم يعتبر نفسه هو الحاكم الشرعي إلا بعد وفاة أبي بكر بن عمر(٢).

وكان ذلك منه وفاء للعهد الذي قطعه على نفسه عندما كان يودع أبا بكر بن عمر في ذهابه الأخير للجهاد في بلاد الزنوج الوثنيين حين قال له : لك علي أن لا أقطع أمراً دونك ولا أستأثر إن شاء الله تعالى بشيء عليك(٣).
وكان يوسف بن تاشفين صادقاً في عهده هذا ، فقد ظل تابعاً لأبي بكر بن عمر وثيق الصلة به ، ويمده بالأموال والسلاح(٤).

وبعد استشهاد أبي بكر بن عمر أصبح يوسف بن تاشفين هو الحاكم الشرعي للدولة المرابطية ، ويعتبره كثير من الباحثين هو المؤسس

---

١) المرجع السابق نفس الصفحة.
٢) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٠٥.
٣) ابن عذارى : البيان المغرب ٢٥/٤.
٤) المصدر السابق نفسه ٢٦/٤.

الحقيقي لهذه الدولة ، لأنه هو الذي نظمها ووطد أركانها وأعطاها كياناً دولياً ثابتاً(١).

وقد عمل يوسف بن تاشفين على إتمام توحيد بلاد المغرب ، وإخضاعها للمنهج الإسلامي عقيدة وشريعة ، وتابع نشاطه حتى ضم مدينة تلمسان والجزائر ، وسارت جيوشه حتى فتحت مدينة سبتة ونواحيها(٢).
وبذلك انتظمت المغرب كلها في سلك المرابطين ، وصارت تتمتع بوحدة قوية ، قائمة على العقيدة السلفية ، وتطبيق الشريعة الإسلامية(٣).

ولم يكتف المرابطون بتوحيد بلاد المغرب ، وتثبيت دعائم الاسلام فيها ، بل إنهم تجاوزا ذلك ، وأنقذوا الأندلس من خطر النصارى ، فقد عظم البلاء على المسلمين في الأندلس ، من قبل النصارى ، فاستنجد المعتمد بن عباد وهو أعظم أمراء الأندلس ، بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، رحمه الله - فرد عليه بقوله : أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ، ولا يتولى

---

١) راجع على سبيل المثال : معهد البحوث المرجع السابق ص ١٥ ، وأحمد مختار العبادي : المرجع السابق ص ٣٠٥ ، وعبدالله حميده ، المرجع السابق ص ١٨.

٢) راجع الأنيس المطرب ، المصدر السابق ص ١٣٨ ، ١٦٨ ، وابن عذارى : البيان المغرب ٢٩/٤.

٣) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٤٠-١٤٣ ، وأحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٠٦ ، والنشار : مقدمة كتاب السياسة أو الاثارة في تدبير الإمارة لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي ص ٦.

هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي(١). واستنفر قواده ، وأعيان جنده ، ووجهاء القبائل ، وجهز جيشاً جراراً قاده بنفسه ودخل به الأندلس ، من مدينة سبتة(٢).

واشتبك مع النصارى بقيادة الفونسو السادس ، وكانت موقعة الزلاقة حاسمة حيث انهزم النصارى تماماً وتحطمت مقاومتهم(٣) وعز الإسلام وأهله في الأندلس بعد ذل وهوان ، وظهر يوسف بن تاشفين قائداً شجاعاً قوي الايمان بالله عز وجل(٤).

والجدير بالذكر أن جهاد المرابطين كان هدفه نشر العقيدة السلفية ورفع راية الإسلام ، وتثبيت مبادئه في النفوس ، ولم يكن غزواً سياسياً يرمي إلى التوسع الأقليمي وبسط سلطان المرابطين السياسي ، وإنما كان

---

١) عبدالواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٣٠-١٣١ ، وابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٤٤.

٢) المصدر السابق نفسه ص ١٣١ ، وابن عذارى ، المصدر السابق ٣٤/٤-٣٥.

٣) هكذا أجاب يوسف بن تاشفين نداء الجهاد وأحرز هذا النصر في موقعة [الزلاقة] التي تعد من المواقع الحاسمة في التاريخ ، وأعاد للإسلام عزته في بلاد الأندلس أربعة قرون أخرى ، النشار : مقدمة كتاب السياسة ، المرجع السابق ص ٢٣ ، وسلامة الهدف دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ص ٣٠٧ ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ١٤٠٥هـ.

٤) المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٣٤-١٣٥ ، وابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٦٩ ، وحسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام : ١٢٢/٤ ، والنشار : مقدمة كتاب السياسة ص ٦ ، وأحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٦٦.

جهاداً في سبيل الله ، ونصرة دينه ، وإعلاء كلمته(١)ولهذا ظل انطلاقهم في الجهاد صفحة مشرقة في تاريخ الدعوة الإسلامية في شمال وغرب إفريقيا ، وموضع تقدير من علماء المسلمين قديماً وحديثاً(٢).

---

١) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ٢٨٧/٤ ، وأحمد مختار العبادي في تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٥-٢٧٦.

٢) راجع مقدمة النشار لكتاب السياسة لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي ص ٢٦ ، وقد ظل انطلاق دولة المرابطين من صحرائهم هو أبرز المآثر التاريخية لموريتانيا حيث شيدت هذه القبائل أبرز دولة إسلامية سلفية في تاريخ المنطقة ، امتد سلطانها من السودان جنوباً إلى جبال البرانس شمالاً ، ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى حدود تونس شرقاً ، ويعتبر بعض المؤرخين يوسف بن تاشفين هو أعظم حكام المسلمين في عصره.. راجع تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي ، المرجع السابق ١٩/٤ ، ومعهد البحوث ، المرجع السابق ص ١٥ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ١٢٧-١٢٨ ، وسلامة الهدف ، المرجع السابق ص ٥٧.

الأساس الرابع
العدالة الإقتصادية

لقد كان من مبادئ الإصلاح التي ركز عليها المرابطون واعتبروها من أهم أسس دولتهم، وكانت لها نتائج طيبة في نشر العقيدة السلفية وسيادتها، وإرساء قواعد الإسلام، وتثبيتها في النفوس، هي العدالة الإقتصادية.. ورفع المظالم القائمة في المنطقة، وإقامة نظام اقتصادي منبثق من صميم التعاليم الإسلامية، يضمن للناس الأمن والطمأنينة على ممتلكاتهم، وهذا شيء له أهمية بالغة في نظام الدولة الإسلامية.

ولذلك فإن الله تعالى أوجب العدل وأمر به، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وذلك في قوله عز وجل ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾(١).

وقد جاء في الكتاب والسنة، النهي عن أكل أموال الناس بالباطل

---

١) سورة النحل: الآية ٩٠.

وتحريمه ، يقول تعالى : ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾(١).
قال الشوكاني عند هذه الآية : هذا يعم جميع الأمة ، وجميع الأموال لا يخرج عن ذلك إلا ما ورد الدليل الشرعي بجواز أخذه»(٢).
وقد تقدم قوله ﷺ [إن دماءكم وأموالكم وأبشاركم وأعراضكم حرام عليكم](٣).

ثم إن البلاد آنذاك كانت في أمس الحاجة إلى إعطاء أهمية خاصة للعدالة الإقتصادية ، فقد كانت الأحوال مضطربة ، والناس ينوءون من الضرائب الظالمة التي فرضها حكام الجور ، واتخذوا لها عدة تسميات ، من مكوس ، إلى معونة ، إلى خراج ، إلى تقسيط ، إلى رسوم..(٤).

فكان واجب المرابطين الذين يحملون رسالة الإسلام ومبادئه أن يرفعوا هذه المغارم الجائرة ، ويستبدلوها بنظام اقتصادي إسلامي ، وهذا ما تم ، فقد أعطوا الناس من كل ضريبة لا يبيحها الإسلام ، واكتفوا

---

١) سورة البقرة : الآية ١٨٨.

٢) فتح القدير ١٨٨/١ ، وراجع تفسير الطبري : جامع البيان عن تأويل القرآن ١١٣/٢ ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٣٣٧/٢-٣٣٩.

٣) تقدم تخريجه في هذا الفصل

٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٢٨ ، ١٦٧ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧٥/٨ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٧٤.

بالزكاة والأعشار(١).

وقد ظلت الدولة المرابطية طيلة عهدها قائمة على نظام اقتصادي إسلامي خالص ، فلم يطلب المرابطون من رعيتهم رسوماً ولا مكوساً ، ولا معونة ، ولا خراجاً ، ولا تقسيطاً ، ولا غير ذلك من الضرائب الظالمة التي كانت سائدة في المنطقة ، وبدلا من ذلك كله ، اقتصرت موارد بيت المال على الزكاة ، والأعشار ، وجزية أهل الذمة ، وأخماس الغنائم(٢).

وكان لهذا النظام الاقتصادي الإسلامي أثر طيب على سمعة المرابطين واقتصاد البلاد ، فعم الرخاء ، وامتلأت خزانة بيت المال ، بما جعلها قادرة على تحمل نفقات الجهاد الذي عاشت دولة المرابطين عمرها كله فيه(٣).

وقد عف المرابطون عن الأموال التي حصلت في خزانة الدولة من

---

١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٢٩ ، ومحمد عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب ٥١/١ ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٠٩.

٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ١٣٧ ، وابراهيم الجمل : الإمام عبدالله بن يوسف ص ١٣٢ ، ومحمد عبدالله عنان ، عصر المرابطين والموحدين ٥١/١ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٧٤-١٧٥ ، وسلامة الهدف : دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ص ٢٩٣.

٣) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٣٧ ، وابراهيم الجمل ، المرجع السابق ص ١٣٣.

موارد بيت المال الشرعية ، وصرفوها في مصالح الدعوة الإسلامية ، والنفقات على الجيش ، وشراء الأسلحة ، وكان لهذه الإصلاحات أثر بعيد المدى في تاريخ الدولة المرابطية حيث أدرك الناس أن المرابطين أصحاب رسالة إسلامية لا يريدون جاهاً ، ولا مالا ، وإنما يريدون رضى الله تعالى ، ويحملون رسالة الإسلام ، ويبتغون الإصلاح ، وإنقاذ الناس مما تردوا فيه من فساد(١).

ولذلك رغب فيهم الناس وأحبوهم ، فقد وردت عليهم المخاطبات من فقهاء سجلماسة ، ودرعة ، يستدعونهم ويطلبون منهم إقامة العدل ورفع ما ارتكبه أمراء زناتة من الظلم والجور(٢).
كما أن أمراء الأندلس وفقهاءها كاتبوهم يستنجدون بهم أيضاً ويطلبون منهم إنقاذ المسلمين في الأندلس مما تردوا فيه(٣).

والحقيقة أن المسلمين في شمال إفريقيا والأندلس آمنوا بعدالة المرابطين وإخلاصهم في الدعوة لما شاهدوا فيهم من رفع راية الإسلام ، وإغاثة الملهوف ، وحماية الضعيف ، ورفع الظلم ، والألحاد عنه ، وإسقاط

---

١) محمد عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين ١/٥١-٥٢ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٧٥.

٢) ابن عذارى المراكشي : المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ١٣/٤ ، وعصمت عبداللطيف : المرجع السابق ص ٧٩.

٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١١٤/٧ ، وابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٥٢.

المغارم التي لا تقرها الشريعة الإسلامية ، وإرساء قواعد الأمن والعدالة ، والطمأنينية بتطبيق الشريعة الإسلامية ، في كافة مجالات الحياة ، ومن بركة تطبيق الشريعة الإسلامية عم الخير وازدهرت الحياة في أرجاء هذه الدولة المترامية الأطراف ، وأحب الناس المرابطين وصارت دعوتهم محل ترحيب في كل بلد حلوا فيه(١).

---

١) راجع الأنيس المطرب المصدر السابق ص ١٤٥ ، ١٥٧ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ٧٦/٨ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٧٥ ، وعصمت عبداللطيف : دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ص ١٤١.

الفصل الثالث

منهج المرابطين العقدي والرد على تهم ابن تومرت

وفيه تمهيد ومبحثان:

تمهيد : السلفية قبل قيام دولة المرابطين.

المبحث الأول : منهج المرابطين العقدي.

المبحث الثاني : تهم ابن تومرت للمرابطين والرد عليها.

○○○

تمهيـــــــد

السلفية قبل قيام دولة المرابطين

لعل مما يجدر ذكره هنا قبل بيان منهج المرابطين العقدي ، هو أن بلاد المغرب الإسلامي - بفضل الله تعالى - قد تميزت بطابعها السني السلفي في عصورها الأولى ، إذا ما استثنينا الثورات الخارجية [نسبة إلى الخوارج] التي اندلعت في القرن الثاني للهجرة(١) ، والحركة

١) دخل الخوارج في شمال إفريقيا في بداية القرن الثاني للهجرة ، واحتدم الصراع بينهم وبين أهل السنة ، من ناحية ، ومع الشيعة الروافض من ناحية أخرى ، وقاموا بثورات متتالية في المنطقة ، وبعض القضاء على ثورة أبي زيد مخلد بن كيراد ، وقلته عام ٣٣٦هـ ضعف شأن الخوارج في المغرب الإسلامي ، راجع عن ظروف هذه الثورات : ابن خلدون : العبر ٤/٤٠-٤٣ ، وأحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ص ٨٦-٨٧ ، والفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، المرجع السابق ص ١٤٠-١٥١.

الاعتزالية (١) والدعوة الشيعية(٢) ، وقبائل برغواطة ، وغمارة(٣) وهذه الحركات مرتبطة بأوضاع سياسية ، يتعذر شرحها هنا ، ولكن الرأي السائد عند الباحثين أنها رغم التباين الموجود بينها ، لم تكن لها جذور عميقة ، وممتدة في المجتمع المغربي المسلم(٤).

والمتتبع للمراحل التي مر بها الفكر الإسلامي بشمال إفريقيا ، يلاحظ أنه طبع بصفة عامة في عصوره الأولى ، نتيجة لاتباع المذهب المالكي بطابع الاتباع وعدم الابتداع(٥).

---

١) دخل مذهب المعتزلة إلى بلاد المغرب في أول القرن الثاني للهجرة ، وقد احتدم النزاع بين أهل السنة والمعتزلة في القيروان ، وخاصة في بداية القرن الثالث الهجري ، راجع القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣٠١/٣ ، ٣٠٢ ، ٦٠/٤ ، والدكتور السيد محمد أبو العز : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين ، الفصل الثاني من الباب الثاني ص ٢٥١ ، وما بعدها ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ١٤٠٥هـ.

٢) تقدم الكلام عن دخول الروافض لبلاد المغرب ، وكيف تم القضاء عليهم ، راجع الفصل الثاني

٣) تقدم الكلام عن البرغواطيين وقبائل غمارة ، وكيف ومتى تم القضاء على ضلالاتهم ، راجع المبحث الثاني من الفصل الثاني.

٤) سعد غراب : المذهب المالكي عنصر إئتلاف في المغرب الإسلامي ، ص ٢٣٦ ، ومحمد السليماني : مقدمة قانون التأويل ص ٣٧.

٥) راجع القاضي عياض : ترتيب المدارك ، باب اتباعه - أي الإمام مالك - السنن وكراهية المحدثات ٣٨/٢.

وقد تأسى المالكية بإمامهم في كراهية البدع، والمحدثات، وإنكارها يقول القرافي: اعلم أن الأصحاب متفقون على إنكار البدع، نص على ذلك ابن ابي زيد، وغيره(١).

وأورد الشاطبي هذا النص وعلق عليه بقوله: وما ذكره القرافي عن الأصحاب من الاتفاق على إنكار البدع صحيح(٢).

فأهل المغرب المالكيون قبل ظهور دعوة ابن تومرت(٣) كان أغلبهم يدين الله على مذهب السلف في الاعتقاد بظواهر نصوص الكتاب، والسنة، والإيمان بالصفات الواردة فيها على الوجه اللائق بالله عز وجل، من غير تشبيه، ولا تكييف، ولا تعطيل، ولا تجريب، ولا تأويل، وذلك هو المذهب الذي تمسك به، ودافع عنه إمامهم - مالك رحمه الله - وهو الذي عبر عنه بقوله للذي سأله عن الاستواء في قول الله عز وجل ﴿الرحمن على العرش استوى﴾(٤) كيف استوى؟ فرد عليه الإمام مالك: «سألت عن غير مجهول، وتكلمت في غير معقول، إنك امرؤ سوء، أخرجوه فأخذوا بضبعيه فأخرجوه»(٥).

---

١) شهاب الدين أبو العباس القرافي: الفروق ٢٠٢/٤، فهرس له الدكتور محمد رواس، طبعة دار المعرفة، بيروت [د. ت].

٢) الاعتصام ١٩٢/١، طبعة دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢هـ.

٣) سوف يأتي التعريف بابن تومرت في بداية المبحث الثاني من هذا الفصل صفحة:

٤) سورة طه: الآية ٤.

٥) ابن عبدالبر، التمهيد ١٥١/٧، تحقيق عبدالله بن الصديق، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المملكة المغربية ١٣٩٩هـ والقاضي عياض: ترتيب المدارك ٣٩/٢.

وموقف الإمام مالك - رحمه الله - من البدع وأهلها، وتمسكه بالسنة، وبعده عن مذاهب المتكلمين، أمر معروف لا يحتاج الى تطويل، وقد أشار القاضي عياض لذلك بقوله: كان مالك أبعد الناس عن مذاهب المتكلمين، وأشدهم بغضاً للعراقيين، وألزمهم لسنة السالفين، من الصحابة والتابعين(١).

وقد حذا المالكيون الأقدمون - في المغرب حذو إمامهم في إتباع عقيدة السلف ونصرتها، والدفاع عنها.
فعندما دخل المعتزلة إلى بلاد القيروان، ونفشت آراؤهم الاعتقادية في المنطقة، كان فقهاء المالكية من أشد الناس في مقاومة المعتزلة، والرد على بدعهم بالأدلة، من الكتاب والسنة، وما ثبت عن السلف الصالح - رضي الله عنهم - بل ربما تجاوزوا ذلك أحياناً إلى الإهانة، والضرب لبعض المعتزلة.

ومن الأمثلة على ذلك ما روي أن أسد بن الفرات كان ذات يوم يقرأ عليه في تفسير المسيب بن شريك: ﴿وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة﴾(٢) وسليمان الفراء المعتزلي حاضر، فقال: من الانتظار يا أبا عبدالله؟ فأخذ أسد بتلابيبه وأخذ بيده الأخرى نعلا وقال: يا زنديق لتقولنها أو

---

١) القاضي عياض: ترتيب المدارك: ٣٩/٢، وابن عبدالبر، التمهيد: ١٣٨/٧، ١٥٠.

٢) سورة القيامة الآيتين ٢١-٢٢.

لأبيض بها عينيك ، فقال سليمان : نعم ننظره ، وقيل : ضربه حتى أدماه ، وطرده من مجلسه(١).

وفي الحقيقة ، أن المعتزلة في القيروان في باديء الأمر كانوا في ذلة وهوان ، ولكن اعتناق حكام القيروان الأغالبة(٢) ، لعقيدتهم عزز جانبهم وأعطاهم منعة وقوة ، ونفوذاً ، وبذلك أصبحت الجبهة المناهضة لأهل السنة ، والجماعة ، قوية ، راسخة القدم في المنطقة ، غير أن ذلك لم يضعف من عزيمة أهل السنة في المغرب ، ولم يزدهم إلا صموداً وإصراراً على الحق ، كما فعل إخوانهم من أهل السنة في المشرق ، أيام محنة القول بخلق القرآن في بغداد.

فقد حاول الأغالبة إرغام الناس على اعتناق عقيدة المعتزلة والقول بخلق القرآن ، فلم يجار المالكية بني الأغلب ، في مقالتهم المملاة عليهم ،

---

١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣٠٢/٣ ، والسيد محمد أبو العزم ، المرجع السابق ص ٢٦٤-٢٦٥.

٢) الأغالبة نسبة إلى إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمي ، وكان إبراهيم بن الأغلب هذا فقيهاً وأديباً ، وشاعراً ، وخطيباً ، ذا رأي ، ونجدة ، وحزم ، وعلم بالحروب ، ومكايدها ، حسن السيرة ، عارفاً بتدبير أمور السياسة ، وصله عهد هارون الرشيد بإمارة إفريقيا في العشر الوسط لجمادي الآخرة عام ١٨٤هـ وقد توطد الأمر لبني الأغلب في إفريقيا ، واستطاعوا أن يستقلوا بالأمر جزئياً عن الخلافة العباسية في بغداد ، واكتفوا بالتبعية الإسمية ، فأقرهم خلفاء بني العباس على ذلك ، لرغبتهم في أن تكون دولة للأغالبة بعرض القضاء على دولة الأدارسة ، ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ٩٢/٤ ، ٣١٨ ، والناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١٢٩/١ ، وعصمت عبداللطيف : المرجع السابق ص ٤١.

من الخلفاء العباسيين في بغداد ، بينما قال بقولهم أكثر الحنفية(١).

وقد نزل بكثير من المالكية الأذى ، والضر ، برفضهم القول بخلق القرآن ولا سيما سحنون بن سعيد التنوخي ، وتلاميذه ، ذلك أنه لما تولى أحمد بن الأغلب إمارة القيروان ، أخذ الناس بالمحنة بالقول بخلق القرآن ، فجمع قواده ، وقاضيه ابن أبي الجواد الحنفي ، ودعا سحنون بن سعيد فقال له : ما تقول في القرآن؟ فقال سحنون : أما شيء أينتدبه من نفسي فلا ، ولكني سمعت من تعلمت منه وأخذت عنه كلهم يقولون القرآن كلام الله غير مخلوق ، فقال ابن أبي الجواد : كفر فاقتله ، ودمه في عنقي ، غير أن الأمير أحمد لم يأخذ بهذا الرأي ، ولكنه حكم على سحنون بالإقامة الجبرية في منزله ، ومنعه من الفتوى(٢).

ولما رفض سحنون أن يصلي خلف ابن أبي الجواد لقوله بخلق القرآن سعى به إلى الأمير زيادة الله بن الأغلب ، فأمر الأمير عامله على القيروان بضرب سحنون خمسمائة سوط ، وحلق رأسه ولحيته ، ولولا أن الوزير علي بن حميد بادر إلى الأمير فأقنعه بالعدول عن هذا القرار ، لما تخلص سحنون من هذه العقوبة(٣).

---

١) السيد محمد أبو العزم ، المرجع السابق ص ٢٦٥.

٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ٧١/٤.

٣) المصدر السابق نفسه ٦٩/٤-٧٠.

وقد فر يحيى بن عمر الكندي تلميذ سحنون إلى سوسة من أمام ابن عبدون القاضي الحنفي ، بالقيروان لطرده العراقيين من مجلسه ، وعدم قوله بخلقا لقرآن ، وبعث ابن عبدون بطلبه ، وأمر بأن يؤتى به اليه موثقاً إن وجد ولكنهم لم يتمكنوا منه ، وظل مختفياً بسوسة حتى توفي رحمه الله(١).

كما توارى محمد بن سحنون التنوخي المتوفى عام ٢٥٦هـ خوفاً على نفسه من سليمان بن عمران ، قاضي محمد بن الأغلب ، لمخالفته له في المذهب ورفضه القول بخلق القرآن ، حتى لجأ إلى الأمير محمد بن الأغلب ، فرفع يد سليمان عنه ، وأمنه ، فرد سليمان غيظه على أصحاب ابن سحنون ، فأخذ فرات بن محمد ، وضربه بالسياط(٢).

وكانت مسألة خلق القرآن(٣) من أهم المسائل التي دار الجدل حولها بين أهل السنة والمعتزلة ، وبسببها امتحن كثير من فقهاء المالكية ، الذين صمدوا للمحنة بقوة وشجاعة نادرة ، ولم يخضعوا لمقالة المعتزلة ، بل على العكس من ذلك - فقد أصروا على التمسك بالكتاب والسنة ،

---

١) المصدر السابق نفسه ٣٦٣/٤-٣٦٤ ، والسيد محمد أبو العزم ، المرجع السابق ص ٢٦٦.

٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢١٢/٤-٢١٣ ، والسيد محمد أبو العزم ص ٢٦٦.

٣) خلاصة عقيدة المعتزلة في هذه المسألة أنهم اتفقوا على أن كلام الله عز وجل محدث مخلوق في محل ، وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه.. الشهرستاني : الملل والنحل ٤٥/١ ، والبغدادي : الفرق بين الفرق ص ٢١٤.

والثبات على عقيدة السلف(١) ، حتى كب لهم النصر وهزمت المعتزلة.

وقد وصف الدكتور حسن أحمد محمود محنة القول بخلق القرآن في المغرب ودفاع أهل السنة عن عقيدة السلف ، وهزيمة المعتزلة بقوله : «فلما امتحن أهل المغرب بمخنة خلق القرآن ، وتفشت آراء المعتزلة ، والقدرية ، كان المالكيون أشد الناس لهم حرباً وأكثرهم عنفاً في مقاومتهم ، وامتحنوا في سبيل ذلك ، فصبروا على الإيذاء ، وتمسكوا بالكتاب والسنة ، ونافحوا عنهما منافحة الأبطال ، حتى كتب لهم الظفر ، وأعز بهم الإسلام ، ورفع كتابه وسنة نبيه ، وهزمت المعتزلة ، حتى لم يبق لها بالقيروان رأي ولا أتباع ، ولم يجد الأمراء مفراً من النزول على رأي المالكية(٢).

والجدير بالذكر أن طبقات المالكية الأوائل لم يثبت عن أحد منهم أنه اتبع مذهباً من مذاهب الفرق الضالة ، كما يذكره القاضي عياض ، وهو العارف بفقهاء المالكية ، بقوله :
«نظرنا طويلا في أخبار الفقهاء وقرأنا ما صنف من أخبارهم إلى يومنا هذا ، فلم نر مذهباً من المذاهب أسلم من مذهب مالك ، رحمه الله - فإن

---

١) بين أبو جعفر الطحاوي عقيدة السلف في القرآن بقوله : وأن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولا ، وأنزله على رسوله وحياً وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلام البرية.. العقيدة الطحاوية بشرح ابن ابي العز الحنفي ص ١٧٩.
٢) قيام دولة المرابطين ص ٩٣-٩٤.

فيها الهمة ، والرافضة ، والخوارج ، والمرجئة ، والشيعة ، الا مذهب الامام مالك ، فإنا ما سمعنا أن أحداً ممن تقلد مذهبه قال بشيء من هذه البدع ، فالاستمساك به نجاة إن شاء الله»(١).

والواقع أن المالكيين في منطقة شمال إفريقيا والأندلس ظهر فيهم علماء أجلاء سلفيون ، كان لهم دوراً بارزاً في بيان عقيدة السلف ، والدفاع عنها ، وسنذكر أمثلة من هؤلاء العلماء قبل قيام دولة المرابطين ، نلقي الضوء على الحالة العقدية في المنطقة آنذاك.

○ ومن أبرز هؤلاء العلماء السلفيين : أبو عبدالله محمد بن أبي زمنين(٢).. الذي بين مذهب السلف في كتابه : أصول السنة ، مقرراً له ، ومعتقداً له ، حيث قال:

اعلم أن أهل العلم بالله ، وبما جاء به أنبياؤه ورسله يرون الجهل بما لم يخبر به تبارك وتعالى عن نفسه علماً ، فالله تعالى يسمع ويرى ، ويتكلم هو الأول فلا شيء قبله ، والآخر الباقي إلى غير نهاية ، لا شيء بعده ،

---

١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢٢/١ ، تحقيق : محمد بن تاويت الطنجي : الطبعة الثانية ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ١٤٠٣هـ.

٢) هو الإمام أبو عبدالله محمد بن نعيس المالكي ، المشهور بابن أبي زمنين ، كان شديد التمسك بالسنة مدافعاً عنها [ت ٣٧٨هـ] راجع كتاب ابن قيم الجوزية ، اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ص ٥٨. الناشر : المكتبة السلفية بالمدينة المنورة [د. ت] وشيخ الإسلام ابن تيمية : الفتوى الحموية الكبرى ، ص ٥٨ ، ومحمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص ١٠١.

والظاهر العالي فوق كل ما خلق ، فهذه صفات ربنا التي وصف بها نفسه ، ووصفها بها رسوله ﷺ.. وليس في شأنها تحديد ، ولا تشبيه ، ولا تقدير ، سبحانه.. ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾(١).

فلا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ من غير تشبيه ولا تمثيل(٢).

○ ومن هؤلاء العلماء السلفيين عبدالله بن أبي زيد القيرواني(٣). الذي بين العقيدة السلفية الصافية من البدع ، والقلالات ، في مؤلفاته حيث يقول:

ومما أجمعت عليه الأمة من أمور الديانة ومن السنة التي خلافها بدعة وضلالة أن الله تبارك اسمه له الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، لم يزل بجميع صفاته ، وأسمائه ، له الأسماء الحسنى والصفات العلا ، وأن كلامه صفة من صفاته ، ليس بمخلوق فيبيد ، ولا صفة لمخلوق فتبيد" ، وأنه عز وجل كلم موسى بذاته ، وأسمعه كلامه ، لا كلاماً قام في غيره ، وأنه يسمع ويرى ، ويقبض ويبسط ، وأن يديه مبسوطتان ، والأرض جميعاً

---

١) سورة الشورى الآية : ١١.

٢) محمد بن زمنين : أصول اعتقاد أهل السنة ص ٣-٤ ، مخطوط بمكتبة الشيخ حماد الأنصاري ، بالمدينة المنورة رقم ١٧.

٣) هو أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني ، قال عنه الذهبي : إنه الامام المغربي ، شيخ المالكية في المغرب ، كان من العلماء العاملين ، وكان غاية في علم الأصول ، ويلقب بمالك الصغير ، [ت ٣٨٦هـ] العلو للعلي الغفار ص ١٧١-١٧٢. وذكر مثل هذا عنه ابن القيم ، في اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٥١-٥٢.

قبضته يوم القيامة ، وأنه فوق سماواته على عرشه»(١).

كما بين ابن أبي زيد في مقدمة رسالته(٢).. منهج السلف في العقيدة ، من حيث التقويض ، والإيمان بظواهر نصوص الكتاب والسنة على الوجه اللائق بالله عز وجل ، من غير تعطيل ، ولا تأويل ، ولا تشبيه ، حيث يقول:
«وأنه تعالى فوق عرشه المجيد بذاته(٣) وأن علمه في كل مكان ، له الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، لم يزل بجميع صفاته ، وأسمائه ، تعالى أن تكون صفاته مخلوقة ، وأسماؤه محدثة ، كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته ، لا خلق من خلقه ، وتجلى للجبل ، فصار دكاً من جلاله ، وأن القرآن كلام الله ، ليس بمخلوق فيبيد ، ولا صفة لمخلوق فينفد»(٤)..

---

١) عبدالله بن أبي زيد : الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ ص ١٠٧-١٠٨ ، الطبعة الثانية : مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٣هـ.

٢) رسالة ابن أبي زيد ، من أشهر مؤلفاته ومن أكثرها فائدة ، وهي من مقررات المحاضر الموريتانية ، منذ نشأتها حتى اليوم.

٣) قال الذهبي : إنما أراد ابن أبي زيد بقوله (بذاته) التفرقة بين كونه تعالى معنا ، وبين كونه فوق العرش ، فهو كما قال ، ومعنا بالعلم ، وأنه على العرش ، كما أعلمنا ، حيث يقول ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ طه : ٥ . وقد تلفظ بهذه الكلمة جماعة من العلماء ، وبلا ريب أن فضول الكلام تركه من حسن الإسلام ، وقد نقمت هذه العبارة على ابن أبي زيد فليته تركها.. العلو للعلي الغفار ص ١٧٢.

٤) عبدالله بن ابي زيد ، الرسالة ص ٦ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر [د. ت] والشيخ صالح عبدالسميع الأبي الأزهري ، الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني ، ص ١١-١٢ ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت [د. ت].

○ ومن هؤلاء العلماء السلفيين ، أبو عمرو الداني(١). الذي إليها لمنتهى في زمنه في علم القراءات ، مع البراعة في علم الحديث ، والتفسير ، والنحو ، وغير ذلك ، له أراجيز في عقيدة السلف ، بين فيها منهجهم ، ومن ذلك أرجوزته الطويلة المشهورة التي يقول فيها:

تدري أخي اين طريق الجنة ... طريقها القرآن ثم السنة
كلاهما ببلد الرسول ... وموطيء الأصحاب خير جيل
فاتبعن جماعة المدينة ... فالعلم عن نبيهم يروونه

الى أن يقول :

واطرح الأهواء والمراء ... وكل قول ولد الآراء
ومن عقود السنة الايمان ... بكل ما جاء به القرآن
وبالحديث المسند المروي ... عن الأئمة عن النبي
وأن ربنا قديم لم يزل ... وهو دائم إلى غير أجل

إلى أن يقول :

كلم موسى عبده تكليماً ... ولم يزل مدبراً حكيماً

---

١) أبو عمرو الداني هو عثمان بن سعيد بن عمر الأموي مولاهم ، قال عنه الذهبي : إنه الإمام الحافظ ، المجود ، المقريء ، الحافظ ، عالم الأندلس ، إليه المنتهى في علم القراءات ، وعلم المصاحف ، مع البراعة في علم الحديث ، والتفسير ، والنحو ، وغير ذلك ، وكان متبعـ للسنة ، بلغت تواليفه مائة وعشرين كتاباً [ت ٤٤٤هـ] ، بداتيه ومسى سلطان البلد أمام نعشه ، وشيعه خلق عظيم.. سير أعلام النبلاء ١٨/٧٧ ، ٨٠ ، ٨٣ ، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط ، ومحمد نعيم العرقوسي ، الطبعة السابعة ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٠هـ.

كلامه وقوله قديم وهو فوق عرشه العظيم

الى أن يقول :

وبعد فالإيمان قول وعمل ونية عن ذاك ليس ينفصل

فتارة يزيد بالتشمير وتارة ينقص بالتقصير

الى أن يقول :

ومن صحيح ما أتى به الخبر وشاع في الناس قديماً وانتشر

بنزول ربنا بلا امتراء في كل ليلة إلى السماء

من غير ما حد ولا تكييف سبحانه من قادر لطيف

ورؤية المهيمن الجبار وأننا نراه بالأبصار

يوم القيامة بلا ازدحام كرؤية البدر بلا غمام

وضغطة القبر على المقبور وفتنة المنكر والنكير

فالحمد لله الذي هدانا لواضح السنة واجتبانا (١)

○ ومن هؤلاء العلماء السلفيين الحافظ ابن عبدالبر(٢) الذي ظهرت دعوة المرابطين في عهده ، وظلت مصنفاته محل ثقة وتقدير من العلماء

---

١) هذه أرجوزة طويلة جداً كلها تدور حول منهج السلف ، والرد على المتكلمين وبيان خطئهم ، راجع سير أعلام النبلاء ، المصدر السابق نفسه ١٨/٨١-٨٣ ، والعلو للعلي الغفار ، المصدر السابق ص ١٨١.

٢) هو أبو عمر يوسف بن عبدالبر النمري ، الأندلسي ، صاحب المصنفات النفيسة ، قال عنه الذهبي : هو الإمام العلامة ، حافظ المغرب ، وبحر العلم ، ومن أئمة الأثر ، وكان عالي الإسناد ، اشتهر فضله في الأقطار ، وقل أن ترى العيون مثله [ت ٤٦٣هـ] العلو للعلي الغفار ص ١٨١-١٨٣ ، وابن القيم : اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٤٨-٤٩.

والفقهاء في موريتانيا ، وخاصة كتابه التمهيد والاستذكار والاستيعاب ، وجامع بيان العلم وفضله(١).

وقد خدم ابن عبدالبر مذهب السلف وبينه بياناً شافياً في مؤلفاته يقول في كتابه التمهيد :

إن أهل السنة والجماعة يجمعون على الأقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة ، والإيمان بها وحملها على الحقيقة ، لا على المجاز ، إلا أنهم لا يكيفون شيئاً من ذلك ، ولا يحددون فيه صفة محصورة ، وأما أهل البدع والجهمية والمعتزلة والخوارج ، فكلهم ينكرها ، ولا يحمل شيئاً منها على الحقيقة ، ويزعمون أن من أقر بشيء منها مشبه ، وهم عند من أثبتها نافون للمعبود ، والحق فيما قاله القائلون بما نطق به كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ وهم أئمة الجماعة والحمد لله(٢).

فهذا هو الموقف السائد في العقيدة الذي كان عليه غالبية الناس في المغرب الإسلامي آنذاك ، وهو كما علمت مذهب السلف الصالح رضي الله عنهم..

ويصور لنا ابن خلدون الحالة العقدية التي كانت سائدة في المنطقة بقوله:

---

١) ما تزال كتب ابن عبدالبر تحتل مكان الصدارة بين الموريتانيين حتى من غير العلماء والمثقفين ، راجع محمد المختار بن اباه ، المرجع السابق ص ٣١ ، وعبدالله حميده : المرجع السابق ص ٥٥.

٢) التمهيد : ١٤٥/٧.

«كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم - أي الأشاعرة - في التأويل ، وأخذ رأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأويل ، وإمرار المتشابهات كما جاءت»(١).

وكما يذكر الدكتور حسن ابراهيم حسن : فإن أهل المغرب الإسلامي كانوا يسيرون وفق العقيدة السلفية ، وأنهم ظلوا على هذه العقيدة ، حتى ظهر المهدي بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية(٢).

ويؤكد محمد السليماني ذلك بقوله : «إن أهل المغرب الإسلامي كان أغلبهم يدين الله تعالى على مذهب السلف في الاعتقاد بظواهر النصوص والصفات الواردة فيها من غير تأويل ، ولا صرف لها عن مدلولها اللغوي ، مع التنزيه للخالق عز وجل ، وذاته العلية ، عن أن تشبه الذوات ، وتتصف بصفات المخلوق(٣).

وبعد هذا العرض الموجز لما كان عليه أهل المغرب الإسلامي من عقيدة سلفية ناصعة ، نرى أنه لا غرابة ولا غضاضة في أن يكون المرابطون يعتقدون عقيدة السلف ، ويتبعون المنهج السلفي السائد في المنطقة ، وهو ما سنتحدث عنه في المبحث التالي.

---

١) العبر : ٦/٢٢٦.

٢) تاريخ الإسلام ٤/٤٦٣.

٣) مقدمة قانون التأويل لابن العربي ص ٣٨.

المبحث الأول
منهج المرابطين العقدي

إن أبرز ما تميزت به دولة المرابطين منهجها الإسلامي السلفي القائم على التمسك بنصوص الكتاب والسنة واثبات ما ورد في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، من أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، على الوجه اللائق بالله عز وجل، من غير تشبيه؛ ولا تكييف، ولا تأويل، ومعاداة علم الكلام، والفلسفة، والتصوف، وكل بدعة، وضلالة كما سنرى..

وتعتبر الدولة المرابطية واحدة من أبرز الدول الإسلامية التي تأسست على الفكر الإسلامي، السلفي الخالص من الشوائب البدعية، وعاشت عمرها القصير في الدعوة إليه، والدفاع عنه، ومحاربة المبتدعة، والضلال.

وقد تقدم الكلام عن فقه المرابطين ومعلمهم الأول، وفائدة دعوتهم الاصلاحية، ومؤسس دولتهم، عبدالله بن ياسين رحمه الله - وبينا أنه كان من الفقهاء المالكيين، الذين ترسموا خطى إمامهم مالك، وغيره من أهل السنة والجماعة، في إثبات الصفات لله عز وجل، ورفض التأويل الكلامي

، والابتعاد عن الخوض في علم الكلام والفلسفة(١).

وكان المرابطون لا يعدلون عن تعاليم عبدالله بن ياسين ، وقد سار علماؤهم وفقهاؤهم من بعده على المنهج الذي رسمه ، فكانوا سلفيين أصحاب حديث ، وفروع ، لا يتجاوزون الكتاب والسنة ، والمعاني التي تنبني عليهما ، يعادون علم الكلام ، والجدل ، ولا يخوضون في شيء من ذلك(٢).

ومما يثبت اتباع المرابطين للمنهج السلفي في العقيدة ، أن المؤرخين قديماً وحديثاً أطبقوا على وصفهم بذلك ، الموالي منهم ، والمعادي على حد سواء ، وأن الغلبة والسطوة ظلت للاتجاه السلفي طيلة عهدهم ، وهذا ما يصوره لنا المراكشي بقوله:
« دان أهل ذلك الزمان [عهد المرابطين] بتكفير(٣) كل من ظهر منه الخوض في شيء من علم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين(٤) تقبيح علم الكلام ، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين ،

---

١) راجع المبحث الأول من الفصل الثاني

٢) راجع الأنيس المطرب ، المصدر السابق ص ١٧٤ ، وسير أعلام النبلاء ، المصدر السابق ٥٤٨/١٩ ، وسلامه الهدف المرجع السابق ص ١٠٤.

٣) لم يثبت عن المرابطين القول بتكفير المتكلمين ، ودعوى المراكشي لذلك لا تنبني على دليل ، ولعله يريد التبديع ، وما يؤدي اليه علم الكلام من اختلال في العقيدة ، كما أشار إلى ذلك في العبارات التي ذكرها ، وكما يدل له كلام الذهبي.

٤) هو علي بن يوسف بن تاشفين ، وسوف يأتي الكلام عنه في آخر هذا الفصل

وربما أدى أكثره الى اختلال في العقائد، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام، وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه»(١).

كما صوره الذهبي في وصفه لعهد علي بن يوسف بن تاشفين بقوله: «نفق في زمانه الفقه، وكتب الفروع، حتى تكاسلوا عن الحديث، والآثار..»(٢).

وأهينت الفلسفة، ومج الكلام، ومقت واستحكم في ذهن علي بن يوسف أن الكلام بدعة ما عرفه السلف(٣).
ويؤكد الباحثون المحدثون ما اتفق عليه المؤرخون الأقدمون من أن المرابطين كانوا سلفيين، متمسكين بالكتاب والسنة..

يقول السائح: إن فقهاء المرابطين كانوا سنيين، سلفيين، يكرهون

---

١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١٧٢-١٧٣، وللتوسع: راجع السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٦٥٢.

٢) يمكن حمل كلام الذهبي على أن المرابطين انكبوا على دراسة الفقه أكثر من انكبابهم على دراسة الحديث، لا أنهم تركوا دراسة الحديث بالكلية، لأن شيخ الإسلام ابن تيمية ذكر أنهم كانوا أهل كتاب، وسنة، يقرءون القرآن، والحديث، كالصحيحين، والموطأ، وغير ذلك، مجموع الفتاوى ٤٨٧/١١.

٣) سير أعلام النبلا ١٢٤/٢٠، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقوسي، الطبعة السابعة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٠هـ.

المتكلمين ، وينفرون من الرأي والتأويل ، والخوض في مسائل التوحيد(١)
.

ويقول السيد محمد أبو العز : إن دولة المرابطين كانت متمسكة أشد التمسك بنصوص القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وأنهم لما رأوا انحراف البرغواطيين وارتدادهم عن الإسلام ، نتيجة للتأويل ، والتحريف ، لذلك عافوا عن كل تأويل..(٢).

ويقرر النشار : أن الواقع التاريخي يدل على أن المرابطين اعتنقوا مذهب أهل الحديث ، فكانوا سنيين ، سلفيين ، أعداء للفلسفة والتفكير العقلي(٣).

والواقع أن الدولة المرابطية تأسست على العقيدة السلفية ، وعاشت عمرها في الدعوة إليها ، والدفاع عنها ، حتى قدر لها أن تسقط على أيدي أعدائها ، وأعداء السلفية.

يقول الدكتور حسن أحمد محمود : كان عبدالله بن ياسين ، على جادة السنة لم يحد عنها ، أقام يدعو إلى الحق ، وكان المرابطون أهل السنة ،

---

١) الحسن السائح ، الحضارة المغربية عبر التاريخ ١٧٨/١ ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ١٩٧٥م.

٢) السيد محمد أبو العزم : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا ص ٣٤٤.

٣) مقدمة كتاب السياسة : لأبي بكر محمد بن الحسن الحضرمي ص ٢٦-٢٧.

متمسكون بمذهب مالك بن أنس رحمه الله»(١).

هذا بالإضافة إلى ما اشتهر عنهم من عداء البدعة ، وأهلها ، والنزعة المتعقبة لعلم الكلام ، والفلسفة ، والتصوف ، ومحاربة أصحاب البدع والأهواء(٢).

هذا المنهج السلفي الذي يعتمد على الكتاب والسنة ، ويقف عند نصوصهما ، ويعادي البدع ، وأهلها ، قد اتخذ منه المستشرقون مدخلا للإساءة على المرابطين ، فاتهموهم بالجهل ، والسذاجة ، والقضاء على مظاهر التفكير العقلي ، كما اتهموهم بعدم البحث عن تأويل آيات الصفات التي لا يناسب فيها المعنى الحرفي ، والأخذ بنوع من السلفية الساذجة(٣).

وكل هذه الدعاوى إنما هي تهم باطلة لا تعتمد على الحقائق العلمية التاريخية ، وإنما تعبر عن حقد دفين يكنه النصارى للمرابطين..

---

١) قيام دولة المرابطين : ص ١٨٥.

٢) عبدالله حميده ، المرجع السابق ، ص ٥٣ ، وسلامه الهدفي المرجع السابق ص ٢٨٩ ، ٣٠٨ ، وعصمت عبداللطيف المرجع السابق ص ١٤١ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٣٣٨.

٣) الفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ص ٢٤١ ، ومقدمة النشار لكتاب السياسة ، المرجع السابق ص ٥ ، والخليل النحوي ، المرجع السابق ص ٦٣ ، وسلامه الهدفي المرجع السابق ص ٣٠٥-٣٠٦.

لقد كره المستشرقون وغالبيتهم مسيحيون متعصبون - المرابطين لأنهم دكوا عروش ملوكهم على أرض الأندلس ، وحطموا المقاومة المسيحية ، وخاصة في موقعة الزلاقة(١) ، وحفظوا الأندلس للمسلمين أربعة قرون أخرى.

وعلى أي حال ، فإن المرابطين كانوا فاتحين من الرعيل الأول ، فكان لهم في الجهاد شغل شاغل ، ولهم في أولويته عذر بين واضح ، ورغم ذلك لم ينسوا حظهم من العلم ، فقد تأسست دعوتهم من أول يوم على العلم ، وما كان مولد الدولة المرابطية وجهادها إلا ثمرة لنشاط علمي متواصل ، وقد ذكرنا أن التعليم هو أول الأسس التي قامت عليها دعوتهم(٢).

أما أن المرابطين قضوا على علم الكلام والفلسفة ، ورفضوا التأويل الكلامي في آيات الصفات ، وأحاديثها ، فهذا هو المنهج السليم في العقيدة ، وهو نهج السلف الصالح ، وإن سماه المستشرقون أو غيرهم جهلا وسذاجة.. ذلك موقفهم العام ، من عقيدة السلف وعلم الكلام ، والفلسفة ، وإليك موقفهم من التصوف..

---

١) الزلاقة : بطحاء في إقليم بطليوس من غرب الأندلس ، انهزم فيها جيش الفرنجية الكفرة الزاحف من طليطلة هزيمة شديدة عام ٤٧٩هـ سير أعلام النبلاء ١٩/٢٥٣.

٢) راجع المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذه الرسالة .

موقف المرابطين من التصوف

كانت حياة المرابطين في رباطهم تقوم على المواطبة على العبادة ، والبساطة ، والزهد على طريقة السلف الصالح ، فكانوا يعدون طعامهم بأنفسهم ، مع الاكتفاء من الطعام بأقل القليل ، وبالخشن من الثياب ، لا يبتغون غير الدار الآخرة ، وآلوا على أنفسهم التوبة والإخلاص ، والاشتغال بتلاوة القرآن والتفقه في الدين(١).

ومع أن المرابطين تعودوا على حياة الرباط وألفوا الزهد ، فإنهم أنكروا التصوف الفلسفي ، أيما إنكار ، واعتبروه من أخطر البدع في الإسلام ، وناصبوه العداء ، ووقفوا ضده بحزم ، كما فعلوا مع غيره من البدع.

فمن المعروف أن الدولة المرابطية أخذت بالاسلام السني السلفي منذ تأسيسها ، ووطدت أركانه ، وعممته في جميع أنحاء البلاد التي حلت بها ، وعارضت كل الطرق والاتجاهات المنحرفة ، المخالفة للسنة ، وشنت

---

١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٢٥ ، وحسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ٤٣٨/٤ ، وعصمت عبداللطيف المرجع السابق ص ٧٤.

حرباً لا هوادة فيها على البدع والضلال(١).

لقد ظهرت الصوفية في وقت مبكر في الأندلس - كما سبق ذكره(٢) ومنها انتقلت إلى المغرب، ولم يكتمل نموها لقيام الدولة المرابطية، التي كبحت جماحها، وجماح أهلها..(٣).
وظل الخلاف يتسع في العهد المرابطي بين المتصوفة وفقهاء المرابطين أصحاب الإسلام السلفي، حتى انتهى الأمر إلى صراع مرير بينهم(٤).

وقد احتدم هذا الصراع الساخن وبلغ أوجه، وما حرق كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي إلا دليلا على ذلك..

---

١) راجع عبدالله حميده : المرجع السابق ص ٥٢.
٢) راجع المبحث الآخير من التمهيد.
٣) عبدالله حميده ، المرجع السابق ص ٢٧ ، والفرق الإسلامية في الشمال الافريقي ، المرجع السابق ص ٣٣٨.
٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ٤٥٦/٤ ، وعبدالله حميده ، المرجع السابق ص ٥٣-٥٥ ، وراجع التشوف إلى رجال التصوف ، المصدر السابق ص ١١٨-١١٩.

إحراق كتاب إحياء علوم الدين

لأبي حامد الغزالي

لقد أثارت قضية إحراق كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي المتوفى عام ٥٠٥هـ جدلا في الأوساط العلمية ، في القديم والحديث ، وقضية الحرق هذه تدل على أن المرابطين يحبون الاتباع ويكرهون الابتداع ، وأنهم كانوا حراس العقيدة السلفية من الفكر الصوفي ، والفلسفة الكلامية ، وكل تعقيد فكري.

وملخص القضية أنه ما إن وصل كتاب إحياء علوم الدين إلى المغرب ، والأندلس ، وقرأه الفقهاء السلفيون خاصة قاضي الجماعة ابن حمدين(١) .. حتى ثارت ثائرتهم ، فاجتمعوا واتفقوا على ضرورة إتلافه ، لما يتضمنه

---

١) هو أبو عبدالله محمد بن علي بن حمدين الأندلسي ، تفقه بأبيه وبمحمد بن عتاب ، وحاتم بن محمد ، وله إجازة من أبي عمر بن عبدالبر ، وأبي العباس بن دلهات ، روى عنه القاضي عياض ، وعظمه ، وكان ذكياً بارعاً في العلم ، له اليدالطولى في علم الأصول ، وعلم اللغة العربية ، جيد الشعر ، حسن الخلق ، حميد السيرة ، ولي القضاء في عهد يوسف بن تاشفين ، فسار فيه أحسن سيرة ، وفي عهد علي بن يوسف كان يشغل منصب قاضي الجماعة بقرطبة ، وكان حميد الأحكام ، واقفاً عند حدود الشرع ، صارماً في الحق ، منكراً للبدعة ، قال عنه الذهبي : وكان يحط على الإمام أبي حامد في طريقة التصوف ، وألف في الرد عليه ، ت ٥٠٨هـ سير أعلام النبلاء ٤٢٢/١٩ ، وأحمد المقري : نفح الطيب عن غصن الأندلس الرطيب ٥٣٧/٣ ، ٥٣٩ ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، طبعة صادر بيروت ١٣٨٨هـ وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين : ص ٣٧٣-٣٧٤.

من الفكر الصوفي الفلسفي، ورفعوا أمره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، فنزل على رأيهم ، وأصدر أمره إلى جميع الأقاليم التابعة لحكمه بمصادرة الكتاب وحرقه ، كما أمر بتفتيش المكتبات العامة والخاصة ، وأن يحلف من يشك في أمرهم ، بالايمان المغلظة [الطلاق والعتاق] بأنهم لا يملكون كتاب [الإحياء] كما أمر بمنع دخول جميع كتب الغزالي إلى المغرب ، والأندلس ، وتقدم بالوعيد الشديد لمن وجد عنده شيء منها.

وقد نفذ أمر علي بن يوسف على أكمل وجه ، حيث جمعت نسخ [الإحياء] التي تم العثور عليها ، وأشبعت بالزيت ، وأحرقت على الباب الغربي من رحبة مسجد قرطبة الجامع ، بحضور جماعة من أعيان قرطبة ، وعلمائها ، يتقدمهم القاضي ابن حمدين(١).

وفي الحقيقة أن هذه الحادثة تمثل موقفاً حازماً ضد التصوف الفلسفي الذي يتضمنه كتاب الإحياء.

فقد ذكر الطرطوشي المتوفى عام ٥٢٠هـ أن الغزالي في كتابه الإحياء

---

١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٥٩/٤ ، وعبدالواحد المراكشي : المعجب ص ١٧٣ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢٤/٢٠ ، والسيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٦٥٢-٦٥٣ ، وسلامه الهدفي : دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين ص ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، هذا وقد اختلف في تاريخ هذا الإحراق ، فيذكر محمد عبيدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين ص ٧٨-٧٩ ، أنه تم عام ٥٠٣هـ ويرى محي الدين عزوز : التطور المذهبي بالمغرب ص ٧٥ أنه الإحراق كان عام ٥٠٠هـ.

دخل في علوم الخواطر ، ومرامز الصوفية ، ثم شاب ذلك بآراء الفلاسفة ، وأن هذا الكتاب إن ترك انتشر بين ظهور الخلق ، ومن لا معرفة لهم يسمونه القاتلة ، وخيف عليهم أن يعتقدوا صحة ما سطر فيه ، مما هو ضلال ، فحرق قياساً على ما أحرقته الصحابة رضي الله عنهم ، من صحائف المصحف ، التي تخالف المصحف العثماني(١).

وفي هذا النص تصريح بأن كتاب الإحياء كتاب صوفي فلسفي وذلك هو السبب الذي جعل المرابطين يقدمون على إحراقه ، وفي كلام القاضي عياض ما يدل لذلك ، فقد أورد قضية الحرق في كتابه : معجم أبي علي الصوفي (٢).. وذكر أن الغزالي غلا في طريقة التصوف بقوله "... والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة ، والتصانيف العظيمة ، غلا في طريقة التصوف ، وتجرد لنصرة مذهبهم ، وصار داعية في ذلك ، وألف فيه تواليفه المشهورة ، أخذ عليه فيها مواضع ، وساءت به ظنون أمة ، والله أعلم بسره ونفذ أمر السلطان عندنا بالمغرب ، وفتوى الفقهاء بإحراقها والبعد عنها فامتثل لذلك..

---

١) هذا النص من رسالة كتبها أبو بكر الطرطوشي وأرسلها إلى عبيدالله ابن مغفر ، يجيبه فيها عن حقيقة الغزالي ، وكتاب الإحياء ، وقد أورد الذهبي ملخصاً لهذه الرسالة ، راجع سير أعلام النبلاء ١٩/٤٩٤-٤٩٦.

٢) هذا الكتاب من جملة كتب مفقودة للقاضي عياض ، وقد أورد الذهبي هذا النص في سير أعلام النبلاء ٣٢٧/١٩.

وقد حاول بعض المؤرخين التقليل لقضية حرق الإحياء ، فيرى البعض أن سبب حرق الإحياء يعود إلى اشتداد الصراع بين الفقهاء والمتصوفة ، وبما أن كتاب الإحياء قد جمع بين أحكام الورع ، وآداب المتصوفة ، فقد كان وجوده خطراً على الفقهاء ، لأنه سيرجح كفة المتصوفة ، فلذلك أفتى الفقهاء بإحراقه(١).

وعلل الدكتور حسن إبراهيم حسن لقضية الحرق بسببين:

أولهما : اختلاف فقهاء المرابطين وكتاب الإحياء في الإتجاه الفقهي.

وثانيهما : أن الإحياء كتاب صوفي ، يسير على الفلسفة الكلامية ، التي كان المالكية يحرمونها ، ويخشون منها على مذهبهم(٢).

والذي أراه أن سبب الحرق يعود بالدرجة الأولى إلى ما تضمنه الكتاب من الفكر الصوفي الفلسفي(٣) بالإضافة إلى ما شحن به من الأحاديث التي لم تثبت عن رسول الله ﷺ(٤).. وليس للخلاف المذهبي في

---

١) إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ١/١٩٤-١٩٥ ، الطبعة الأولى ١٩٦٥م.

٢) تاريخ الاسلام السياسي والديني والاجتماعي ٤/٤٥٦.

٣) يدل لذلك كلام القاضي عياض الذي تقدم قبل قليل ، كما يدل له كلام القاضي ابن حميدن الآتي قريباً في الصفحة التالية ، وهذان العالمان من أولى الناس بمعرفة الأسباب الحقيقية لهذه القضية..

٤) قال الذهبي : أما الإحياء : ففيه من الأحاديث الباطلة جملة ، وفيه خير كثير.. لولا ما فيه من آداب ، ورسوم ، وزهد ، من طرائق الحكماء ، ومنحرفي الصوفية ، نسأل الله علماً نافعاً تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن ، وفسره الرسول ﷺ قولا وفعلا ، ولم يأت نهي

الفقه دخل في ذلك ، لأنه لم ينقل عن المرابطين الإنكار على أي مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة فضلا عن أن يصل العداء لواحد من هذه المذاهب إلى هذا الحد..

هذا ولم يمر إحراق كتاب إحياء علوم الدين دون معارضة ، فقد وجد من فقهاء الدولة المرابطية من برأ الغزالي مما رمي به ، وفي هذا الموضوع يحدثنا قاضي الجماعة ابن حمدين بقوله:

« إن بعض من كان ينتحل رسم الفقه ، ثم تبرأ منه ، شغفاً بالشرعة الغزالية ، والنحلة الصوفية ، أنشأ كراسة تشتمل على معنى التعصب لكتاب أبي حامد ، إمام بدعتهم ، فأين هو من شنع مناكيره ، مضاليل أساطيره ، المباينة للدين..؟.

وزعم أن هذا من علم المعاملة المفضي إلى علم المكاشفة ، الواقع بهم على سر الربوبية الذي لا يفسر عن قناعة ، ولا يفوز بإطلاعه إلا من تمطى إليه ثبج ضلالته ، التي رفع لهم أعلامها ، وشرع أحكامها(١).

عنه ، قال عليه السلام : [من رغب عن سنتي فليس مني] .. فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله وبإدمان النظر في الصحيحن ، وسنن النسائي ، ورياض النووي ، وأذكاره ، تفلح وتنجح ، وإياك وآراء عباد الفلاسفة ، ووظائف أهل الرياضيات ، وجوع الرهبان ، وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات ، فكل الخير متابعة الحنيفية السمحة ، فواغوثاه بالله ، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم» سير أعلام النبلاء ٣٣٩/١٩ ، وقد ساق الذهبي جملة من النصوص فيها التصريح بأن كتاب الإحياء تضمن التصوف الفلسفي ، وقال : إن أبا علياً الطرطوشي ذكر كتاب إحياء علوم الدين ، فقال : هو لعمرو الله - أشبه بإماتة الدين ، سير أعلام النبلاء ٤٩٤/١٩.

ومن الفقهاء الذين انتصروا للغزالي بطريقة معلنة وصريحة ، أبو الحسن علي بن محمد الجذامي المعروف بابن البرجي المتوفى عام ٥٠٩هـ فقد أفتى بتأديب من يحرق كتاب الإحياء ، وتضمينه قيمته ، لأنه مال مسلم ، وكان ابن البرجي مشاوراً في الأحكام في مدينة المرية ، فلما سمع قاضي الجماعة ابن حمدين بفتواه غاظه ذلك ، فأمر بعزله عن خطة القضاء(١).

كما انتصر أبو الفضل يوسف بن محمد النحوي المتوفى عام ٥١٣هـ لأبي حامد الغزالي ، وكتب لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين بذلك ، وأفتى بأن الإيمان التي فرضت في عملية التفتيش أيمان لا تلزم ، وقال : وددت أنني لم أتطرق في عمري سوى كتاب الإحياء وكان قد انتسخ كتاب الإحياء في ثلاثين جزءاً فإذا دخل شهر رمضان قرأ كل يوم جزء(٢).

وعلى أي حال ، فقد استمر الإحراق ومطاردة كتب الغزالي ، حتى بعد وفاة علي بن يوسف عام ٥٣٧هـ وهذا ما أثبته إحدى الرسائل ، الصادرة عن الأمير تاشفين بن علي ، الموجهة إلى أهل بلنسية ، والمؤرخة في

---

١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ٣٣٢/١٩.

١) ابن الآبار ، المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصوفي ص ٢٧١-٢٧٢ ، طبعة مدزيد ١٨٨٥م.

٢) الناصري : الاستقصا ٧٤/٢ ، وللتوسع في هذا الموضوع ، راجع إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ١٩٤/١-١٩٦.

جمادى الأولى من عام ٥٣٨هـ والتي تضمنت بعض التوجيهات الإدارية، والدينية، والحض على الجهاد في سبيل الله.

ومن أهم ما ورد فيها وجوب مقاومة أهل البدع، وفيها النص على إحراق كتب الغزالي، وما جاء فيها:

« ومتى عثرتم على كتاب بدعة، أو صاحب بدعة، وخاصة وفقكم الله كتب أبي حامد الغزالي، فليتبع أثرها، وليقطع بالحريق المتتابع خبرها، ويبحث عنها، وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها»(١)..

وهذا العمل المتواصل في مقاومة البدع، وأهلها، يدل على أن المرابطين كانوا حراس العقيدة السلفية، ويحاربون كل من حاد عن جادتها، وسلك سبيل غير المهتدين..

وإن كنت أرى أنهم أخذوا من الشدة أكثر من اللازم خاصة في قضية حرق الإحياء ذلك أن الأولى والأقرب إلى الصواب والحكمة أن يبينوا ما في هذا الكتاب من أخطاء ويردوا على صاحبه بردود علمية تبين الحق وترد الباطل، والله أعلم.

---

١) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، المصدر السابق ٤/٥٩، ومحمد السليماني: مقدمة قانون التأويل لابن العربي ص ٥٦.

المبحث الثاني
تهم ابن تومرت للمرابطين والرد عليها

تمهيـــــــــــد :

لمحة عن شخصية ابن تومرت ودعوته:

أرى أن من المناسب التعريف بابن تومرت قبل الدخول في التهم التي وجهها للمرابطين ، لأن ذلك يساعد على فهم مقاصده التي سعى لتحقيقها تحت شعار الدعوة الإسلامية ، ومبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..يقول الذهبي : هو الشيخ ، الإمام ، الفقيه ، الأصولي ، الزاهد ، أبو عبدالله محمد بن تومرت ، البربري ، المصمودي ، الخارج بالمغرب ، المدعي أنه علوي ، حسني ، وأنه الإمام المعصوم ، المهدي(١).

---

١) لقد تقنع ابن تومرت بقناع المهدية ، المزيف ، فزعم أنه الإمام المنتظر ، الذي يأتي في آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، ولعل من الأسباب التي حملته على ذلك هو التمهيد للخروج على المرابطين ، وليعظم بذلك اعتقاد الناس فيه ، وتزداد طاعتهم له ، وقد وردت في المهدي أحاديث مستفيضة ، وتعرضت لنقد علماء الحديث ، اذ فحصوا أسانيدها ، وأبانوا ما فيها من قوة وضعف ، وميزوا فيها بين الصحيح ، والحسن ، والضعيف ، ومن هؤلاء العلماء ابن القيم الذي قسم أحاديث المهدي إلى أربعة أقسام : صحاح ، وحسان ، وغرائب ، وموضوعة ، المنار المنيف في الصحيح والضعيف ص ١٣٥-١٣٦ ، تحقيق : أحمد عبدالشافي ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت. وقد ذهب ابن خلدون إلى أن أحاديث المهدي لم يخلص

رحل من السوس الأقصى ، إلى المشرق ، فحج ، وحصل أطرافاً من العلم ، كان أماراً بالمعروف ، نهاء عن المنكر ، قوي النفس ، عمالا على الملك ، غاوياً في حب الرياسة ، والظهور ، توفي عام ٥٢٤هـ(١).

رحل ابن تومرت إلى الحجاز في عام ٥٠١هـ ، فأدى مناسك الحج ، وتوجه إلى الشام ، والعراق ، في طلب العلم ، واتصل بأبي حامد الغزالي ، فأخذ عنه علم أصول الدين ، وأصول الفقه ، ولازمه مدة من الزمن.

ويذكر ابن أبي زرع : أن الغزالي قال عن ابن تومرت : لا بد لهذا البربري من دولة ، أما إنه يثور بالمغرب الأقصى ويظهر أمره ويعلو سلطانه.. فإن ذلك ظاهر عليه في صفاته ، وبائن عليه في شمائله ، وردت بذلك الأخبار ، ودلت عليه العلامات ، والآثار ، وأن هذه العلامات والآثار موجودة في كتاب يمتلكه الغزالي ، يسمى : [السر المكنون وكشف ما في الدارين](٢).

منها من النقد إلا القليل ، والأقل منه ، المقدمة ص ٣٢٢ ، ولكن ابن خلدون من علماء التاريخ ، وليس من علماء الحديث ، وللتوسع في هذا الموضوع ، راجع : عبدالمحسن بن حمد العباد : الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي وعقيدة أهل السنة ، والأثر في المهدي المنتظر ، ص ٦ ، وما بعدها ، الطبعة الأولى ، مطابع الرشيد بالمدينة المنورة ١٤٠٢هـ وشريف بن صالح أحمد الخطيب ، الإمام زيد بن علي المفترى عليه ، ص ٤٣٦-٤٣٧ ، دار الندوة الجديدة ، بيروت ، منشورات المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ١٤٠٤هـ.

١) سير أعلام النبلاء ٥٣٩/١٩ ، ٥٤٢ ، ٥٥٠ ، وعبدالواحد المراكشي ، المعجب ص ١٧٨ ، ١٩٤ ، وذكر ابن خلدون أن وفاة محمد بن تومرت كانت في عام ٥٢٢هـ ، العبر ٢٢٩/٦.

٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٧٢ ، والمراكشي : المعجب ص ١٧٨ ، وسلامه الهدفي ،

ويبدو أن الغزالي كانت تصدر منه عبارات تحرك ابن تومرت الى الثورة على المرابطين ، وتقوي طمعه في النجاح فيها ، ومن ذلك أنه لما أخبره ابن تومرت بأن المرابطين أحرقوا كتاب إحياء علوم الدين ، دعا على سلطان المرابطين بقوله [ليذهبن عن قليل ملكه ، وليقتلن ولده ، وما أحسب المتولي لذلك الأمر ، الا حاضر مجلسنا]..

وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام على المرابطين فقوي طمعه(١).

وبعد أن قضى ابن تومرت تسع سنين في المشرق ، عزم على العودة إلى بلاده ، وبدأ رحلة الإياب في يوم الجمعة ، أول ربيع الأول من عام ٥١٠هـ وحين عاد إلى المغرب أظهر الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ثم اتشح بوشاح المهدية(٢).

وسرعان ما وجه همه إلى دولة المرابطين ، وأعلن عليها حرباً لا هوادة فيها وظل يؤلب قبائل المصامدة ، على هذه الدولة ، واستغل في ذلك العصبية القبلية ، التي كانت قائمة بين قبائل المصامدة الجبلية المتحضرة

المرجع السابق ص ٩٧.

١) عبدالواحد المراكشي : المعجب ص ١٧٩ ، وسلامه الهدفي المرجع السابق ص ٩٧.

٢) راجع ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٧٣ ، وابن خلدون : العبر ٢٢٩/٦ ، وابراهيم حركات ، المرجع السابق ٢٦٠/١.

، التي ينتسب إليها ابن تومرت(١). وبين قبائل الملثمين البدوية التي ينتسب إليها المرابطون(٢).

لقد عاد ابن تومرت إلى بلاده وهو يحمل معه برنامجاً للدعوة إلى الخروج على المرابطين ، واستغل في ذلك كل الفرص ، واستخدم كل الأساليب ، وقد ذكر عنه كثير من الحكايات التي لا تدع مجالا للشك في زيف دعوته ، وبعدها عن الحق ، واعتمادها على أساليب المكر ، والخداع ، ومن ذلك:

أنه واطأ رجلا على إظهار الجنون ، وكان ذلك الرجل عالماً بحفظ القرآن والحديث ، والفقه ، فظهر بصورة الجنون ، والناس لا يعرفونه إلا مجنوناً ، ثم أصبح ذات يوم وهو عاقل ، يقرأ القرآن ، والحديث ، والفقه ، وزعم أن النبي ﷺ علمه ذلك في المنام وعوفي مما كان فيه ، وأخبرهم أنه

---

١) تتفق المصادر على أن محمد بن تومرت ولد وعاش في قبيلة هرغة ، من قبائل المصامدة ، ولكن هذه المصادر تختلف في أصل نسبه ، ويرجح ابن خلدون أنه علوي ، فيقول : وعلى الأمرين فإن نسبه الطالبي وقع في هرغة من قبائل المصامدة ، وشجت عروقه فيهم ، والتحم بعصبيتهم ، فلبس جلدتهم ، وانتسب بنسبتهم ، وصار في أعدادهم.. العبر : ٢٢٦/٦ ، ويأتي ابن أبي زرع وابن الخطيب على رأس المنكرين لنسبته الطالبية ، راجع الأنيس المطرب ص ١٧٢ ، وأعمال الأعلام ص ٢٦٦/٣.

٢) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٧٢-١٧٤ ، وابن خلدون : العبر ٢٢٦/٦-٢٢٧ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٧٦-١٧٧ ، وسلامه الهدفي ، المرجع السابق ص ٩٥ وما بعدها.

يكون لهم يوم يسمى يوم الفرقان ، فرق فيه بين أهل الجنة وأهل النار ؛ فصار كل من علموا أنه من أوليائهم جعلوه من أهل الجنة ، وعصموا دمه ، ومن علموا أنه من أعدائهم جعلوه من أهل النار واستحلوا دمه(١).

وكان ابن تومرت ماهراً في أساليب المكر والخداع ، سفاكاً للدماء ، يهون عليه قتل المسلمين ، في هوى نفسه ، وبلوغ غرضه ، ومن الأمثلة على ذلك:

أنه عندما اشتدت هزيمة أتباعه الذين يسميهم بالموحدين ، أمام جيش المرابطين في معركة البحيرة(٢) ، وزلزلت ثقة أتباعه فيه ، لجأ إلى أسلوب المكر والخداع ليعيد الثقة بدعوته ، وقيادته ، ومهديته.

فيذكر أنه اتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء ، وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره ، وأوصاهم أن يقولوا إذا سئلوا [قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من مضاعفات الثواب على جهاد لمتونة ، وعلو الدرجات التي نلناها بالشهادة ، فجدوا في قتال عدوكم ، فإنما دعاكم إليه المهدي صاحبكم حق].

---

١) شيخ الإسلام ابن تيمية ، مجموع الفتاوى : ١١/٤٧٧-٤٧٨.

٢) هذه المعركة هي أعظم المعارك ، التي وقعت بين المرابطين والموحدين ، وكان جيش ابن تومرت بقيادة محمد البشير الونشريشي الذي قتل في هذه المعركة ، وفقد ابن تومرت أكثر أصحابه العشرة ، وآلافاً من زهرة جنده ، واشتد به المرض ، فمات بعد الموقعة عام ٥٢٤هـ ، حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام ٤/١٢٩.

ووعدهم بأنهم إذا نفذوا ذلك يخرجهم ، وتكون لهم منزلة عظيمة عنده ، ثم اجتمع بأشياخ قبائل الموحدين ، وقال لهم أنتم حزب الله وأنصار دينه ، وأعوان الحق ، وألح عليهم بالجد في قتال المرابطين ، وطلب منهم إن كانوا في ريب مما يقول أن يذهبوا معه الى قبور قتلاهم في معاركهم مع المرابطين ليحدثوهم بما لقوا من خير ونعيم..

وذهب معهم الى مكان المعارك التي نشبت مع المرابطين ، وسقط فيها عدد كبير من أتباع ابن تومرت ، والتي توجد فيها تلك المجموعة التي دفنهم أحياء ، ولقنهم ما يقولون ، ولما وصل رفع صوته في المقبرة قائلا : يا معشر الشهداء ، أخبرونا بما لقيتم من الله عز وجل : فقالوا : وجدنا مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، اضافة الى ما لقنهم إياه ابن تومرت ، وبدلا من أن يفي بعهده ويخرج المدفونين ، قام بإغلاق المنافس التي كان قد تركها لهم ، فماتوا من حينهم ، لأنه خاف أن يخرجوا فيظهروا أمره فيفتضح(١).

إن دعوة تقوم على المكر والخداع ، وتزكيها العصبية القبلية لا بد أن تكتشف حقيقتها ، ولو بعد حين.
ولقد وصفه لفيف من المؤرخين - ابن تومرت - بأنه مبتدع ، وسفاك للدماء ،

---

١) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٨١-١٨٣ ، وابن تيمية : مجموع الفتاوى ٤٧٦/١١-٤٧٧.

وانبرى له شيخ الإسلام ابن تيمية يهدم عقيدته ، ودعوته المنحرفة عن النهج القويم ، فألف كتاباً خاصاً في الرد على كتابه المرشدة(١)..

لقد رأينا شخصية ابن تومرت ، والأساليب التي قامت عليها دعوته الفاسدة ، وكيف وصفه المؤرخون.
وفي ذلك ما يدل - بحق - على أن دعوته قامت على الخداع ، وسفك الدماء والابتداع ، وأنه كان يسعى لتحقيق الزعامة بأي ثمن.

وعلى أي حال ، فإننا سنعرض للتهم التي وجهها للمرابطين لأنه لا يمكن أن تتم دراسة منهج المرابطين في العقيدة وفي غيرها من أمور الدين دراسة صحيحة إلا إذا عرضنا لما يقوله خصومهم من تهم ، وحاولنا أن نعرف ما إذا كانت صحيحة أم غير صحيحة ، وفيمايلي بيان ذلك.

---

١) شيخ الإسلام ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٤٨٦/١١-٤٨٧ ، وابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٨١ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٥١/١٩-٥٥٢ ، والفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ص ٢٦١-٢٦٢.

١

تهم ابن تومرت للمرابطين والرد عليها

التهمة الأولى [التجسيم]

لقد أعلن ابن تومرت على المرابطين حرباً لا هوادة فيها ، ولا ورحمة فاتهمهم بفساد العقيدة ، ووصفهم بأنهم مجسمون لله عز وجل ، ومن ثم فهم كفار..

حيث يقول : باب في وجوب جهادهم - أي المرابطين - على التجسيم ، والكفر ، وإنكار الحق(١).

وادعى ابن تومرت أن من قتل من أتباعه في حربهم مع المرابطين فهو شهيد ، ومن قتل من المرابطين الذين يسميهم [المجسمين] فهو في النار(٢).

وهذه مزاعم كاذبة ، لا تعتمد على الحقائق العلمية ، وإنما كان سببها محاولة تشويه المرابطين ، تمهيداً للخروج على سلطتهم الشرعية ، وتحقيق حلم ابن تومرت ، في الرياسة والظهور ، فلم يكن المرابطون مجسمين لله

---

١) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص ٢٤٩ ، تحقيق الدكتور عمار طالبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ١٩٨٥م.

٢) المصدر السابق نفسه : ص ٢٦٤.

عز وجل ولا مشبهين له بمخلوقاته - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - وإنما كانوا على مذهب السلف الصالح ، وهو إثبات الصفات لله عز وجل التي وصف بها نفسه في كتابه العزيز ، أو وصفه بها رسوله ﷺ في الذي صح عنه من سنته على الوجه اللائق به عز وجل ، من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تأويل ، ومن غير تجسيم ، ولا تشبيه.

وقد اتفق العلماء على تفنيد مزاعم ابن تومرت التي رمى بها المرابطين ، وعلى رأس هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يقول:
«واستحل - أي ابن تومرت - دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية ، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة ، على مذهب مالك وأهل المدينة ، يقرؤون القرآن والحديث ، كالصحيحين ، والموطأ ، وغير ذلك ، والفقه على مذهب أهل المدينة ، فزعم أنهم مشبهة ، مجسمة ، ولم يكونوا من أهل هذه المقالة ، ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم(١).

ونفى الذهبي هذه التهمة عن المرابطين أيضاً ، فذكر أن ابن تومرت سمى المرابطين بالمجسمين ، ثم قال:
«إن أهل المغرب ما كانوا يدينون إلا بتنزيه الله عز وجل ، ووصفه بما يجب له ، مع ترك الخوض فيما تقصر العقول عن فهمه ، فكفرهم ابن تومرت

١) مجموع الفتاوى : ٤٧٨/١١.

لجهلهم العرض ، والجوهر ، قال : إن من لم يعرف ذلك ، لم يعرف الخالق من المخلوق(١).

وقد وصف ابن كثير أحد قادة المرابطين البارزين وهو أبو بكر بن عمر ، بصفات طيبة ، ثم قال : وكان يسير في الناس سيرة حسنة مع صحة اعتقاده ودينه(٢).

أما الدكتور حسن أحمد محمود فذكر عقيدة المرابطين وبين أنها كانت سلفية ، لا تختلف عن عقيدة إمامهم الإمام مالك بن أنس رحمه الله - وغيره من أهل السنة والجماعة ، ثم قال : لم يتجاوز المرابطون الحدود التي رسمتها السنة ، وما أجمع عليه أهل المذاهب ، ولو كان المرابطون مجسمة كما يقول ابن تومرت ، لما كان شيخه أبو حامد الغزالي يبارك حركتهم وينظر إليها على أنها حركة إسلامية في الإتجاه الصحيح(٣).

وعلى أي حال ، فإن اتهام ابن تومرت للمرابطين بالتجسيم والكفر اتهام لأهل السنة والجماعة عموماً لأن سببه هو : اثبات الصفات لله عزوجل على الوجه اللائق به تعالى ، ونبذ علم الكلام وأهله ، وليس ابن تومرت أول المتكلمين الذين افتروا هذه الفرية على أهل السنة والجماعة.

فقد كفر المعتزلة ، من قبل من أجاز رؤية الله بالأبصار بلا تمثيل ولا

---

١) سير أعلام النبلاء ١٩/٥٥٠.

٢) البداية والنهاية ١٢/١٣٤.

٣) قيام دولة المرابطين ص ١٨٥.

تكييف(١).

فبعد فتح أبواب الترجمة للمنطق ، والفلسفة ، وإدخالهما في الأسماء والصفات ، لاجرائها على القوانين المنطقية العقلية ، واشتغال كثير من المسلمين بعلم الكلام ، أصبحت السمة العامة عند المتكلمين هي تقديم العقل على النقل ، فجعلوا الكتاب والسنة تابعين للعقل ، فما وافقه منهما أخذوا به ، وما خالفه خرجوه أو أولوه(٢).

أقول : منذ أن ترجم المسلمون هذه العلوم ، وأدخلوها في مباحث العقيدة ، والتهم توجه إلى أهل السنة والجماعة [السلفيين] من المدارس الكلامية(٣) على مر التاريخ ، ولكن يبقى صوت السلف عالياً بإذن الله تعالى..

---

١) عبدالقاهر البغدادي ، الفرق بين الفرق ص ١٦٦.

٢) راجع : ابن أبي العز ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٩٠ ، والمهابة بن سيدي محمد : مذهب السلف في التفويض في آيات الصفات وأحاديثها ، ص ١٤ ، تقديم وتحقيق الطالب : احمد بن سيدي حمود ، مكتب على الحاسب الآلي في جده ١٤١٠هـ.. ومحمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص ١٢٩-١٣٠.

٣) راجع : ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١١٠/٥-١١١ ، والمقريزي : الخطط ٣٥٨/٢ ، والبرزنلي : فتح الشكور ص ١٤١ ، ومحمد بن زاهد الكوثري في مقدمته وتعليقاته على كتاب : تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ١٢٣ ، والدكتور سفر بن عبدالرحمن الحوالي : مناهج الأشاعرة في العقيدة ص ١٤-١٥ ، ٣١ ، ٥٧ ، ٦٨.

التهمة الثانية

تعاون العلماء والأمراء على الظلم والباطل

في الحقيقة إن اتهام ابن تومرت لعلماء المرابطين وأمرائهم بالتعاون على الظلم، والفساد، أمر عجيب، يقوم على قلب الحقائق، وليس له من مبرر، اللهم إلا إذا كانت الغاية في الوصول إلى السلطة تبرر الوسيلة..

فقد قامت دولة المرابطين على مبادىء الإسلام، وإقامة العدل؛ ورفع الظلم، والقضاء على مظاهر الباطل والفساد.
ومن المبادىء المهمة التي تأسست عليها هذه الدولة مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان قادتها دعاة صالحين، لا يبتغون من الحياة الدنيا سوى الإصلاح(١).

لقد ادعى ابن تومرت أن علماء المرابطين كانوا أداة طبيعية في يد الأمراء، لتبرير الظلم والباطل حيث يقول: باب في معرفة أتباعهم الذين أعانوهم في ظلمهم وصدقوهم على كذبهم بأنهم الملبسون أعني المكارين الذين يضلونهم بغير علم، ويتوسلون بفتياهم إلى أباطيلهم وأهوائهم، كلما

---

١) ابن تومرت: أعز ما يطلب ص ٢٤٥-٢٤٦.

سألوهم عن شيء أفتوهم على ما وافق أهواءهم ، وأغراضهم ، فضلوا وأضلوا (١).

وللرد على ما زعمه ابن تومرت نقول : إن تعميم الحكم على علماء الدولة المرابطية ، وفقهائها بأنهم أعوان على الظلم والباطل أمر غريب جداً يخالف الواقع ، ويخالف أيضاً ما عرف من سيرة علماء المسلمين ومواقفهم المشرفة.

وقد بلغ العلماء والفقهاء في الدولة المرابطية مكانة عظيمة واشتد إيثار أمراء المرابطين لأهل العلم والدين ، وقربوهم ، وكانوا لا يقطعون أمراً دون مشورتهم ، ويرجعون إليهم الأمور ، صغيرها وكبيرها(٢)..
وكان فقهاء المرابطين أهل استقامة وزهد ، بعيدين عن الظلم والباطل لا يخشون في الحق لومة لائم ، ومواقفهم من الحكام صريحة ، وبعيدة عن المحاباة ، وقد كان شيخ المرابطين ومعلمهم الأول وقائد دعوتهم الإصلاحية ، ومؤسس دولتهم عبدالله بن ياسين - رحمه الله - ينفذ حدوده في الأمير فمن دونه(٣).

---

١) المرجع السابق نفس الصفحة.

٢) عبدالواحد المراكشي : المعجب ص ١٧١ ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٥٣/١٩ ، وحسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ١٢٤/٤.

٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٨٢/٨ ، وإبراهيم الجمل : المرجع السابق ص ١٣٧-١٣٩.

وكان أمراء المرابطين يمتثلون أوامره وتوجيهاته ، امتثالا عظيماً ويؤدبهم إذا رأى في ذلك مصلحة للدعوة الإسلامية.

فقد ذكر ابن عذارى المراكشي أنه قال للأمير يحيى بن عمر : أيها الأمير : عليك أدب ، فقال له يحيى : وما الذي أوجبه علي؟ فقال عبدالله لا أخبرك حتى أخذ حق الله منك ، ثم ضربه ضربات وقال له : إن الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هلاكهم(١).

وقد خلف عبدالله بن ياسين رحمه الله - فقهاء من تلاميذه ساروا على نهجه ، وعرفوا بالعلم ، والتقوى ، والاستقامة على الحق والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وحمدت سيرتهم ، ومن هؤلاء على سبيل المثال:

الفقيه أبو القاسم بن عذراء الجزولي ، وأخوه الفقيه سليمان بن عذراء ، وكانا يتوليان أمور المرابطين الدينية بعد وفاة شيخهما عبدالله بن ياسين - رحمه الله-..(٢).

والشيخ لمنادين بلين اللمتوني ، الذي كان من كبار الفقهاء وقد بلغ منزلة كبيرة في العلم ، والاستقامة ، والتقوى ، حتى إن المثل يضرب بفتياه في الصحراء(٣).

---

١) البيان المغرب ٤/١١ ، وحسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٦٤ وإبراهيم الجمل ، المرجع السابق ص ١٤٩.

٢) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٨/٨٠ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ١٤٣.

٣) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٨/٨٠ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ١٤٤.

والفقيه المحدث ميمون بن ياسين الصنهاجي(١).

والفقيه أبو محمد عبدالعزيز التونسي ، الذي اشتهر بالتقوى ، والزهد ، والورع ؛ توفي عام ٤٨٦هـ(٢).

وفي عهد علي بن يوسف بن تاشفين ، الذي ظهر فيه ابن تومرت وهو من العهود المشرقة في تاريخ المغرب الإسلامي ، حيث ازدهرت فيه العلوم الشرعية ، وبرز علماء أجلاء عرفوا بالإستقامة والورع والتقوى ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، منهم على سبيل المثال:

القاضي أبو عبدالله محمد بن سليمان الأنصاري ، كان من العلماء العاملين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، تولى القضاء في [مالقه] مدة طويلة ، فسار فيه سيرة العدالة والنزاهة ، اشتهر بالورع ، والزهد ، والصرامة في تنفيذ أحكام الشرع ، توفي عام ٥٥٠هـ(٣).

والقاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد : الذي عرف بالبراعة العلمية والاستقامة في الدين ، وكان ثاقب الذهن ، حافظاً للفقه ، مقدماً فيه على أهل عصره ، عارفاً للفتوى ، مع الفضل ، والورع ، والوقار ، والسمت الحسن ، كان قاضي الجماعة بقرطبة ، وإمام الصلاة بالمسجد الجامع بها ،

---

١) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٥٨ ، وإبراهيم الجمل : المرجع السابق ص ١٣٩.

٢) النادلي : التشوف إلى رجال التصوف ص ٩٢.

٣) أبو الحسن بن عبدالله النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٠٠.

توفي عام ٥٢٠هـ(١).

والقاضي أبو القاسم أحمد بن محمد بن حمدين التغلبي ، وكان عالماً فاضلا ، بارعاً ، ذكياً ، له اليد الطولى في العلوم الشرعية ، واللغة العربية ، تولى منصب قاضي الجماعة بقرطبة مرتين ، فسار فيه أحسن سيرة ، وكان نافذاً في أحكامه ، جزلا في أفعاله ، توفي عام ٥٢١هـ(٢).

والقاضي أبو الفضل ، عياض بن موسى اليحصبي ، الذي سقطت دولة المرابطين في آخر حياته ، وكان بحراً من بحور العلم ، مع الاستقامة ، والوقوف مع الحق ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تولى القضاء في سبتة ، وغرناطة ، فحمدت سيرته ، توفي عام ٥٤٤هـ(٣).

وقد سقنا هذه النماذج من علماء الدولة المرابطية كدليل على أن علماء هذه الدولة وفقهائها لم يكونوا جهلة ، ولا ضلالا مضلين ، كما زعم ابن تومرت ، بل الثابت عنهم عكس ذلك.

وقد مر قبل قليل أن عبدالله بن ياسين كان يقيم الحدود على الأمراء

---

١) المصدر السابق نفسه ص ٩٨-٩٩ ، ومحمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص ١٢٩.

٢) أبو الحسن عبدالله النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٣.

٣) الذهبي : سير أعلام النبلا ٢١٢/٢٠-٢١٧ ، وأبو الحسن عبدالله النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠١.

ويؤدبهم ، وكان المرابطون لا يعدلون عن تعاليمه ، ونهجه ، وكما يقول القاضي عياض : فقد ظلت سيرته معروفة محفوظة ، يثابر عليها مشيختهم(١).

ويؤكد الباحثون أن الكثير من فقهاء المرابطين كانوا أهل استقامة وزهد ، وورع ، وتقوى ، وأن الدولة المرابطية ظلت تراعي الكفاءة في المناصب الحيوية ، وخاصة في مجال القضاء ، فكان لا يتولى منصب القضاء فيها إلا من ثبتت جدارته ، ونزاهته ، وتمتع بحظ وافر من العلم(٢).

والمعروف أن دولة المرابطين قامت من أول يوم على تعاليم الإسلام ، وتوطيد دعائم الحق ، وأعلنت مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عنا لمنكر ، وشنت على الفساد والمنكرات حرباً لا هوادة فيها ، وأعادت إلى الأذهان صورة الدولة الإسلامية أيام الخلفاء الراشدين ، وكان أمراؤها الذين تولوا الحكم من عهد عبدالله بن ياسين إلى ظهور ابن تومرت قد أخذوا بنصيب وافر من العلم والصلاح ، والزهد ، والعبادة(٣).

فقد كان أبو بكر بن عمر(٤). زاهداً ، ورعاً ، تقياً ، وحاكماً ، عادلا ،

---

١) ترتيب المدارك : ٨٢/٨.

٢) عصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ١٤٤. وسلامة الهدفي ، المرجع السابق ص ٢٦٥.

٣) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ١٤٨ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ١٣٢.

متفانياً في الاخلاص للدعوة الإسلامية ، وهب حياته للجهاد في سبيل الله(١) .

وذكر عنه ابن كثير أنه اتفق له ما لم يتفق لغيره من الملوك ، وكان يقيم الحدود ، ويحفظ محارم الإسلام ، ويحوط الدين(٢).

وكان يوسف بن تاشفين المتوفى عام ٥٠٠هـ عابداً ، زاهداً ، شديد الخوف من الله عز وجل ، ناصراً للدين ، مظهراً للحق ، معظماً للعلماء ، ويصرف الأمور إليهم في كل صغيرة وكبيرة ، ويأخذ برأيهم ، ويقضي على نفسه ، ورعيته بفتياهم ، مجداً في الأمور ، موفقاً للصواب ، مؤدياً للرعية حقها ، ويرى صور الأمور على حقيقتها(٣).

وكان علي بن يوسف المتوفى عام ٥٣٧هـ الذي ظهر ابن تومرت في عهده يعتبر من الشخصيات النادرة في التاريخ ، فهو حاكم قوي ، عادل ، امتاز بالعلم ، والدين ، والورع ، والاستقامة ، وحسن الخلق ، والحزم ، والنباهة ، وكان مثل أبيه معظماً للعلماء ، لا يقطع أمراً دون مشورتهم ،

---

٤) تقدم الحديث بالتفصيل عن أبي بكر بن عمر في المبحث الثاني من الفصل الثاني.

١) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ٢٤/٤ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ٩٥ ، ١٠٥.

٢) البداية والنهاية ، ١٤٣/١٢ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ١١٣/٧.

٣) ابن عذارى : البيان المغرب ٤٦/٤-٤٧ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ١١٢/٧ ، وما بعدها ، والذهبي : سير أعلام النبلاء ٢٥٢/١٩-٢٥٤ ، وحسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ١١٩/٤.

والأخذ بفتياهم(١).

وإذا كان أمراء المرابطين قدموا العلماء والفقهاء وقربوهم وأخذوا بمشورتهم في كل صغيرة وكبيرة، وقضوا على أنفسهم بفتياهم، فإن هذا في حد ذاته يعتبر دليلا على صدق النية في الرغبة في العمل بتعاليم الإسلام.

ومن غير المعقول أن يطلب أمراء المرابطين من فقهائهم تبرير الفساد والذين هم بمنأى عنه، بل - كما قلت - فإنهم كانوا على جانب كبير من العلم، والصلاح، وإنما رماهم ابن تومرت بما رماهم به لتشويه دعوتهم السلفية، وقد تجاوز ذلك فقهاء المرابطين وأمراءهم إلى العداء الشديد لمذهب الإمام مالك - رحمه الله - الذي كانت تتبناه الدولة المرابطية، حيث بلغ كره الموحدين لهذا المذهب وعدائهم له لدرجة أنهم أحرقوا مدونة سحنون(٢).

---

١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٩/٥، وابن عذارى : البيان المغرب ٨٤/٤-٨٩، والذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢٤/٢٠، ومحمد عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين ٥١/١، وحسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ١٢٥/٤، وما بعدها.

٢) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١١٧.

التهمة الثالثة
سفور وجه المرأة المرابطية

يعتبر سفور وجوه النساء في شمال وغرب إفريقيا أمراً عادياً في القديم والحديث ، وقد اتخذ ابن تومرت من هذه العادة ذريعة لمهاجمة المرابطين ، فوصف نساءهم بأنهن يتشبهن بالرجال ، في عدم تغطية الوجه ، وأن تشبه النساء بالرجال حرام.. إذ يقول :

وهؤلاء المجسمون الكفار ، يتشبه نساؤهم بالرجال في الكشف عن وجوههم ، بلا تلثم ولا تنقب ، والتشبه بهم حرام(١).

والواقع أن كشف وجه المرأة أمر اختلف العلماء فيه قديماً وحديثاً ما بين مجوز ومحرم ، ومن المعلوم أن المرابطين كانوا على مذهب الإمام مالك - رحمه الله - والذي به العمل ، والفتوى في هذا المذهب ، أن وجه المرأة غير عورة.

يقول ابن عبد البر : والمرأة عورة ما عدا وجهها وكفيها(٢).

ويقول خليل بن إسحاق في مختصره - الذي ذكر أنه بين فيه ما به الفتوى - موضحاً ما يجب على المرأة ستره عن الأجنبي ، ما نصه:

---

١) أعز ما يلطب ، ص ٢٤٧.

٢) التمهيد لما في الموطأ من الأسانيد : ٢٢٩/١٦ ، تحقيق الدكتور عمر الجيدي ، وسعيد أحمد أعراب ، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ١٤٠٥هـ.

"ومع أجنبي غير الوجه والكفين"(١).

وقد نهى الله عز وجل النساء عن إبراز زينتهن للناظرين الأجانب واستثنى ما يظهر من الزينة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾(٢).

واختلف العلماء في تحديد الزينة الظاهرة المذكورة في قوله تعالى ﴿إلا ما ظهر منها﴾ ، فذهب جمهور العلماء إلى أن المراد بالزينة الظاهرة المذكورة في هذه الآية هو الوجه والكفان.

وممن قال بذلك عبدالله بن عباس ، رضي الله عنهما - والأئمة الثلاثة : أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي - رحمهم الله.

وذهبت طائفة إلى أن ظاهر الزينة هو الثياب فقط ، ولا يدخل في ذلك الوجه والكفان ، وأن المرأة كلها عورة ، ومن القائلين بذلك عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، وابن سيرين ، وإبراهيم النخعي ، والإمام أحمد بن حنبل ، رحمهم الله.

واختار الشنقيطي - رحمه الله - هذا المذهب ودافع عنه بقوة في كتابه [أضواء البيان](٣).

---

١) مختصر خليل بن إسحاق ص ٢٦ ، تعليق الشيخ أحمد نصر ، المكتبة التجارية الكبرى ١٣٩٢هـ.

٢) سورة :

٣) من جملة كلام الشيخ محمد الأمين في دفاعه عن هذا المذهب قوله : إن قول من قال في معنى : ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، الوجه والكفان مثلا ، توجد في الآية قرينة تدل على عدم

وذهب سعيد بن جبير ، وعطاء ، والأوزاعي - رحمهم الله - إلى أن ظاهر الزينة هو الوجه والكفان ، والثياب ، فكأنهم جمعوا القولين السابقين.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما - وقتادة ، والمسور بن مخرمة رحمهما الله ، أن ظاهر الزينة هو : الكحل ، والسوار ، والخضاب ، إلى نصف الذراع ، والخواتم ، ونحو ذلك(١).

قال الطبري في تفسيره بعد إيراد الأقوال في المسألة : أولى الأقوال عندي بالصواب قول من قال : عنى بذلك الوجه والكفان ، ويدخل في ذلك الكحل ، والخاتم ، والسوار ، والخضاب ، وإنماقلنا في هذا أنه أولى الأقوال لاجماع الجميع على أن على كل مصل أن يستر عورته في صلاته ، وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في صلاتها ، وأن عليها أن تستر ما عدى ذلك من بدنها(٢).

صحة هذا القول ، وهي : إن الزينة في لغة العرب هي ما تتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها ، كالحلي والحلل ، فتفسير الزينة ببعض بدنا لمرأة خلاف الظاهر ، ولا يجوز الحمل عليه ، إلا بدليل يجب الرجوع إليه وبه تعلم أن قول من قال : الزينة الظاهرة : الوجه والكفان خلاف ظاهر معنى لفظ الآية ، وذلك قرينة على عدم صحة هذا القول ، فلا يجب الحمل عليه إلا بدليل منفصل يجب الرجوع إليه.. أضواء البيان ١٩٨/٦-١٩٩ ، مطبعة المدني ، المؤسسة السعودية ، مصر.

١) راجع عن هذا الموضوع الكتب التالية : ابن جرير الطبري : جامع البيان عن تأويل القرآن : ١١٧/١٨-١١٩ ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٢٢٨/١٢-٢٣٠ ، وتفسير ابن كثير ٢٨٣/٣ ، والشوكاني : فتح القدير ٢٣/٤ ، ومحمد الأمين بن محمد المختار : أضواء البيان ١٩٢/٦-٢٠٢ ، ٥٩٧ ، وما بعدها ، طبعة عالم الكتب ، بيروت ، [د. ت] وابن رشد الحفيد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد : ١١٥/١ ، الطبعة السادسة ، دار المعرفة ١٤٠٣هـ.

وقال القرطبي معقباً على قول ابن عطية ، وخلاصته : أن المعفو عنه للمرأة من إظهار الزينة هو ما تدعو إليه الضرورة ، قال : هذا قول حسن إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة ، وذلك في الصلاة ، والحج ، فيصلح أن يكون الاستثناء في الآية راجعاً إليهما(١).

واستدل بعض العلماء لهذا الوجه من تفسير الآية بحديث عائشة رضي الله عنها الذي رواه أبو داود(٢) أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها عليه الصلاة والسلام ، وقال : يا أسماء : إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه.. وهذا الحديث قواه الألباني بتعدد الطرق(٣).

وهذه الأقوال التي تبيح للمرأة كشف شيء من بدنها يشترط فيها ألا يؤدي ذلك إلى فتنة ، أو مفسدة ، أما إذا خشيت الفتنة فإن المجيزين لكشف الوجه والكفين يختلفون : فيرى بعضهم أن المرأة يجب عليها سترهما حينئذ ، ويرى آخرون أنه لا يجب عليها سترها ، وإنما يجب على

---

٢) جامع البيان عن تأويل القرآن ١١٩/١٨.

١) الجامع لأحكام القرآن ٢٢٩/١٢.

٢) سنن أبي داود ٦٢/٤ ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، [د. ت].

٣) قال الألباني : فيه سعيد بن بشير ، وهو ضعيف ، لكن الحديث جاء من طرق أخرى يتقوى بها ، راجع كتابه حجاب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة ، الطبعة السابعة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، دمشق ١٤٠٥هـ.

الأجنبي غض البصر عن النظر إليهما(١).

وقد سقنا أقوال العلماء في حكم كشف المرأة عن وجهها لنبين بذلك أن هذه التهمة التي رمى بها ابن تومرت المرابطين ليست صحيحة وهي أن كشف وجه المرأة تشبه بالرجال، والتشبه بهم حرام.

ذلك أن كشف النساء عن وجوههن لا يعد تشبهاً بالرجال أصلا، ولم يقل أحد من المسلمين بذلك فيما أعلم.. إلا ابن تومرت.

بل إن جمهور العلماء أصحاب المذاهب - رحمهم الله - ومنهم الإمام مالك الذي تبنى المرابطون مذهبه - أجازوا للمرأة كشف وجهها وكفيها كما رأينا، فالمرابطون خلاصة أمرهم أنهم ساروا على نهج الإمام مالك رحمها لله، وفتياه في هذه القضية، وما قاله جمهور علماء المسلمين.

فتهمة ابن تومرت إذن تهمة باطلة، وباردة، وإن كنت أرى أن ستر وجه المرأة وكفيها أطهر لقلوب الرجال والنساء، وأبعد عن أسباب الفتنة، وأقوى في جانب الاحتياط، لا سيما في هذا الزمان، الذي كثر فيه الفساد، وتيسرت وسائله، وكادت أن تعم به البلوى.

ولا يخفى أن وجه المرأة هو أصل جمالها، ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها، كما هو معروف، لذا فإن الأولى أن نحتاط ونبتعد عن أسباب الفتنة، ونكون على تمام المحافظة خشية الوقوع فيمالا ينبغي.

---

١) صالح عبدالسميع الأبي الأزهري، جواهر الإكليل شرح مختصر خليل ٤١/١، دار الفكر بيروت، [د. ت] والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢٢٩/١٢.

الفصل الرابع

دخول الأشعرية في المغرب
وانتشارها في موريتاني

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : دخول الأشعرية في المغرب.

المبحث الثاني : انتشار الأشعرية في موريتانيا.

○○○

المبحث الأول
دخول الأشعرية في المغرب

سبق أن ذكرنا أن المغرب الإسلامي ظل على الصعيد التاريخي العام قبل ظهور دعوة ابن تومرت على عقيدة السلف ، وفي هذا الفصل سوف نتعرض لدخول العقيدة الأشعرية في بلاد المغرب الإسلامي ، وانتشارها في القطر الموريتاني.

لقد درج المؤرخون وعلى رأسهم ابن خلدون على أن الأشعرية لم تكن معروفة في هذه البلاد حتى جاء بها ابن تومرت حيث يقول: «وجاء المهدي على أثرهم - أي المرابطين - داعياً إلى الحق آخذاً بمذاهب الأشعرية ، ناعياً على أهل المغرب عدولهم عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة ، وما يؤول إليه ذلك من التجسيم ، كما هو معروف في مذهب الأشعرية(١).

ويقول ابن خلدون ايضاً في تاريخه : إنه - أي ابن تومرت - لقي أئمة الأشعرية بالمشرق وأخذ عنهم واستحسن طريقتهم وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه ، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن اتباعهم في التأويل ،

---

١) المقدمة ص ٢٣٠ ، وراجع سير أعلام النبلاء المصدر السابق ٥٤٨/١٩.

فطعن على أهل المغرب في ذلك وحملهم على القول بالتأويل ، والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد ، وأعلن إمامتهم ووجوب تقليدهم(١).

وقد حذا المقريزي حذو ابن خلدون عندما عرض لوصول العقيدة الأشعرية إلى بلاد المغرب وانتشارها بقوله:
«وتوجه أبو عبدالله محمد بن تومرت إلى العراق ، وأخذ مذهب الأشعري عن أبي حامد الغزالي ، ولما عاد الى المغرب قام في المصامدة ، ووضع لهم عقيدة تلقفها عنه عامتهم ، وبعد وفاته خلفه تلميذه عبد المؤمن بن علي(٢). وتغلب على المغرب ، وصارت دولة الموحدين تستبيح دماء من خالف عقيدة ابن تومرت ، فكان هذا هو سبب اشتهار مذهب الأشعري وانتشاره(٣).

والحقيقة أن ابن تومرت ليس هو أول من أدخل العقيدة الأشعرية إلى بلاد المغرب ، بل دخلت قبله في وقت مبكر ، فالمعروف أن الفقيه أبا عمران الفاسي المتوفى عام ٤٣٠هـ رحل إلى بغداد في عام ٣٩٩هـ وتلقى

---

١) العبر : ٢٢٦/٦.

٢) هو أبو محمد عبدالمؤمن بن علي القيسي ، درس على محمد بن تومرت ، وبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء ، والعسر ، واليسر ، والأمن ، والخوف ، عهد له ابن تومرت بالخلافة من بعده ، وبايعه الموحدون بعد وفاة ابن تومرت عام ٥٢٤هـ توفي عام ٥٤٨هـ ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ٢٠٢ ، وعبدالواحد المراكشي : المعجب ص ١٨٠-١٨١.

٣) المقريزي : الخطط ٣٥٨/٢ ، وعبدالله بن محمد الغنيمان : شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ، الطبعة الأولى دار المزي جدة ١٤٠٥هـ.

أصول المذهب عن القاضي أبي بكر البالاقني المتوفى عام ٤٠٣هـ(١).

كما رحل أبو الوليد الباجي المتوفى عام ٤٧٤هـ الى المشرق وتردد على كثير من مراكز العلم ، وجلس بالموصل سنة فأخذ عن أبي جعفر السمناني المتوفى عام ٤٤٤هـ(٢).

ويذكر أن الفقيه أبا بكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي المتوفى عام ٤٨٩هـ هو أول من أدخل علوم الاعتقادات(٣).. إلى المغرب الأقصى(٤).

ورحل أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي المعافري المتوفى عام ٥٤٣هـ إلى بغداد ودرس في المدرسة النظامية(٥). وأخذ العقيدة الأشعرية

---

١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢٤٤/٧ ، تحقيق : سعيد أحمد إعراب ، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية بالمملكة المغربية ١٤٠٢هـ.

٢) المصدر السابق نفسه ١١٧/٨-١١٨ ، ومحمد السليماني : مقدمة قانون التأويل لابن العربي ص ٤٠ ، وعبدالمجيد تركي : مناظرات في أصول الشريعة ، ترجمة وتحقيق الدكتور عبدالصبور شاهين ، ومراجعة الدكتور محمد عبدالحليم محمود ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٤٠٦هـ.

٣) يذكر الدكتور علي سامي النشار : أن المراد بعلوم الاعتقادات هو العقيدة الأشعرية ، راجع مقدمته لكتاب السياسة لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي ص ٢٧.

٤) التادلي : التشوف إلى رجال التصوف ، ص ١٠٦ ، وعصمت عبداللطيف ، المرجع السابق ص ١٤٣.

٥) أنشأ هذه المدرسة في بغداد الوزير السلجوقي : نظام الملك المتوفى عام ٤٨٦هـ وافتتحت رسمياً سنة ٤٥٩هـ وتقتصر مناهجها الدراسية على دراسة الفقه الشافعي وفن الكلام على طريقة الأشعري ، ومن أهم أهدافها مناهضة المذاهب العقدية الأخرى ولا سيما المعتزلة

عن أبي حامد الغزالي ، وإسماعيل الطوسي(١). وعاد إلى بلاد المغرب عام ٤٩٤هـ(٢).

وكان ذلك قبل رحلة ابن تومرت إلى المشرق بست سنوات(٣).

وقبل عودته إلى المغرب من هذه الرحلة ، بعقد ونصف من الزمن ، حيث توجه إلى بلاد المغرب عائداً من هذه الرحلة عام ٥١٠هـ(٤).

وهنا قد يتساءل البعض قائلا : إذا كان هؤلاء العلماء قد رحلوا إلى العراق واعتنقوا العقيدة الأشعرية فيه ، وعادوا إلى بلادهم في المغرب قبل أن يغادر ابن تومرت مسقط رأسه في المغرب متوجهاً إلى المشرق ، فلماذا يكون الرأي السائد عند كثير من المؤرخين ، والباحثين ، أن ابن تومرت هو الذي أدخل الأشعرية في بلاد المغرب؟.

والجواب عن ذلك كالتالي:

والإمامية ، راجع ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٠٤/١٥ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ٣٩٥/١. والذهبي : سير أعلام النبلاء ٩٤/١٩ ، ومحمد السليماني : دراسة وتحقيق لكتاب قانون التأويل لابن العربي ص ٤٥٠.

١) هو أبو القاسم إسماعيل بن عبدالملك الحاكمي الطوسي ، من تلاميذ الجوني كان رفيق الغزالي ، يحترمه ويكرمه وكان فقيهاً بارعاً ، وعابداً ، وورعاً ، توفي بطوس عام ٥٣٠هـ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣٥١/٨.

٢) ابن العربي ، قانون التأويل ص ٨٨ ، ٤٤٦ ، ٤٥٤ ، والذهبي : تذكرة الحفاظ ١٢٩٤/٤-١٢٩٧ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت [د. ت].

٣) ذكر عبدالواحد المراكشي في كتابه : المعجب ص ١٧٨ : أن محمد بن تومرت رحل إلى المشرق في طلب العلم عام ٥٠١هـ وانتهى إلى بغداد فسمع الحديث بها ودرس شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين.

٤) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٧٣.

لا شك أن أهل المغرب الإسلامي عرفوا العقيدة الأشعرية قبل ظهور ابن تومرت ، ولكن هذه المعرفة اقتصرت على بعض العلماء الأفراد ، ولم يشتهروا بالدعوة لها..

أما بعد عودة ابن تومرت من رحلته المشرقية فقد تغير الحال تغيراً جذرياً حيث حمل ابن تومرت لواء الدعوة إلى العقيدة الأشعرية ، وقام بتشويه مذهب السلف ومحاربة أهله ، ومكن للعقيدة الأشعرية بالقوة حتى فرضها مشرباً عقدياً وحدياً تساندة دولة بكاملها ، وأصبحت الأشعرية هي السائدة في المنطقة ، بينما كانت محصورة في أفراد من العلماء ، كما مر - ويؤكد كثير من المراجع أن العقيدة الأشعرية لم يكن لها وجود لدى جماهير الناس ، ولا في مناهج الدراسة ، إلا بعد نجاح دعوة ابن تومرت في الاستيلاء على الحكم في بلاد المغرب(١).

ولذلك فإن ابن تومرت يعتبر هو الذي أدخل الأشعرية إلى بلاد المغرب ، دخولا له تأثير على جماهير الناس ، ومكن لها في البلاد حتى أصبحت هي العقيدة السائدة بعد أن كان أهل المغرب يتنافرون هذه العلوم(٢).

---

١) راجع : ابن خلدون : العبر ٢٢٧/٦ ، وأحمد المختار : إكمال تحفة الألباب ٩٢/٣ ، ومحمد السليماني : مقدمة قانون التأويل ص ٣٩-٤١ ، والسيد محمد أبو العزم المرجع السابق ، ص ٢٥٩ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ١١٧.

٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٤٨/١٩.

ولا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل دعوة ابن تومرت ، وإنما نقتصر على ذكر الحملة العنيفة التي شنها الموحدون على أهل السنة والجماعة ، فبعد أن استتب الأمر في المغرب لأتباع ابن تومرت عام ٥٤٢هـ قاموا بتعقب الدولة المرابطية ، تعقباً لا هوادة فيه ولا رحمة ، واستأصلوا شأفة انصارها البارزين ، وضربوا على أيدي فقهاء المالكية السلفيين الذين كانت لهم اليد الطولى في عهد المرابطين ، واستحلوا دماء أهل السنة ، وقتلوا منهم خلائق لا يحصيها إلا الله خالقها ، وفرضوا العقيدة الأشعرية في المغرب بالسيف(١).

١) المقريزي : الخطط ٣٥٨/٢ ، وابن أبي زرع : الأنيس المطرب ص ١٨٦ ، وعبدالله حميده ، المرجع السابق ص ٢٣.

المبحث الثاني
انتشار العقيدة الأشعرية في موريتانيا

تمهيـــد :

تقدم الحديث في المبحث السابق عن دخول الأشعرية في بلاد المغرب بوجه عام ، وفي هذا المبحث سوف نتناول انتشارها في موريتانيا ، وقبل الدخول في تفاصيل الموضوع ، أريد أن أشير إلى أمرين:

أولهما : أن الأوضاع الدينية ، والثقافية ، والسياسية ، ظلت غامضة في بلاد شنقيط ، من نهاية الدولة المرابطية حتى القرن العاشر الهجري(١).

وثانيهما : أن موريتانيا والمغرب لم يعودا يشكلان دولة واحدة بعد زوال حكم المرابطين ، ولم تعد لأي واحدة منهما سلطة على الأخرى ، وإن كانت الصلاة العلمية والدينية ظلت بينهما على مدى التاريخ(٢).

لقد مر معنا أن الموحدين استتب لهم الأمر في المغرب وضربوا على أيدي فقهاء المالكية السلفيين ، وفرضوا العقيدة الأشعرية ، ولكننا لم نتحدث عن انتقال العقيدة الأشعرية إلى بلاد شنقيط ، وانتشارها في تلك

---

١) معهد البحوث ، المرجع السابق ص ١٦ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ١١٣.

٢) راجع معهد البحوث ، المرجع السابق ، ص ١٦، ٧٨ ، وعبدالله حميده : المرجع السابق ص ٢٣.

المنطقة ، ومتى؟ وكيف تم ذلك؟..

هذا ما سنحاول الإجابة عليه ، على الرغم من أن الأوضاع في بلاد شنقيط في هذه الفترة ظلت غامضة إلى حد تعسر معه معرفة الحقيقة ذلك أن المصادر لا تذكر من أخبار هذه الحقبة التاريخية من حياة موريتانيا إلا القليل.

إن انقسام المنطقة بعد نهاية حكم المرابطين إلى دولتين : مغربية وصحراوية ، تعرف ببلاد شنقيط ، أدى إلى عزلة هذه الأخيرة وجهالة ما يجري فيها من أوضاع ، ومع هذا الغموض فإن بعض المصادر تذكر أن رحلة العلماء المغاربة الى بلاد شنقيط استمرت لفترة طويلة ، وإن عدداً من هؤلاء العلماء استقروا في مناطق مختلفة من البلاد ، وكانوا يدرسون فيها علوم الدين في فترات متفاوتة ، وفي الوقت ذاته زار المنطقة عدد من الرحالة ، تحدثوا عن بعض المجالات فيها ، ولم يتحدثوا عن الحالة العقدية ، والدينية ، بوجه عام ، عدى ابن بطوطة ، فإنه تحدث عن بعض الجوانب الدينية ، ولم يتطرق لجانب العقيدة ، وقد خص مدينة ولاته بالجانب الأكبر من اهتمامه ، حيث أقام بها خمسين يوماً ، واستضافه أهلها وأكرموه.

يقول في حديثه عن أهل هذه المدينة : وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلما لفقه وحفظ القرآن ، وأما نساؤهم فلا

يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات(١).

وقال ابن بطوطة : إن معظم سكان منطقة ولاته من قبيلة مسوفة وأنهم لا غيرة لهم على نسائهم(٢).

كما تحدث عن نظام التوريث في ولاته وقال : إنه مخالف لأحكام التوريث في الإسلام(٣).

أما العلماء الذين قدموا على المنطقة ودرسوا فيها علوم الدين فهم كثيرون ، وسنقتصر على ذكر أمثلة منهم فيما يلي وهم:

١- نور الدين أبو الحسين علي بن أحمد بن محمد عبدالله الأنصاري العالم النحوي ، المتوفى عام ٧٢٤هـ رحل من المغرب إلى بلاد التكرور(٤) . وأقرأ فيها القرآن ، ثم قدم على القاهرة ، وأخذ عنه العربية بها جماعة منهم جمال الدين الأسنوي(٥).

---

١) رحلة ابن بطوطة ص ٦٦١.

٢) المصدر السابق والصفحة نفسها.

٣) سيأتي كلامه عن نظام التوريث في الفصل الآتي

٤) عرفت بلاد موريتانيا بإسم [بلاد التكرور] في مرحلة سابقة ، كما تقدم في الفصل الأول صفحة : ٥٢ واعتمد أبو عبدالله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي هذه التسمية في تأليفه عن أعيان المنقطة ، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور .. وقال في تعيين المنطقة : والتكرور إقليم واسع ممتد شرقاً إلى ادغاغ ومغربا الى بحر بني الزنافيو وجنوباً الى بيط وشمالا الى آدرار ، فتح الشكور ص ٢٦.

٥) المصدر السابق نفسه ص ١٩٦.

٢- عبدالله بن أحمد بن سعيد بن يحيى بن معاوية الزموري العالم المؤرخ الأديب شارح كتاب ، [الشفا] رحل إلى مدينة ولاته واستقر فيها ، ودرس بها العلوم الشرعية ، وكان حياً في عام ٨٨٨هـ(١).

٣- أحمد الذهبي : الشريف التلمساني ، الفقيه ، رحل إلى مدينة شنقيط وأقام بها مدة ، يدرس علوم الدين ، وهو أول من درس مختصر خليل ابن اسحاق في موريتانيا ، وكان حياً في نهاية القرن العاشر الهجري(٢).

٤- الشاب الشاطر : وهو شريف علوي حسني من أهل مدينة فاس ذكره البرتلي باسم : الشريف الشاب ، وقال إنه كان حياً في عام ١٠٤٥هـ وأشاد بعلمه ، وذكر أنه جمع بين الشريعة والحقيقة(٣).

وذكره أحمد بن الأمين باسم : الشاب الشاطر ، وبه يعرف في شنقيط المدينة والقطر..

يقول ابن الأمين : وهو من العجائب ، وساق طرفاً من قصته ، وما ظهر على يديه من خوارق العادات ، وقال : إن أهل شنقيط وجدوه بحراً لا ساحل له ، وأنه اختار منهم أربعة طلاب أذكياء وركزوا على تعليمهم ، ولما

---

١) عبدالله حميدة ، المرجع السابق ص ٩٧.

٢) الخليل النحوي ، المرجع السابق ص ٧٣ ، ٩٨.

٣) البرتلي : فتح الشكور ص ٢١٣-٢١٤.

أراد السفر عنهم عائداً إلى بلاده قال لهم : تركت فيكم المحمدين والعبدلين(١) ، ويعني بذلك الأربعة الذين كان يعلمهم.

ومع أن الأوضاع الدينية في هذه الفترة لا يزال فيها غموض فإننا نجد بعض المصادر التي تحدثت عن الحالة العقدية في هذه الحقبة التاريخية تصفها بأنها سيئة.. وأهم هذه المصادر رسالة محمد بن محمد بن علي اللمتوني التي أرسلها إلى جلال الدين السيوطي في شوال عام ٨٩٨هـ.
وجاء في هذه الرسالة ما يدل على أن بعض أهل تلك البلاد رجعوا إلى الشرك والوثنية ، بعد عهد المرابطين ، حيث يقول صاحبها فيها:
"ومنهم من عادته بناء المساجد ، وتلاوة القرآن ، والعلوم ، والمدائح ، والحج ، ومع ذلك يعبدون الأصنام ، ويذبحون لها ، ومنهم من يجحد البعث ، والحشر ، والنشر ، والحساب ، والثواب ، والعقاب ، وعندهم طلمسات للنكاح ، والبيع ، والشراء ، والمحبة ، وغير ذلك(٢).

كما أن الفقهاء ابتعدوا عن الكتاب والسنة حيث ورد في هذه الرسالة عن فقهاء في تلك البلاد : عادتهم ترك القرآن والسنة ، وأخذ الرسالة ، والمدونة الصغرى ، وابن الجلاب ، والطليطلي ، وابن الحاجب ، حتى عادوا من يفسر القرآن ، وإذا سمعوا آية تتلى لتفسيرها نفروا

---

١) أحمد بن الأمين : الوسيط ص ٥٧٨-٥٧٩.

٢) السيوطي : الحاوي للفتاوى ٢٨٧/١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٢هـ.

عنها نفرة الحمر الوحشية(١).

وعلى أي حال فإن هذه الفترة هي التي انتشرت فيها العقيدة الأشعرية وسادت فيها ، وسيكون الحديث عن بداية الانتشار الحقيقي للأشعرية في القطر الموريتاني ، وأسباب ذلك في الموضوع التالي ، إن شاء الله تعالى.

بداية الانتشار الحقيقي للأشعرية وأسبابه

بدأت العقيدة الأشعرية تنتشر وتترسخ في القطر الموريتاني حيث ظهر علماء أشاعرة مشاهير في المغرب ، ونقلت مؤلفاتهم إلى محاضر موريتاني ، واعتمدت جزءاً من مناهجها ، وفي الوقت ذاته اتجهت أفواج من الطلاب إلى مراكز العلم في المغرب ، وتلقوا تعليمهم فيها على أيدي علماء أشاعرة ، ثم عادوا إلى بلادهم ، ونشروا فيها العلوم التي درسوها. وسنحاول فيما يلي أن نلقي الضوء على ذلك:

لقد كان من أهم الأسباب التي أدت إلى انتشار المذهب الأشعري

١) المصدر السابق نفسه ١/٢٨٧-٢٨٨.

في المنطقة ظهور السنوسي(١) في المغرب، رائداً للمذهب الأشعري. فقد كان لبروزه دور مهم في ثقة الموريتانيين في علمه، وإقبالهم على مؤلفاته، ونقلها إلى بلادهم، وذلك لأن السنوسي كما كان رأس الأشعرية، كان أيضاً رأس المالكية في المغرب في زمنه، فكان ذلك حافزاً للإقبال على مؤلفاته في العقيدة، واعتمادها في مناهج المحاضر(٢).

وقد اعتنى الموريتانيون بمؤلفات السنوسي في العقيدة الأشعرية، عناية فائقة، فكانوا يستقصون في دراستها فيستوعبونها حفظاً وفهماً، ثم يقومون بنظمها وشرحها بعد ذلك(٣).

ويتضمن هذا المعنى كلام المختار بن بون في وسيلته حيث يقول:

نظماً حوى عقائد الشريف	محمد السنوسي الظريف
لخصت فيه ما حوته الصغرى	مع ضمن وسطاه وضمن الكبرى
سميته وسيلة السعادة	في نشر ما تضمن الشهادة(٤)

---

١) هو أبو عبدالله محمد بن يوسف الحسن السنوسي العلامة المتكلم المنفش شيخ العلماء، والزهاد، والأساتذة العباد، العارف بالله تعالى، الجامع بين العلم والعمل، له تآليف كثيرة خصوصاً في العقائد، ومن ذلك: الكبرى وشرحها، والوسطى وشرحها، والصغرى وشرحها، وصغرى الصغرى وشرحها، وشرح أسماء الله الحسنى، وله مختصر في المنطق، وشرح عليه، توفي بتلمسان عام ٨٩٥هـ البيجوري على متن السنوسية ص ٢، دار إحياء الكتب العربية في مصر [د. ت] ومحمد مخلوف: شجرة النور الزكية ص ٢٦٦.

٢) راجع المبحث الرابع من الفصل الأول

٣) محمد يوسف مقلد: شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون ص ٣٣٧.

٤) المختار بن بون، وسيلة السعادة ص ٦، مخطوط، توجد عندي صورة منه.

وظهر من بعد السنوسي عبدالواحد(١) بن عاشر ، وكان لكتبه رواج وتأثير كبير ، ولا سيما مقدمته في العقيدة الأشعرية التي بدأ بها نظمه المسمى «المرشد المعين على الضروري من علوم الدين» حيث أن هذا النظم يدرس للتلاميذ في المراحل الأولى من الدراسة.

ومن علماء المغرب الأشاعرة الذين اعتنى الموريتانيون بمؤلفاتهم أحمد المقري(٢) فقد كان لكتبه تأثير عميق في المؤسسات التعليمية [المحاضر] ولا سيما منظومته المسماة [إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة] التي قال عنها العلامة بداه بن البصيري : إن عليها الاعتماد في بوادي وحواضر تلك البلاد(٣).

---

١) هو أبو محمد عبدالواحد بن أحمد بن علي بن عاشر الأنصازي الأندلسي ، ثم الفاسي ، له اليد الطولى في كثير من العلوم ، وخاصة في علم القراءات ، وتوجيهاتها ، وعلم الكلام ، والمنطق ، والفقه ، وأصوله ، والفرائض ، والنحو ، والبيان ، والعروض ، والطب ، وعلم الحساب ، ت ١٠٤٠هـ محمد الطالب بن الحاج علي مبارة : شرح المرشد المعين لابن عاشر ص ٣-٤ ، المكتبة النجارية الكبرى ، توزيع دار الفكر بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ ومحمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص ٢٩٩-٣٠٠.

٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد المقري الملقب شهاب الدين ، ولد في تلمسان عام ٩٨٦هـ ، كان من أبرز علماء عصره ، ولا سيما في العقيدة الأشعرية والفقه المالكي ، كثير الترحال في الأقطار الإسلامية ، له مؤلفات عديدة منها [نفح الطيب عن غصن الأندلس الرطيب] ، يقع في سبع مجلدات ، توفي بمصر عام ١٠٤١هـ محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص ٣٠٠-٣٠١ والدكتور إحسان عباس ، مقدمة كتاب نفح الطيب لأحمد المقري ٥/١ وما بعدها ، طبعة صادر بيروت ١٣٨٨هـ.

هذه نماذج من المؤلفات المغربية التي اعتمدت في محاضر موريتانيا وهي تمثل مذهب الأشعري الأوسط ، الذي رجع عنه إلى عقيدة أهل السنة والجماعة ، التي دونها في كتابه الإبانة.

والمعروف أن الأشعرية يقسمون الصفات الإلهية ، فيثبتون بالعقل ما يسمونه : الصفات النفسية ، والسلبية ، وصفات المعاني ، والصفات المعنوية ، ويؤولون الصفات الفعلية(١).

---

٣) بداه بن البصيري : الدر النضير في علم الكلام وحقيقة التوحيد ، ص ١.

١) راجع الدسوقي على أم البراهين للسنوسي ص ٩٢ ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ، لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه [د. ت].

وسنورد هنا نصوصاً من هذه المؤلفات التي ظل عليها المغول في تلك البلاد.

يقول السنوسي: «فمما يجب لمولانا عز وجل عشرون صفة وهي: الوجود، والقدم، والبقاء، ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه، والوحدانية، فهذه ست صفات الأولى نفسية، وهي الوجود، والخمسة بعدها سلبية، ثم يجب له تعالى سبع صفات تسمى صفات المعاني وهي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام الذي ليس بحرف ولا صوت، ثم سبع صفات تسمى صفات معنوية، وهي: ثلاثة للسبع الأولى وهو: كونه تعالى قادراً، ومريداً، وعالماً، وحياً، وسميعاً، وبصيراً، ومتكلماً، ومما يستحيل في حقه تعالى عشرون صفة وهي أضداد العشرين الأولى..»(١).

وفي مسألة أفعال العباد يقول السنوسي: ينسب الفعل لله خلقاً واختراعاً، وللعبد كسباً واقتراناً، فلا استحالة في دخوله تحت قدرتين لاختلاف جهة التعلق أعني الخلق والكسب(٢).

وقد بين عبدالواحد ابن عاشر اتجاهه الديني الذي أراد تحريره في نظمه المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، سواء في ذلك

---

١) محمد بن يوسف السنوسي أم البراهين ضمن كتاب مجموع مهمات المتون ص ٣-٤، الطبعة الرابعة، دار الفكر ١٣٦٩هـ.

٢) محمد بن يوسف السنوسي أم البراهين مع حاشية الدسوقي ص ٩٢.

العقيدة أو الفقه أو التصوف، وذلك بقوله:

في عقد الأشعري وفقه مالك — وفي طريقة الجنيد(١) السالك(٢)

ثم بدأ الحديث عن الصفات الإلهية بقوله:

يجب لله الوجود والقدم — كذا البقاء والغنى المطلق عم

وخلفه لخلقه بلا مثال — ووحدة الذات ووصف والفعال

وقدرة إرادة على حياة — سمع كلام بصر ذي واجبات

ويستحيل ضد هذه الصفات — العدم الحدوث ذا الحادثات

والسمع والبصر والكلام — بالنقل مع كماله ترام

قال الشارح:

يجب له تعالى وجوباً عقلياً مختصاً به أن يتصف بهذه الصفات الثلاث عشرة(٣).

وقد صرح أحمد المقري في البيت الأول من إضاءته بأنه أشعري

---

١) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي، قال عنه الذهبي: إنه شيخ الصوفية، أتقن العلم عن نفسه، ما أخذنا التصوف عن القال والقيل، بل عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات، وعلمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث، ولم يتفقه لا يقتدي به ت ٢٩٧هـ. سير أعلام النبلاء ١٤/٦٦-٧٠، تحقيق أكرم البوشي وشعيب الأرنؤوط، والخليل النحوي، المرجع السابق ص ١٢٠.

٢) عبدالواحد بن عاشر: المرشد المعين على الضروري من علوم الدين مع شرحه الحبل المتين، لمحمد بن محمد المراكشي: الناشر: مكتبة القاهرة، شارع الصنادقية بميدان الأزهر ١٣٩١هـ.

٣) المصدر السابق نفسه ص ٤، ٧.

العقيدة بقوله:

يقول أحمد الفقير المقري المغربي المالكي الأشعـري(١)

وسلك في إضاءته المنهج الأشعري في تقسيم الصفات، وجعل كل قسم فيها تحت فصل خاص به، وبدأ الحديث عن ذلك بقوله:

فصل في الصفات النفسية والسلبية وما ينافيهما.. ثم أتبع ذلك بقوله:

اعرف من الصفات ما الدليل دل على وجوبه له عز وجل

وهي الوجود والبقاء والقدم وأنف الحدوث والفناء والعدم(٢)

ثم قال:

فصل في المعاني:

والعلم والحياة والقدرة مع إرادة الله بها العقل قطع

والسمع والبصر والكلام جاوبها النقل ولا ملام

اذا كل ما لم يتوقف شرع عليه فالدليل فيه السمع

وعكسه ممتنع للدوري فاقطف بأيدي الفهم أبهى النور(٣)

ثم عقد فصلا آخر للصفات المعنوية قال فيه:

والسبع لازمت صفات تسمى بمعنوية إليها تنمى

كون الإلمه عالماً قديراً حياً مريداً سامعاً بصيراً

وذ الكلام والمقال حال بعدها على ثبوت الحال (٤)

---

١) أحمد المقري: إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة، بشرح محمد بن أحمد الشنقيطي ص ٣.

٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٠.

٣) المصدر السابق نفسه ص ٣٤-٣٥.

٤) المصدر السابق نفسه ص ٣٩.

وفي مسألة الكسب يقول أحمد المقري :

نعم له كسب به يكلف شرعاً ولا تأثير منه يؤلف (١)

أما قضية التأويل ، فإن أحمد المقري يدعى الإجماع على صرف ألفاظ الكتاب والسنة عن ظاهرها إذا أوهمت غير اللائق بالله عز وجل.

حيث يقول:

والنص إن أوهم غير اللائق بالله كالتشبيه بالخلائق
فاصرفه عن ظاهره إجماع (٢) واقطع عن الممتنع الأطماعا
وماله من ذاك تأويل فقط تعين الحمل عليه وانضبط (٣).

كانت تلك نصوصاً من المؤلفات الأشعرية التي اعتمدت في منهج العقيدة في المحاضر الموريتانية.

أما بالنسبة لصلة الموريتانيين بالمراكز العلمية والدينية في المغرب فقد كانت موجودة باستمرار ، حيث ظل الطلبة الموريتانيون يترددون على جامع القرويين ، وعلى الزوايا الصوفية بالمغرب.

ومما شجع على استمرار هذه الصلة ، وحدة المذهب المالكي ، وكون

---

١) المصدر السابق نفسه ص ٣١.

٢) تقدم الرد على دعوة الإجماع على وجوب صرف اللفظ المزعوم أنه غير لائق بالله عز وجل عن ظاهره ، وبينا أنه يستحيل أن يصف الله تعالى نفسه أو يصفه رسوله ﷺ بما ظاهره غير لائق بجلاله ، وكماله ، إذ أنه لا أحد أعلم بالله من الله ، ولا أحد أعلم بالله بعد الله من رسوله الكريم محمد ﷺ.

٣) إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة ص ٨٨.

الطرق الصوفية(1) في كلا القطرين واحدة(2) وما آل إليه الأمر من سيادة العقيدة الأشعرية في كلا البلدين.

وسوف نقتصر هنا على أمثلة من علماء الشناقطة الأشاعرة والمتصوفة (3). الذين درسوا في المغرب وعادوا إلى بلادهم، وتلقاهم الناس بالقبول، وانتشر علمهم في المنطقة.

ومن أبرز هؤلاء العلماء وأكثرهم نشراً للعقيدة الأشعرية وتعمقاً فيها، ابن رازكه(4).. قال عنه البرتلي: وحدي دهره، وفريد عصره، عارفاً بعلم أصول الدين، ماهراً في المنطق، أخذ عقائد أهل السنة، وعلم المعاني، والبيان، والمنطق عن عدة من الأشياخا لجلة، الذين أدركهم في المغرب الأقصى والسوس الأدنى، كالسيد أحمد العطار، وأبي مدين

---

1) تقدم الكلام عن الطرق الصوفية المنتشرة في موريتانيا وهي كلها مستمدة من المغرب، راجع المبحث الأخير من الفصل الأول من هذه الرسالة صفحة.....

2) معهد البحوث، المرجع السابق ص ٣٤، ومحمد الصوفي، المرجع السابق ص ٤٩-٥١، ومحمد سعيد بن دهاه، شرح وتحقيق لديوان ابن رزاكة ص ١٩، مطبعة النجاح الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

3) تقدم الكلام عن التصوف وإنما ذكرناه هنا لأن بعض الذين درسوا في المغرب قد أقترن أخذهم للعلم باعتناقهم للتصوف.

4) ابن رازكه: هو عبدالله بن محمد بن الفقيه القاضي عبدالله العلوي، درس في محاضر موريتانيا، ثم رحل إلى المغرب، وأخذ عن عدد من علماءه، وكان فصيح اللسان، ذكي الجنان، له اليد الطولى في اللغة العربية وعلومها، وعلم الكلام، والتفسير، والحديث، والفقه، والأصول، ويعتبر من أبرز علماء وشعراء القرن الثاني عشر الهجري ت: ١١٤٣هـ فتح الشكور ص ١٦٢، ومحمد سعيد بن دهاه: شرح ودراسة وتحقيق لديوان ابن رازكه ص ١٥ وما بعدها.

القاضي الأكبر ، وأحمد بن يعقوب الولالي ، عن محمد مبارة الفاسي ، عن أحمد المقري ، عن عمه الإمام سعيد الشهير بالكفيف ، عن الإمام السنوسي(١).

وقد تخرجت على يده جماعة وافرة من العلماء ، منهم : أحمد بن محمد الزيدي(٢) ، الذي قرأ عليه التفسير ، وتآليف السنوسي ، وإضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة(٣).

ومن تلاميذ ابن رازكه الذين اشتهروا بعده ونشروا العقيدة الأشعرية على نطاق واسع المختار بن بون(٤) حامل لواء الأشعرية في

---

١) هو محمد بن يوسف السنوسي ، تقدمت ترجمته في هذا المبحث صفحة .

٢) أحمد بن محمد الزيدي : فقيه ولغوي أخذ العقيدة الأشعرية عن ابن رازكه ، له عدة مؤلفات ، قال تلميذه البرتلي : لم أقف على تاريخ وفاته رحمه الله ، راجع : فتح الشكور معرفة أعيان علماء التكرور ص ٥١.

٣) المصدر السابق نفسه ص ١٦٢-١٦٤ ، وأحمد بن الأمين : الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ص : ١-٣.

٤) محمد سعيد بن دهاه ، المرجع السابق ص ٢٠.. والمختار بن بون الجكني ، عالم واسع الاطلاع ، شديد الذكاء ، له شهرة عالية ، برع في علم الكلام ، وعلم النحو ، قال عنه تلميذه حرم بن عبدالجليل مادحاً له :

وأغنى عن الشيخ السنوسي منطقاً   وعلم كلام من يريد التعلما

وقال عنه أحمد بن الأمين إنه : تاج العلماء الذي طوق بحلي علمه كل عاطل ، ووردت هيم الرجال زلاله ، فصدر عنه كلهم وهو ناهل ولا يوجد عالم في بلاده إلا وله الفضل الجزيل بما استفاد من مصنفاته ، وتلقى من سنداته ، ويكفيه أنه هو الذي نشر النحو بعد دفنه ، وكفى الناس مشقات مؤنه.. له مؤلفات عديدة منها في العقيدة الأشعرية : وسيلة السعادة ، وقد لخص في هذا الكتاب عقائد السنوسي الثلاثة : الصغرى ، والوسطى ، والكبرى ، ت

عهده ، والمعول على آرائه عند أشاعرة بلاده.

ورحل إلى المغرب ، محمد عبدالله بن أبي بكر(١) فدرس على الشيخ أحمد الحبيب اللمطي السجلماسي القراءات العشر ، وكثيراً من الفنون ، وعاد إلى بلاده بخزانة من الكتب.
وصفه البرتلي بقوله : كان إماماً جليلا ، صدراً من صدور العلماء ، وبحراً من مفاخر النجباء ، لا تكدره الدلاء ، محيياً للسنة ، مميتاً للبدعة ، انتهت إليه رئاسة الإقراء ببلاد التكرور في زمانه وبعد صيته(٢).

ورحل سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم(٣) لأداء مناسك الحج وطلب العلم ، وفي طريق عودته مر بالمغرب ، ومكث فيه عدة سنوات ، فدرس العقيدة الأشعرية ، والفقه المالكي على عدد من علماء المغرب منهم :

١٢٢٠هـ الوسيط ص ٢٧٧ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٤٦٥ ، ومحمد الصوفي المرجع السابق ص ٨٤.

١) هو أبو محمد عبدالله بن أبي بكر السنواجيوي ، فقيه ، لغوي ، أشعري العقيدة ، له اليد الطولى في علم القراءات ، وقد وجد الناس يلحنون في القراءة في بلاد شنقيط ويصحفون في الحروف ، فأزال اللحن والتصحيف عنهم ، وهو الذي أتى بالجيم المشددة ، وانتفع به خلق كثير ، فصاروا أئمة يقتدى بهم ، راجع الخليل النحو ، المرجع السابق ص ١١٢.

٢) فتح الشكور ص ٢٠٨-٢٠٩.

٣) سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم العلوي ، عالم واسع الاطلاع ، له اليد الطولى في الفقه المالكي ، وأصوله ، ومصطلح الحديث ، أطلق عليه في بلاده مجدد العلم في بلاد شنقيط ، له عدة مؤلفات منها : مراقي السعود ، في أصول الفقه ، ت ١٢٣٣هـ الخليل النحوي : المرجع السابق ص ١٢٢ ، ومحمد المختار بن محمد الأمين : المرجع السابق ص ٩-١١.

الشيخ البناني محشى ، شرح عبدالباقي الزرقاني ، على مختصر خليل بن إسحاق ، والشيخ التاوردي المعروف بابن سودة ، وعمر الفاسي شارح اللامية ، واعتنق الطريقة الشاذلية في هذه الفترة ، أثناء إقامته في مدينة فاس ، ثم عاد الى بلاده وهو أشعري شاذلي ، ويحمل معه مكتبة ضخمة ، حصل عليها في هذه الرحلة(١).

ورحل محمد الحافظ بن محمد المختار بن حبيب العلوي المتوفى عام ١٢٣٦هـ لأداء مناسك الحج ، وفي عودته مر بالمغرب ، واستقر فيه عدة سنوات ، وأثناء إقامته في مدينة فاس لقي بها أحمد بن محمد المختار التجاني المتوفى عام ١٢٣٠هـ ، وأخذ عنه طريقته ، وصحبه ثلاث سنين ، ثم عاد إلى بلاده ، وهو أشعري تجاني ، وانتشر فكره في المنطقة(٢).

هذه نماذج من العلماء الموريتانيين الذين رحلوا إلى المغرب ودرسوا فيه وعادوا إلى بلادهم ، وكان لهم تأثير فيها.
وعلى أي حال ، فإن المطالع في مناهج المحاضر ، وفكرها ، يلاحظ التأثير المغربي والأندلسي واضحاً ، ولا سيما في العقيدة.

---

١) الخليل النحوي المرجع السابق ، ص ١١-١٢٢.

٢) عبدالله حميده ، المرجع السابق ص ٣٠ ، وسميرة بنت صقر ، المرجع السابق ص ٣٢ ، والخليل النحوي ، المرجع السابق ص ١١١ ، وقد تقدم الكلام عن أحمد التجاني وعن تلميذه محمد الحافظ بن محمد المختار ، في المبحث الأخير من الفصل الأول ، من هذه الرسالة صفحة:...

صحيح أن المحاضر تمتاز بطابعها الخاص ولكن انتمائها إلى المصادر المغربية والأندلسية أمر ملموس، حتى إن بعض الباحثين يرجع النهضة الثقافية في بلاد شنقيط إلى الدور الذي قام به المسلمون النازحون إلى المغرب من الأندلس بعد سقوط غرناطة في أيدي الإسبان(١).

وقد استحكم في نفوس المغاربة التعصب للعقيدة الأشعرية، والمذهب المالكي، ووصل الأمر إلى أن بعض ملوك الدولة في المغرب يعرف نفسه بأنه مالكي المذهب، أشعري العقيدة، فقد وقفت على تقريظ للملك المغربي عبدالحفيظ(٢) بن الحسن قرظ به كتاب زاد المسلم للشيخ محمد حبيب الله بن مايابي الشنقيطي يقول فيه: كتبه عبدالحفيظ المالكي مذهباً الأشعري عقيدة(٣).

ولا نريد أن ندخل في شرح العوامل التي أدت بالفكر المغربي إلى هذه الدجرة من التقليد والبعد عن اقتفاء آثار السلف الصالح، فهذا أمر يطول شرحه من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الاستطراد فيه يخرجنا عن صلب الموضوع، والذي يهمنا في هذا المبحث عو انعكاس هذا الفكر

---

١) الخليل النحوي، المرجع السابق ص ١٨٥، ومحمد المختار بن اباه، المرجع السابق ص ٢٩.

٢) هو أبو المواهب عبدالحفيظ بن الحسن بن محمد الحسن العلوي، من سلاطين الدولة العلوية في المغرب، كان عالماً، وشاعراً، وأديباً، له مؤلفات عديدة منها: كشف القناع عن اعتقاد طوائف الابتداع، رد فيه على بعض الصوفية، وقد عزله الفرنسيون عن الملك في المغرب وولوا مكانه أخاه يوسف بن الحسن عام ١٣٣٠هـ وأخرجوه من بلاده، ت ١٣٥٦هـ. الزركلي: الأعلام ٤/٥٠-٥١، ومحمد حبيب الله بن مايابي: زاد المسلم ٥/٥٦٠.

٣) المرجع السابق نفسه: ٥/٥٦١.

على المحاضر الموريتانية ، حيث فشى فيها التقليد والتعصب للعقيدة الأشعرية ، حتى اعتبروا من لم يتقن هذه العقيدة عرضة للكفر والعياذ بالله تعالى.

وهذا ما صوره لنا أحمد بن الأمين عند ذكره لترتيب المعارف العلمية في المحاضر بقوله:

ففيهم البعض يقرأ دواوين العرب قبل البلوغ ، ثم العقائد الأشعرية ، ويمضي سنين عديدة في إتقان تآليف السنوسي ، حتى لا يبقى عليه منطوق ولا مفهوم ليصير عندهم مؤمناً حقيقة ، وإلا فإنه إذا كان لا يقدر على معرفة أنواع الصفات ، وتعيينها بالألفاظ المتداولة عندهم فهو عرضة للكفر..(١).

وبعد هذا العرض الموجز عن دخول العقيدة الأشعرية للمنطقة وانتشارها في بلاد شنقيط ، بعد استيلاء الدولة الموحدية على الحكم في المغرب ، وغياب العقيدة السلفية غياباً كاملا ردحاً من الزمن ، سوف نرى في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى - كيف عاد الفكر السلفي إلى البلاد وتمسكت به طائفة ظلت تحمل رايته وتجتهد في نشره ، وتدافع عنه ، والله الموفق..

○○○

---

١) الوسيط في تراجم أدباء شنقيط : ص ٥١٨.

الفصل الخامس
عودة الفكر السلفي إلى البلاد

وفيه تمهيد ، ومبحثان :

التمهيد : حالة البلاد قبل دعوة الإمام ناصر الدين.

المبحث الأول : الإمام ناصر الدين ، دعوته وجهاده.

المبحث الثاني : مدرسة المجيدري.

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : نشأة مدرسة المجيدري والتعريف بمؤسسها.

المطلب الثاني : حاملا لواء مدرسة المجيدري من بعده.

المطلب الثالث : منهج مدرسة المجيدري في العقيدة.



التمهيــــــــــــد

حالة البلاد قبل دعوة الإمام ناصر الدين

لقد ترك غياب الدولة المرابطية فراغاً كبيراً في البلاد، سواء على المستوى العلمي أو الديني، أو السياسي، وقد ذل أهل السنة والجماعة في هذه الفترة.

يقول بابا بن أحمد بن محمد مبارك اللمتوني:

وأين رجال بعد لمتون للهدي يذبون عنه حيث زلت به النعل
فأصبح منقوض الأساس وبعدهم تنهنه عن تقشيرة البعض والكل
ولم تنتبه من بعد لمتون دولة ولم يك في بنيانها بعدهم ظل
وأين لأهل الله نصر وراءهم ألا إن أهل الله بعدهم ذلوا(١)

فقد أصبحت البلاد بعد ذهاب الدولة اللمتونية شبه فوضى، وتدهورت الأوضاع تدهوراً كبيراً في المجالات العلمية، والدينية، والسياسية، وقد تقدم في المبحث السابق ما وصلت إليه الأحوال من تدهور وانحراف في مجال العقيدة(٢)..

وليست المجالات الأخرى في هذه الفترة بأحسن حالا من العقيدة، فقد كانت هي الأخرى بعيدة عن تعاليم الإسلام الصحيحة.

---

١) محمد المختار بن اياه، الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٣٥٢.

٢) راجع المبحث الثاني من الفصل السابق.

ونجد في رحلة ابن بطوطة التي زار فيها مدينة ولاته ، وتحدث عن نظام التوريث فيها ما يلقي الضوء على ذلك..

فقد ذكر ابن بطوطة عن أهل مدينة ولاته أنهم لا ينتسبون إلى آبائهم وأن نظام التوريث عندهم مخالف لأحكام الإسلام ، حيث قال:

ولا ينتسب إحدهم إلى أبيه ، بل ينتسب لخاله ، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته ، دون بنيه(١).

ولو ألقينا نظرة سريعة إلى رسالة محمد بن علي اللمتوني التي أرسلها للسيوطي عام ٨٩٨هـ لوجدنا فيها ما يدل على انحطاط الحالة الدينية في هذه الحقبة.

فقد جاء في هذه الرسالة ما نصه : ومنهم من صلاته بالتيمم أبداً ، فلا يتوضئون إلا نادراً ، ولا يغتسلون من الجنابة إلا نادراً(٢).

ومنهم من لا يورث ، فما تركه بعده لأبناء إخوته وأهل القوة والجاه(٣).

ومنهم قوم لا يعدون الطلاق ، فليس له عندهم حد ، ومنهم من يتزوج المرأة في عدتها(٤).

كما عرض للمغارم الجائرة والعذاب الذي تلقاه الناس على أيدي أمراء

---

١) رحلة ابن بطوطة ص ٦٦١.

٢) جلال الدين السيوطي الحاوي للفتاوي ٢٨٧/١.

٣) المصدر السابق نفسه ٢٨٥/١.

٤) المصدر السابق نفسه ٢٨٩/١.

الجور(١).

وقد ازدادت الأحوال سوءاً بعد هجرة قبائل بني حسان إلى البلاد(٢) فقد تمكن بنو حسان من إحكام سيطرتهم على كثير من البلاد ، فأثخنوا فيها وعاثوا فساداً ، وكانت هذه الفترة ذاتها بداية للأطماع الخارجية ، والوجود الأوروبي على سواحل المنطقة(٣).

هذه هي الحالة التي كانت عليها البلاد بسبب عدم قيام دولة ذات سلطان تحكم الكتاب والسنة ، وتحمل الناس على اتباع الحق ، وتردع أهل الباطل ، وتحمي البلاد من الوقوع تحت وطأة أهل الشر.

ومهما يكن من شيء ، فقد ظلت البلاد بعد أفول الدولة المرابطية ، تزداد سوءاً من حين لآخر ، حتى أذن الله تعالى بانبلاج فجر جديد ، حين قام الإمام ناصر الدين رحمها لله - على حين فترة من دعاء المصلحين ، فأشرقت بنور دعوته ، وتبدلت فيها مظاهر الحياة..

---

١) المصدر السابق نفسه ٢٨٥/١ ، هذه الرسالة تعد وثيقة نموذجية تعرض حالة البلاد في تقرير موجز عن حقبة تاريخية لا تكاد تعرف شيئاً يذكر عن الحالة الدينية فيها ، وقد تناول صاحبها فيها وصف أوضاع مختلفة ، راجع نصها كاملا وجواب السيوطي عليها في الجاوي للفتاوي ، المصدر السابق ٢٨٤/١-٢٩٤.

٢) نجح بنو حسان في السيطرة على القسم الشمالي من موريتانيا خلال القرن الخامس عشر الميلادي ، عن وصول هذه القبائل وتعمقها في داخل البلاد ، راجع معهد البحوث ، المرجع السابق ص ١٩-٢٠ ، وأحمد ولد أبو مدين : محمد ولد أبو مذين حياته وآثاره ، ص ٥-٦ ، بحث غير منشور ، قدم للحصول على الإجازة العالية (الليسانس) من المدرسة العليا لتكوين الأساتذة والمفتشين بنواكشوط ١٩٨١م - ١٩٨٢م.

٣) عبدالله حميده : المرجع السابق ، ص ٣٣ ، وأحمد ولد أبو مدين ، المرجع السابق ص ٨-١٠ ، ومحمد المختار بن السعد : نظرة تاريخية إلى شربية ، ص ٢٧.

المبحث الأول

الإمام ناصر الدين - دعوته ، وجهاده

الإمام ناصر الدين ، هو الفقيه ، المجاهد ، أبو بكر بن أبهم بن الفنغ الشمشوي(١) ، عاش في القرن الحادي عشر الهجري ، في وسط قبائل من الزوايا ، تسود فيها المثل العليا ، والاستقامة ، والمحافظة على شعائر الإسلام ، وتولى العلم أهمية قصوى ، وقد درس في المحاضر حتى أكمل دراسته فيها ، وبرز في العلوم الشرعية. اشتهر بالتقوى ، والورع ، والفقه ، ونصرة السنة ، ورفع راية الجهاد(٢)..

ويصفه المختار بن حنك بقوله :

خير فتى من قومه صواماً ذا ورع وليله قوامـــاً (٣)

لقد كان رحمه الله فقيهاً ، محدثاً ، يهتم بالعلم والدين ، ويحث على إتباع السنة ، والمواظبة على تحصيل العلم مهما كانت الظروف حتى في

---

١) تقدم التعريف بالقبائل الشمشونية في الفصل الأول ، وللتوسع راجع : محمد المختار بن السعد : نظرة تاريخية إلى شربية ص ٢٠-٢٢-٢٣.

٢) محمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٦٩ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٥٣٣ ، ومحمد المختار بن السعد : المرجع السابق ص ٢٣.

٣) المختار بن حنك ، غزوات الإمام ناصر الدين [مخطوط شخصي].

أثناء الجهاد ، وكان يتولى تدريس العلم بنفسه ، ويركز على صحيح البخاري ، فيروي الحديث ويشرحه ، ومع ذلك كان قائداً شجاعاً ومجاهداً مخلص(١).

وكان الإمام ناصر الدين داعية ، ورجل علم ، فهم الإسلام فهماً صحيحاً وطبقه في واقعه ، فكان يعلم الناس ، ويدعو إلى الله عز وجل ، ويجاهد في سبيل الله ، وينظم الإدارة ، والشؤون المالية ، على ما قضت به الشريعة الإسلامية ، مع السهر على إحياء السنة ، ومحاربة البدعة(٢).

وقد برز هذا الداعية في مواجهة النصارى الذين كانوا حينذاك يتسابقون إلى سواحل المنطقة ، ويستعدون لدخول موريتانيا لفرض استعمارهم عليها ، فقاومهم بشتى أنواع المقاومة ، وأضر بمصالحهم في المنطقة ، وأثار شعوبها ضدهم ، وكان يرفض التعامل معهم ، ويمنعهم من تجارة الرقيق ، فضاقوا بذلك ذرعاً.

وكان يبعث رسله إلى أمراء الزنوج في البلاد المجاورة ، ويحثهم على مقاومة النصارى ، وعدم الخضوع لهم ، واتخاذ الحيطة والحذر تجاه الدول الأجنبية المتربصة بهم..

---

١) محمد سعيد البدالي ، المصدر السابق ، ص ٢ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٧٠-٧١ ، ومحمد المختار بن السعد ، المرجع السابق ص ٧.

٢) محمد البدالي : مناقب الإمام ناصر الدين ص ٤ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٧٠.

وقد استشهد رحمه الله - في جهاد مانعي الزكاة في موقعة [ترتلاس] عام ١٠٨٥هـ(١).

---

١) الخليل النحوي : المرجع السابق ص ٣٠٥ ، ٥٣٣ ، وعبدالله حميدة ، المرجع السابق ص ٣٣.

دعوة الإمام ناصر الدين

إن دعوة الإمام ناصر الدين دعوة سلفية ، قامت على التمسك بالكتاب والسنة ، وإقتفاء آثار السلف الصالح ، والجهاد في سبيل الله ، ونشر العقيدة الإسلامية ، ومحاربة البدع ، والمنكرات ، ومحاولة استنهاض القوى الإسلامية ، والعودة بالمجتمع إلى ما كان عليه المسلمون في صدر الإسلام.

وتتفق المصادر التي وقفت عليها على أن الإمام ناصر الدين كان داعية سلفياً ، ولكن هذه المصادر تحجم عن الحديث عن عقيدته بالتفصيل ، وبعد الإطلاع على الكتابات التي تناولت حياته ، ودعوته ، والمقابلات مع بعض العلماء العارفين بتاريخ الفكر الإسلامي في موريتانيا ، يمكن أن نقرر أنه سلفي العقيدة ، بناء على المعلومات التالية:

١- أن دعوته تقوم على العمل بالكتاب والسنة والدعوة إلي تحكيمهما في كل الأمور.

٢- أن من منهجه تدريس صحيح البخاري ، ومعلوم أن البخاري رحمه الله وضع في صحيحه كتاب الايمان ، وكتاب التوحيد ، لتوضيح عقيدة السلف.

٣- أن المراجع تذكر أنه أراد إحياء منهج المرابطين السلفي.

٤- أن الشيخ المختار بن حامد ، وهو عالم سلفي ، مؤرخ من القبائل الشمشوية التي ينتمي إليها الإمام ناصر الدين ، أكد ذلك بقوله : إن الإمام ناصر الدين كان داعية إلى عقيدة السلف ومنهجهم ، لا يتجاوز ما جاء في الكتاب والسنة ، وما ثبت عن السلف الصالح ، رضي الله عنهم ، ويرفض الخوض في علم الكلام ، والفلسفة(١) وأعادت هذه الدعوة إلى الأذهان صورة المجتمع الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين(٢).

---

١) حدثني المختار بن حامد بذلك في مقابلة أجريتها معه في المدينة المنورة بتاريخ ١٤١١/٨/٨هـ وستأتي ترجمته في الفصل السابع .

٢) راجع معهد البحوث ، المرجع السابق ، ص ٢١.

وتعتبر أهداف دعوة الإمام ناصر الدين بمثابة إحياء لدعوة المرابطين ، وقد ذكرنا أن الدعوة المرابطية قامت أساساً على تعاليم الكتاب ، والسنة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، ورفع الظلم عن المستضعفين(١).

وقد نسج الإمام ناصر الدين دعوته على هذا المنوال ، فبدأ نشاطه بتدريس صحيح البخاري ، وشراحه ، والوعظ ، والإرشاد(٢).

وكان من أهم المبادىء التي قامت عليها دعوته مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
فكان يبعث البعوث إلى السنغال ، وغيره من البلاد المجاورة ، فيأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويعظون الناس ، ويحذرونهم من مغبة الظلم والمعاصي(٣).

أما الجهاد في سبيل الله ، فقد أخذ من اهتمام الإمام ناصر الدين وتفكيره ، ونشاطه ، حيزاً كبيراً.
فقد أولى سياسة الجهاد عناية خاصة ، فكان من أولى الخطوات التي قام بها إعلان الجهاد لنشر الإسلام في غرب إفريقيا ، وإرسال الجيوش

---

١) راجع المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذه الرسالة
٢) الخليل النحوي ، المرجع السابق ، ص ١٠٥.
٣) المرجع السابق نفسه ص ١٠٤.

المتتالية لتخليص الناس من الشرك والوثنية(١).

ومعلوم إن الإمام ناصر الدين ركز في نشاطه المتواصل على الدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية، في كافة المجالات، ورفع الظلم والاضطهاد عن المستضعفين، وإقامة العدل بين طبقات المجتمع(٢).

ولئن كان عبدالله بن ياسين - رحمه الله - قد أسس رباطه الذي لزمه لتكوين جماعة مؤمنة تدين الله عز وجل وفق منهج السلف، قادرة على حمل مسؤولية الدعوة والجهاد(٣)، فقد قام ناصر الدين - رحمه الله - بعمل مشابه في هذا الإتجاه.
حيث جلس في السنين الثلاث الأولى من دعوته لتعليم أصحابه وإرشادهم، وإعدادهم لحمل مسؤولية الدعوة، والجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى.

وكان لتعاليمه الإسلامية أثر بعيد المدى في نفوس الناس، فآمنوا بإخلاص دعوته، وأقبلوا عليها، حتى سميت هذه المرحلة بسنين التوبة(٤).
وكما لقيت دعوة عبدالله بن ياسين قبولا واسعاً لدى جماهير الناس(٥) فقد

---

١) محمد البدالي: المصدر السابق، ص ٣-٤، ومحمد الصوفي، المرجع السابق ص ٧٠، ومحمد المختار بن السعد: المرجع السابق ص ٦١.

٢) الخليل النحوي، المرجع السابق، ص ١٠٥، وعبدالله حميده، المرجع السابق ص ٣٣.

٣) راجع الفصل الأول من هذه الرسالة

٤) عبدالله حميدة، المرجع السابق ص ٣٣، والخليل النحوي: المرجع السابق ص ٣٠٤، ٣٠٥.

٥) راجع المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذه الرسالة

لقيت دعوة الإمام ناصر الدين ، حسن القبول ، ليس في موريتانيا فحسب ، بل في دول الزنوج المجاورة كذلك(١).

ويصف الباحثون هذه الدعوة بأنها وريثة الدعوة المرابطية ، يقول عبد الله بن حميده مبيناً ذلك :
إنها حركة سياسية تأصيلية ، سلفية ، وريثة الاسلام السني المرابطي الصحراوي ، قامت في المنطقة الجنوبية الغربية من البلاد ، ونمت في أحضان حلف قبلي ، يعرف بـ [تشمشه] بزعامة أحد أبنائه المؤهلين للزعامة ، الإمام ناصر الدين(٢).

فقد نسج الإمام ناصر الدين دعوته على منوال المرابطين ، بل إن حركته تعد بمثابة إحياء لحركة المرابطين.
فقد بدأ نشاطه بالدعوة للإسلام ، وأشعل ثورة الجهاد ضد الزنوج الوثنيين ، وبني حسان ، ولا غرو فهو ينتمي إلى قبيلة لمتونة المعروفة بجهادها الإسلامي ، والتي ساهمت بدور كبير في قيام حركة المرابطين(٣).

وقد نجح الإمام ناصر الدين في مسيرة الاصلاح التي قادها في إقناع المجموعات القبلية بضرورة تحكيم الشريعة الاسلامية ، وتمكن من تأسيس

---

١) محمد البدالي : مناقب الإمام ناصر الدين ، ص ١ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٧٠ ، ٧٤.

٢) عبدالله حمديه ، المرجع السابق ، ص ٣٣.

٣) معهد البحوث ، المرجع السابق ، ص ٢٠.

دولة إسلامية قائمة على هدى الكتاب والسنة، مطابقة للعهد الراشدي(١).

واستطاع هذا الداعية أن يقيم سلطة مركزية، وهيكلا من الحكم يعتمد على مجلس الشورى، مستمداً بكامله من التعاليم الإسلامية، وقضى على الظلم، والمفاسد المنتشرة، وأقام مجتمعاً يشبه المجتمع الإسلامي الأول(٢).

---

١) محمد الصوفي، المرجع السابق، ص ٦٨، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ١٠٥.

٢) معهد البحوث، المرجع السابق ص ٢١، وعبدالله حميده : المرجع السابق ص ٣٣، ومحمد الصوفي، المرجع السابق ص ٧٠.

جهـــاد الإمام ناصر الدين

أخذ مبدأ الجهاد الأولوية من اهتمام الإمام ناصر الدين ونشاطه ، فنادى برفع راية الجهاد ، ونشر الإسلام ، وكان من أولى الخطوات التي قام بها في حركته الإصلاحية ، تكوين قوة إسلامية سلفية ، استطاعت أن تطيح بعروش الأمراء الوثنيين في السنغال وفوتا(١).

وكان يعين محل كل أمير وثني يسقط أميراً مسلماً من أبناء البلد ، واستطاع أن يعمم الإسلام على مساحة واسعة في منطقة غرب إفريقيا(٢).

وقد شهد بعض الفرنسيين في السنغال هذه الحركة الجهادية ، فغاظتهم.

يقول دي شانبونو - مدير الشركة التجارية باندر [سان لويس] : ما رأى الناس قط [مرابط] أو راهباً وهو الذي يجب أن يكون قد ترك الدنيا وانقطع لله وأن يكون تواضعه عميقاً ، وزهده متصلا ، وأن لا يهتم بثروات الدول أكثر من اهتمامه بالطين ، يغادر وطنه ، ويذهب إلى بلد بعيد ليدفع

---

١) المختار بن حنك : المرجع السابق ص ٣ ، ومعهد البحوث ، المرجع السابق ، ص ٢٠ ، تمتد بلاد فوتا من جنوب شرق موريتانيا إلى غينيا ، راجع محمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٧٣.

٢) محمد البدالي : مناقب الإمام ناصر الدين ، ص ٣ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٣٠٥-٣٠٦ ، وعبدالله حميده ، المرجع السابق ص ٣٣.

سكانه إلى الثورة ، ويجعلهم يقتلون أو يطردون ملوكهم بحجة الدين(١).

وكما غاظت حركة الإمام ناصر الدين الفرنسيين في السنغال فقد أغضبت قبائل بني حسان في داخل موريتانيا ، ذلك أن هذه القبائل - ذات الشوكة - بعد أن ظهر لها ما أحرزته حركة الإمام ناصر الدين ، من نجاح في نشر الإسلام واجتذاب القبائل الزنجية ، شعرت بأن هذه الحركة أصبحت تهدد مركزها ، ولم تشأ هذه القبائل أن تنتمي إلى دولة إسلامية منظمة ، يتزعمها فقهاء المرابطين(٢).

لذلك ، أقدمت قبائل بني حسان على تحدي السلطة المركزية التي يتزعمها الإمام ناصر الدين ، فارتكبت ثلاث جرائم كانت سبباً في حرب دامت ثلاثين عاماً. وهي :
[الحرابة ، والبغي ، ومنع الزكاة](٣)..

وكان السبب المباشر في اشتعال نار هذه الحروب هو منع الزكاة.. فتذكر المراجع أن سيدي الحسن بن القاضي وكان عاملا للإمام ناصر الدين على الصدقات ، جاء إلى [ببه] بن أحمد الصكاعي ، فطلب منه

---

١) الخليل النحوي : المرجع السابق ص ٣٠٤.

٢) معهد البحوث ، المرجع السابق ، ص ٢٠ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ، ص ٣٠٥-٣٠٦ ، ومحمد المختار بن السعد ، المرجع السابق ص ٧.

٣) محمد البدالي : مناقب الإمام ناصر الدين ، ص ١٧ ، والمختار بن حنك ، المرجع السابق ، ص ٢-٣ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٧١.

إخراج زكاة إبله، فامتنع واحتمى له بنو حسان(١)..

وحينئذ لم يبق أمام الإمام ناصر الدين ومجلس الشورى إلا أن يقرروا إخراج الزكاة من مانعيها قهراً، كما فعل الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه، مع مانعي الزكاة حيث قال: [والله لأقاتل من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها.. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه - فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه، فعرفت أنه الحق](٢).

---

١) المختار بن حنك: غزوات الإمام ناصر الدين ص ٢، ومحمد الصوفي، المرجع السابق ص ٧١-٧٢، والخليل النحوي، المرجع السابق ص ٣٠٧.

٢) صحيح البخاري، مع فتح الباري ٢٦٢/٣.

لذلك نهض الإمام ناصر الدين لاستخراج الزكاة ، وتوطيد دعائم الحق ، والعدل ، وقبل الدخول في الحرب وجه خطاباً إلى بني حسان ، قال فيه:

«اتركونا نحيي السنة ، ونقيم حدود الله ، ونخدم العلم ، ونعمر البلاد ، ونعدل فيها»(١).

غير أن هذا الخطاب - وللأسف لم يجد آذاناً صاغية من بني حسان الذين يقف وراءهم الفرنسيون ، إبان ذاك ، واندلعت الحرب وعرفت [بشربيه](٢).

وقد تولى الإمام ناصر الدين قيادة جيشه بنفسه ، وتوالت انتصاراته على قبائل بني حسان في باديء الأمر ، ولكن حركة المرابطين الجدد(٣) ، أصيبت بنكسة كبيرة عندما استشهد قائدها الإمام ناصر الدين في موقعة [ترتلاس] عام ١٠٨٥هـ ، وإن كان جيشه قد انتصر في المعركة ، فقد دبت الخلافات في صفوف الجماعة(٤). كما يحدث في كثير من الأحيان عند اختفاء كل قائد كبير.

---

١) محمد البدالي : مناقب الإمام ناصر الدين ، ص ٨ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٧٢.

٢) [شربية] معناها : الحرب المنسوبة إلى الشخص الذي منع الزكاة ، فكلمة [شر] معناها باللهجة الموريتانية : حرب ، و[بيه] اسم الشخص الذي منع الزكاة.. راجع الخليل النحوي ، المرجع السابق ص ٣٠٧ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ، ص ٧١.

٣) أطلق على دعوة الإمام ناصر الدين عدة تسميات ، منها : حركة المرابطين الجدد ، ودولة التوبة ، ومشروع الدولة الراشدة ، الخليل النحوي المرجع السابق ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٧.

٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٣٠٧-٣٠٨ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٧٢-٧٣.

وقد انتهت هذه الحرب عقب اندلاعها بثلاثين عاماً بهزيمة حركة الإمام ناصر الدين في الموقعة الشهيرة [تنيقظاظ](١).

وكادت دعوة الإمام ناصر الدين الإصلاحية أن تنجح فيما تسعى إليه من نشر العقيدة الإسلامية ، وتحكيم شرع الله عز وجل ، على أرضه ، لولا أن قبائل بني حسان أدركت تعارض هذه الدعوة مع ما تسعى إليه من سيطرة على البدلا ، وأحس كثافة الغرب الرابضون على سواحل المنطقة بتهديدها لسياستهم التي أقاموها مع زعماء بني حسان(٢).

لذلك كان لهذه الدعوة أعداء في الداخل ، وهم قبائل بني حسان الذين يخشون من قيام دولة إسلامية منظمة ذات سلطة مركزية تحد من نفوذهم وتصرفاتهم.. وأعداء في الخارج ممثلين في الفرنسين.

ويؤكد الباحثون أن سبب هزيمة حركة الإمام ناصر الدين العسكرية هو اصطدامها بجبهتين ، كلاهما تعادى قيام دولة إسلامية هما [فرنسا في السنغال وغرب إفريقيا ، وبني حسان في داخل موريتانيا](٣).

---

١) معهد البحوث ، المرجع السابق ، ص ٢٠ ، وعبدالله حميدة ، المرجع السابق ص ٣٤ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٧١ ، ولمزيد من المعلومات عن هذه الحرب ، راجع : أحمد بن الأمين ، الوسيط ص ٤٩٣ ، ومحمد المختار بن السعد : نظرة تاريخية إلى شربية ، ص ٧ وما بعدها ، والخليل النحوي ، المرجع السابق ص ١٠٥ ، ١٣٢.

٢) عبدالله حميده : المرجع السابق ص ٣٣ ، والخليل النحوي : المرجع السابق ص ٣٢٠.

٣) معهد البحوث ، المرجع السابق ص ٢١ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٧٣ ، ٧٤.

ومع أن حركة الجهاد التي قادها الإمام ناصر الدين - رحمه الله - قد انهزمت عسكرياً، فقد ظلت آثارها قوية في موريتانيا، والسنغال، فكثير من الاصلاحات الدينية والسياسية التي حصلت في المنطقة في الفترة التي تلت ذلك هي ثمرة عمل الإمام ناصر الدين، وأثر من آثار دعوته(١).

وقد ظلت حركة الجهاد والاصلاح التي قادها الإمام ناصر الدين موضع تقدير من قبائل الزوايا، يعرفون لأهلها فضلهم، وينظرون إلى ما قاموا به من نشر الإسلام، خلال فترة قصيرة، نظرة إعجاب..(٢).

وعلى أي حال، فإن الهزيمة العسكرية التي منيت بها حركة الإمام ناصر الدين، كانت سبباً في ازدهار علمي، وثقافي، شهدته المنطقة بعد هذه الحرب.
فقد تفرغ الزوايا للعلم، وازداد إقبالهم عليه ليغسلوا به عار الهزيمة، فوضعوا القلم موضع السيف، واعتبروه ملاك الأمر كله(٣).

وقد تمخض عن ذلك الازدهار العلمي عن اتجاهات فكرية ثلاثة ممثلة

---

١) الخليل النحوي، المرجع السابق ص ٣١٠-٣١١.
٢) راجع: أحمد بن الأمين، الوسيط: ص ١٧٤، والخليل النحوي: المرجع السابق ص ٣١٠، ومحمد الصوفي، المرجع السابق ص ٧٥.
٣) بول مارتي: كنته الشرقيون، ص ٢٦، ومحمد المختار بن السعد، نظرة تاريخية إلى شربية ص ٨٧، والخليل النحوي، المرجع السابق ص ٣٠٨.

في مدارس تحملها وتدافع عنها ، وهذه الاتجاهات كالآتي:

١- اتجاه سلفي نصي يعادي علم الكلام ، وتمثله مدرسة المجيدري بن حبيب الله اليعقوبي ، المتوفى عام ١٢٠٤هـ.

٢- اتجاه أشعري عقلاني يؤمن بالمنطق اليوناني وعلم الكلام المنطقي وتمثله مدرسة المختار بن بون الجكني المتوفى عام ١٢٢٠هـ.

٣- اتجاه صوفي ، وأبرزه الاتجاه القادري ، وتمثله مدرسة الشيخ سيدي المختار الكنتي المتوفى عام ١٢٢٦هـ(١).

وسنتناول في المبحث الآتي إن شاء الله تعالى ، مدرسة المجيدري بن حبيب الله بوصفها تمثل الاتجاه السلفي في هذه الفترة.

---

١) الخليل النحوي : المرجع السابق ص ١٩٦ ، وعبدالله حميده ، المرجع السابق ص ٨٣.

المبحث الثاني
مدرسة المجيدري

المطلب الأول :
نشأة هذه المدرسة ، والتعريف بمؤسسها المجيدري:

تقدم في آخر المبحث السابق ، أن المحاضر بعد نهاية حرب [شربية] ازدهرت وتمخض ازدهارها عن ثلاثة اتجاهات فكرية ممثلة في مدارس تحملها وتدافع عنها ، ومن هذه الاتجاهات ، الاتجاه السلفي.

وفي هذا المبحث سنتناول الحديث عن أول مدرسة قامت على الفكر السلفي ، بعد النهضة الثقافية ، والازدهار العلمي في المحاضر ، وهي مدرسة المجيدري.

فقد نشأت هذه المدرسة على يد المجيدري بن حبيب الله عندما عاد من رحلة علمية(١) زار فيها عدداً من الأقطار الإسلامية ، وأدى مناسك الحج ، ثم عاد إلى بلاده ، وهو متأثر بالفكر السلفي ، وداعية إليه.

---

١) سيأتي الحديث عن هذه الرحلة في ترجمة المجيدري بعد قليل.

ومن المفترض أن يكون قد تأثر بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب(١) التي كانت حينذاك قائمة في نجد وما حولها.

وفور وصول المجيدري - رحمه الله - إلى بلاده عائداً من هذه الرحلة أسس مدرسته السلفية، القائمة على المبادىء الآتية :

١- الاعتماد على الكتاب والسنة في كل مناهجها.

---

١) قاد الشيخ محمد بن عبدالوهاب التميمي المتوفى عام ١٢٠٦هـ رحمه الله - دعوته السلفية الاصلاحية القائمة على التمسك بالكتاب والسنة، والهادفة إلى تصحيح العقيدة الاسلامية، وتطهيرها مما علق بها من أدران الشرك، والبدع، والخرافات، وقد كان لهذه الدعوة أعداء وخصوم، أطلقوا عليها لقب [الوهابية] على الرغم من أن صاحب هذه الدعوة وأنصارها لم يختاروا هذا اللقب لأنفسهم، ولم يقبلوا إطلاقه عليهم.. وكان غرض أعداء هذه الدعوة وخصومها من هذا اللقب هو تنفير الناس منها، وإيهام السامعين بأنها مذهب يخالف المذاهب الإسلامية الأربعة الكبرى، واللقب الذي يرضاه أتباع هذه الدعوة وأنصارها لأنفسهم ويتسمون به هو [السلفيون] أو [أهل السنة والجماعة]، وهم جديرون بهذين اللقبين، يقول الشيخ محمد رشيد رضا في حديثه عن هذه الدعوة ما نصه: «وقد كان مما استعمل الله تعالى - به الشيخ محمد بن عبدالوهاب مجدد الدين في نجد وما حولها أن أحيا مدرسة السنة النبوية فيها للاهتداء بها لا لمجرد التبرك بألفاظها، ولا لأجل الاستقلال فيها دون ما كتب المحدثون، والفقهاء في شرحها، والاستنباط منها، بل نرى من هداهم الله تعالى، بدعوته، وأنقذهم من الجهالة التي عادت إلى أكثر أهل جزيرة العرب، مازالوا يحبون كتب فقه شيخ السنة الأكبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، مع خيار كتب التفسير، والحديث، لغير الحنابلة، من علماء السنة، فكانوا من أجدر المسلمين بلقب أهل السنة.. مقدمة كتاب مجموعة الحديث النجدية، ص أ-ب، الطبعة الثالثة، دار الكتب القطرية، ١٣٨٢هـ وراجع كتاب الدكتور محمد بن عبدالله بن سليمان، دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأثرها في العالم الإسلامي، ص ٣٣ وما بعدها، الطبعة : ١٤٠٧هـ، بواسطة وكالة الفرقان.

٢- نبذ البدع ، ومحاربتها ، وخاصة بدعة علم الكلام.

٣- نبذ التعصب المذهبي و التقليد المذموم.

وسيأتي الحديث عن منهج هذه المدرسة في المطلب الأخير من هذا المبحث إن شاء الله تعالى..

وقبل الدخول في التفاصيل ، ينبغي أن نعرف بالمجيدري مؤسس هذه المدرســـة:

التعريف بالمجيدري:

هو كمال الدين ، محمد بن حبيب الله ، اشتهر بلقبه المجيدري الذي لقب به وهو صغير ، ولد في موريتانيا عام ١١٦٥هـ ، من عائلة متعلمة ، ومتدينة ، من قبيلة اليعقوبيين الشمشوية(١). التي تولي العلم أهمية قصوى ، وتحافظ على القيم ، و المثل العليا(٢).

في هذه البيئة العلمية ، نشأة المجيدري - رحمه الله - وعلى الرغم

---

١) تقدم الكلام عن أصل هذه التسمية في المبحث الرابع من الفصل الأول ، صفحة .. وللتوسع في سبب إطلاق هذه التسمية على هذه القبائل والدور الذي قامت به في نشر العلم ، والثقافة في موريتانيا ، راجع : المختار بن حامد ، حياة موريتانيا ، ٣٢٩/٢ ، وما بعدها ، والخليل النحوي ، المرجع السابق ، ص ٩٩.

٢) محمد الأمجد : كمال الدين محمد المجيدري اليعقوبي ، حياته ، وآثاره ص ١٤ ، بحث غير منشور ، قدم للحصول على الإجازة العالية (الليانسي) من كلية الآداب بجامعة نواكشوط عام ١٩٨٩-١٩٩٠م.

من أنه فقد والديه في صغره ، فقد وجد عناية وتربية حسنة من خاله محمد آب بن المختار(١). الذي رباه فأحسن تربيته ، وأشرف بنفسه على تعليمه ، وبعد أن درس عليه القرآن الكريم ، ومبادئ من علوم الدين ، واللغة ، انتقل إلى مدرسة المختار بن بون(٢) ، ولازمه ، وكان هو أعظم تلاميذه من اليعقوبيين(٣).

وبرز المجيدي - رحمه الله - في العلوم المتداولة في زمنه ، واشتهر بالحفظ النادر ، والذكاء المفرط ، وقد وصفه أحمد بن الأمين بأنه كان غاية في الفهم ، ثم قال : «هو العالم الذي ما له من نديد»(٤).
ووصفه محمد الأمجد بقوله : «اتفقت المصادر الشفوية وبعض المصادر الكتابية على سرعة بديهته ، وسعة محفوظاته ، وذكائه الخارق»(٥).

وهناك مقالة مشهورة اتفقت عليها المصادر والمراجع التي وقفت عليها ، تقول : «إن علماء القطر الشنقيطي في ذلك العهد أربعة ، لم يبلغ أحد مبلغهم عرفهم العام والخاص ، وهم : ابن رازكه(٦) ، ومحمد سعيد

---

١) محمد آب بن المختار بن الفقيه موسى شيخ محضرة عريقة في علم الفقه واللغة العربية ، وكان من الفقهاء المشهود لهم بالصلاح ، والوقوف عند حدود الشرع ، ت ١٢٠٤هـ ، محمد الأمجد ، المرجع السابق ص ٢١.

٢) تقدمت ترجمة المختار بن بون المتوفى عام ١٢٢٠هـ وذلك في المبحث الثاني من الفصل الرابع

٣) أحمد بن الأمين : الوسيط : ص ٢١٥ ، ومحمد يوسف مقلد ، شعراء موريتانيا ص ٤٦٥.

٤) الوسيط : ص ٢١٤-٢١٥.

٥) محمد الأمجد : المرجع السابق ص ٣٧.

البدالي (١). والمجيدري بن حبيب الله ، وسيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم(٢).

وبعد أن درس المجيدري العلوم المتداولة في بلاده وبرز فيها واشتهر في معرفتها ، قام برحلة طويلة ، مكنته من زيارة عدد من الأقطار الإسلامية ، حيث زار المغرب ، ومصر ، ثم قصد الحجاز ، وأدى مناسك الحج ، وزار المسجد النبوي الشريف(٣).

وقد حصل على مكتبة إسلامية في هذه الرحلة ، وعاد إلى بلاده، ووضع عصى الترحال ، وعكف على الاشتغال بالعلم قراءة وتدريساً ، وتصنيفاً ، وقرر الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة ، والابتعاد عن التأويل ، وعادى علم الكلام ، والمنطق ، ونادى بضرورة التمسك بالكتاب والسنة ، وطالب

---

٦) ابن رازكه ، تقدمت ترجمته في المبحث الثاني من الفصل الرابع ، صفحة :

١) محمد سعيد البدالي : الديماني ، علامة ، وشاعر مجيد ؛ له مؤلفات عديدة منها كتابه [الذهب الابريز في تفسير كتاب الله العزيز] ت ١١٦٦هـ أحمد بن الأمين ، الوسيط : ص ٢٢٣ ، ومحمد المختار بن اباه الشعر والشعراء في موريتانيا : ص ٧٦.

٢) سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم ، تقدمت ترجمته في آخر الفصل الرابع ، صفحة :

٣) كانت دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمه الله - حينذاك قد ظهرت في بلاد نجد ، وقد افترض بعض الباحثين أن يكون المجيدري رحمه الله - قد تأثر بها ، لأنه عاد إلى بلاده من هذه الرحلة وهو داعية سلفي ، الخليل النحوي ، المرجع السابق ص ١٩٧ ، وآمنتة بنت عبدالوهاب : مقدمة تبيين الصراط المستقيم لكمال الدين محمد المجيدري ، ص ٢٢ ، بحث غير منشور ، قدم لكلية الآداب والعلوم الانسانية بجامعة نواكشوط للحصول على الاجازة العالية (الليسانس) سنة ١٩٨٩م-١٩٩٠م.

بعرض آراء العلماء عليهما ، فما كان موافقاً لهما أخذ ، وما كان بخلاف ذلك ترك..

وأنكر ذلك عليه بعض العلماء ، ولا سيما شيخه المختار بن بون ، الذي نسبه للبدعة والضلال.. وانتصر له بعض العلماء من تلاميذه ، وتلاميذ المختار بن بون أيضاً ، ودافعوا عنه ، وعن منهجه.

ومن أشهر هؤلاء المأمون بن محمد المجاور اليعقوبي ، ومولود بن أحمد الجواد ، اللذين سنعرض لترجمتهما بعد قليل في هذا المبحث.

وقد دارت بين المختار بن بون وأنصاره من المدرسة الأشعرية ، وكمال الدين محمد المجيدري ، وأنصاره من المدرسة السلفية ، مناظرات آلت إلى صراع ساخن بين هاتين المدرستين ، وتواصل هذا الصراع ، حتى بعد وفاة كمال الدين محمد المجيدري ، ذلك أنه لما بلغ المختار بن بون نعيه هجاه ، وللأسف ، بقصيدة هذا مطلعها:

أودى الضلال ألا فليفرح الجذلا /// من عاش بعد مضل شاقق الرسلا

فرد عليه مولود بن أحمد الجواد بقصيدة مطلعها:

أودى الكمال إلا فليفرح الجذلا /// من لا يموت ومن لا ينقضي أجلا

موقف المجيدري من التصوف :

كان الزهد والرغبة عن الدنيا إلى الحياة الآخرة هو سلوك السلف الصالح وقد حفظت لنا كتب علماء السلف الكثير من سيرة الصحابة رضي الله عنهم - والتابعين لهم بإحسان ، ويتضح من خلالها ما كان عليه السلف منا لزهد وجهاد النفس القائم على تعاليم الكتاب والسنة ، وإيثار الحياة الآخرة على الدنيا(١).

وعلى هذا النهج سار الشيخ كمال الدين محمد المجيدري رحمه الله فقد زهد في الدنيا ورغب في الآخرة ، وجاهد نفسه مجاهدة قائمة على تعاليم الكتاب والسنة ، وما أثر عن السلف الصالح ، واعتنى بالتربية الإسلامية السليمة.

وقد مر قريباً أنه قام برحلة علمية زار فيها عدداً من الأقطار الإسلامية ، وأدى مناسك الحج ، وأثناء مروره بالمغرب التقى بالشيخ محمد التازي (٢) ، ونقل عن التازي ما يدل على أن المجيدري تتلمذ عليه ، ولم

---

١) راجع على سبيل المثال كتاب : الزهد للامام أحمد بن حنبل ص ١٣٥ ، وما بعدها ، الطبعة الأولى ، دار العريان للتراث الإسلامي ، القاهرة ، ١٤٠٨هـ.

٢) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالوهاب التازي ، فقيه مغربي صوفي ، قال عنه الشيخ محمد مخلوف : إنه الشيخ العارف بالله تعالى ، الولي ، الصالح ، الصوفي ، الأنور ، له كرامات ،

يبين التازي حقيقة هذه التلمذة ، هل هي في العلم أم في التصوف(١).

وقد ذهب بعض المعاصرين الذين تناولوا حياة المجيدري ، إلى أنه كان سلفياً صوفياً ، فقد وصفه الأستاذ محمد الأمجد بأنه : داعية إلى الاتجاه السلفي الصوفي(٢).

ومثل هذا الرأي قالت به الأستاذة آمنة بنت عبدالوهاب ، في مقدمتها لكتاب المجيدري ، «تبيين الصراط المستقيم» حيث عرضت لأهم مميزات آرائه ، وكان من بينها أنه جمع بين السلفية والتصوف(٣).

ومع احترامنا لرأي الأستاذين ، إلا أننا نخالفهما فيما ذهبا إليه لأنهما لم يقدما ما يثبت ذلك..

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد توفر لدينا ما يرجح خلاف ما ذهبنا إليه

١- إن هذه الدعوى تخالف منهج المجيدري العلمي ، والعملي ، فصرخته في وجه التقليد بصورة عامة وتمسكه بالكتاب والسنة يتعارض في نظري - مع تبني الفكر الصوفي.. إذ أن من أساسيات نظام الصوفية :

وتلامذة ، وأتباع كثيرون.. ت ١٢٠٦هـ ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ص ٣٧١-٣٧٢.

١) أمين الريحاني : ملوك العرب ص ٢٧٩-٢٨٠.

٢) محمد الأمجد : المرجع السابق ص ٥٠.

٣) راجع مقدمتها لكتاب المجيدري : مبين الصراط المستقيم ص ٢١.

تقليد المريد لشيخه تقليداً مطلقاً عبر عنه بعضهم بقوله :

فلازم في حقه - أي المريد - أن يلقي نفسه بين يديه - أي الشيخ - كالميت بين يدي غاسله ، لا اختيار له ، ولا إرادة ، ولا عطاء له ، ولا إفادة(١).

٢- أن الروايات التي وردت في هذه القضية فيها تناقض ، فتارة تذكر أن المجيدري تلقى الطريقة الشاذلية على يد الشيخ أحمد محمود بن أشفع الخطاط(٢). بعد تخرجه من مدرسة المختار بن بون مباشرة. وقبل رحلته العلمية ، وتارة تذكر أنه تلقى الطريقة الصوفية عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب التازي في المغرب ، وهو عائد من رحلته(٣).

٣- أن أقوى خصوم المجيدري المعارضين له هو المختار بن بون الجكني(٤).. وقد اشتهر بعدائه للتصوف ، وكان يشدد النكير على أبرز رجال التصوف المعاصرين له في قطره ، وهو الشيخ سيدي المختار

---

١) محمد فاضل بن مامين : نعت البدايات وتوصيف النهايات ص ٧ ، طبعة دار الفكر [د. ت] ، واللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ، بحث مختصر عن الطائفة التجانية ، ص ٩-١٠ ، الناشر : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، الطبعة الثانية ، الرياض ١٤١١هـ.

٢) أحمد محمود بن أشفغ الخطاط الشنقيطي ، فقيه صوفي ، شاذلي ، وشيخ محضرة ، ت ١١٩٦هـ ، راجع : المختار بن حامد : حياة موريتانيا ٢١٧/٢ ، ومحمد الأمجد : المرجع السابق ، ص ١٥.

٣) المرجع السابق نفسه : ص ١٥ ، ١٩.

٤) راجع : البرتلي ، فتح الشكور : ١٤١.

الكنتي(١).

فلو كان المجيدري وهو خصمه الأول - صوفياً ، لكان قد أنكر عليه من هذا الجانب ، ولم ينقل عنه ذلك ، وقد أنكر عليه في المسائل الأخرى التي خالفه فيها.

٤- أن ادعاء بعض الصوفية على كمال الدين محمد المجيدري أنه أخذ عنه أمر لا غرابة فيه ، فالصوفية ، وبعض الفرق الأخرى المنتسبة للإسلام ، يحاولون دائماً أن يكثروا من أعلامهم بنسبة شخصيات مهمة إلى طريقتهم ، وإن كانت هذه الشخصيات في الحقيقة لا علاقة لها بتلك الطريقة(٢).

٥- إن منهج مدرسة المجيدري خال من مناهج الصوفية ، وأن تلاميذ المجيدري - رحمه الله - أخذوا عنه العلوم الشرعية ، ولم يأخذوا عنه التصوف.

ولا يسع الباحث في سيرة المجيدري ومنهجه السلفي الذي أسس عليه مدرسته إلا أن يقرر أنه ليس صاحب طريقة صوفية لأنه لا يجد في سيرته وسلوكه شيئاً من علاقات علامات الصوفية ، من أحوال ، وغيرها ، وإنما

---

١) راجع : أحمد بن الأمين : الوسيط ص ٢٨٢ ، ومحمد الأمجد : المرجع السابق ص ١٥.

٢) راجع : الدكتور أحمد بن محمد بناني ، موقف الإمام ابن تيمية من التصوف ، والصوفية ، ص ٨٥ ، وشريف الشيخ صالح أحمد الخطيب ، الامام زيد بن علي المفترى عليه ص ٥٥-١٦٣.

يجد سلوك السلف الصالح وزهدهم ، وعقيدتهم ، وعلى افتراض صحة ما نسب إليه من أخذه للطريقة الصوفية ، فلعله تركها كما فعل كثيرون من علماء بلاده ، من أمثال الشيخ أحمد بن مود الجنكني ، والشيخ بداه بن البصيري التندغي ، الذي يعتبر الآن حامل لواء السلفية في موريتانيا بعدما تراجع عن التصوف ، والله أعلم.

مؤلفات المجيدري:

لم يكن محمد المجيدري - رحمه الله - مع سعة علمه من العلماء المكثرين من التآليف ، ولعل ظروف البادية ، واشتغاله بالتدريس والدعوة إلى الله عز وجل ، لم يتركه يتفرغ لهذا العمل ، غير أنه لم يترك الفرص تفوته ، حيث عنت له ، فقد ألف عدة مؤلفات ، تمثل اتجاهه الفكري ، وفيما يلي ذكر ما عثر عليه من مؤلفاته:

[١] مبين الصراط المستقيم :

وقد حققته آمنتة بنت عبدالوهاب ، في جامعة نواكشوط للحصول على الإجازة العالية (الليسانس) وستأتي نقول منه في منهج مدرسته في العقيدة. إن شاء الله تعالى .

[٢] السراج الوهاج في تبيين المنهاج:

مخطوط ، وهو مؤلف ضخم ، ولم يتم العثور عليه كاملا ، وقد بين فيه أنه يعتمد في منهجه على الكتاب والسنة.

[٣] الأسئلة :

مخطوط ، وهو مؤلف صغير انتقد فيه المتكلمين ، وطرح عليهم جملة من الأسئلة في مسائل عقدية ، طالباً الإجابة عليها ، ممن ينتصر لأهل علم الكلام ، وستأتي نقول منه في منهج مدرسته في العقيدة ، إن شاء الله تعالى.

[٤]   الجواهر المكنونة :
مخطوط ، وهو نظم كبير في علم الفرائض ، تعرض فيه لمختلف أبواب التركة.

[٥]   الجوهر المنظوم في ذكر ما حذف من الرسوم:
مخطوط ، وهو نظم تعرض فيه لرسم القرآن الكريم ، وقد ضاع أغلبه.

[٦]   رسالة في علوم القرآن الكريم.

[٧]   نظم في اللغة العربية.

وفاتـــــه :

بعد حياة حافلة بالنشاط العلمي والدعوة إلى عقيدة السلف الصالح ومنهجهم ، توفي كمال الدين محمد المجيدري عام ١٢٠٤هـ في بلاده ، بموضع يقال له [بئر أيكن] ويوجد قبره اليوم بمدينة [أكجوجت] عاصمة ولاية اينشيري وهي الولاية الثانية عشرة من ولايات موريتانيا الحالية(١).

---

١) راجع عن المجيدري وآثاره العلمية المصادر التالية : أحمد بن الأمين : الوسيط ص ٢١٤-٢١٥ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٤٦٥-٤٦٦. والمختار بن حامد : حياة موريتانيا ٤٧/٢ ، ومحمد سعيد بن دهاه : المرجع السابق ص ٢٠ ، ومحمد الأمجد : المرجع السابق ص ١٤ ، ٣٩ ، وآمنة بنت عبدالوهاب ، في مقدمتها لتحقيق كتاب المجيدري : مبين الصراط المستقيم ص ١٢-٢٥.

المطلب الثاني
حاملا لواء مدرسة المجيدري من بعده

بعد وفاة المجيدري ، حمل لواء مدرسته تلميذاه اللذان ناصراه في حياته ووقفا معه ضد المدرسة الأشعرية ، وهما : المأمون بن محمد ، ومولود بن أحمد الجواد اليعقوبيان ، وفيما يلي التعريف بهما.

أولا : المأمون بن محمد :

يعتبر المأمون بن محمد اليعقوبي ، من أبرز علماء البلاد ، وشعرائها ، وقد نافح عن العقيدة السلفية بقوة ، وتولى حمل العبء الأكبر من مسؤولية مدرسة المجيدري من بعده ، وقد تلقى العلم على المختار بن بون ، والمجيدري بن حبيب الله ، وغيرهما ، وبرع في اللغة العربية ، وصناعة الشعر.

وصفه أحمد بن الأمين بقوله : هو الشاعر المفلق ، واللغوي المحقق اشتهر بجودة الشعر وروايته ، وإحكام صنعته ودرايته..

ولما نشب الخلاف بين شيخه المختار بن بون ، والمجيدري بن حبيب الله في مسائل العقيدة ، وقف مع هذا الأخير ضد المختار بن بون ، وساجله شعراً ، وكان يرد عليه بشدة.

روى أن المختار بن بون قال : لم يضيعين إلا أبو لقريرات(١).

وقد وجه المأمون بن محمد الاتهام إلى المختار بن بون بتوهين الدين ، والابتداع فيه ، والعدول عن الكتاب والسنة ، إلى المنطق الارسطاليسي ، كما سيأتي بيانه في الكلام على منهج هذه المدرسة في العقيدة في آخر هذا المبحث.

مؤلفاتـــــه :

لم يكن الشيخ المأمون بن محمد من العلماء المكثرين من التأليف ، ولعل السبب في ذلك يعود إلى انشغاله بالتدريس ، وعدم ملاءمة ظروف البادية للتأليف ، غير أنه لم يترك الفرصة تفته ، حيثت عنت له ، فقد ألف في بعض المجالات العلمية ، ومن مؤلفاته :

- شرح على ألفية ابن مالك .
- تعليق على الأمالي لأبي علي القالي.
- شرح على قرة الأبصار للمطي.
- ديوان شعر حققه محمد بن ماء العينين في بحث جامعي.

توفي عام ١٢٣٨هـ(٢).

ثانيـاً : مولود بن أحمد الجواد:

وقف مولود بن أحمد الجواد اليعقوبي ، مع شيخه المجيدري ضد

---

١) أبو لفريرات : باللهجة الموريتانية ، الساقط الأسنان ، ويعني بذلك المأمون بن محمد اليعقوبي ، أحمد بن الأمين : الوسيط : ص ٢١٧.

٢) راجع ترجمته في الكتب التالية : أحمد بن الأمين : الوسيط ص ٢١٧ ، ومحمد المختار بن اباه : الشعر والشعر في موريتانيا ص ٧٣ ، والخليل النحوي ، المرجع السابق ص ٥٢٢.

المدرسة الأشعرية ، وحمل لواء مدرسته من بعده زميله المأمون بن محمد ، الذي تقدم الكلام عنه قبل قليل.

ويعتبر مولود بن أحمد الجواد ، من أعيان البلاد ، وعلمائها ، وقد تلقى العلم على عدد من العلماء ، منهم المختار بن بون ، والمجيدري بن حبيب الله ، وتبحر في العلوم المتداولة في أيامه.

يقول عنه أحمد بن الأمين : هو العلامة النحرير ، اللغوي الشهير ، أحد أعلام تلك البلاد ، وإليه المرجع وعلى أقواله الاعتماد(١).

وكان مشهوراً بسرعة الجواب ، مرهوب الجناب ، ولما حصل الخلاف بين شيخيه المختار بن بون ، والمجيدري بن حبيب الله ، صار من المؤيدين لهذا الأخير ، ولمنهجه ، ودعوته ، وكان المختار بن بون بارعاً في علم الكلام ، فكان يلقي عليهم أسئلة من الألغاز الكلامية ، في مسائل العقيدة ، وخاصة في مسألة كلام الله تعالى ، فيتصدى مولود للرد عليها ، متجنباً للخوض في المباحث الكلامية ، التي لا تدخل ضمن المنهج السلفي ، قدوة بالسلف الصالح رضي الله عنهم ، فقد كانوا يسكتون عن الخوض والجدال في المباحث الكلامية لا جهلا ولا عجزاً ولكن عن علم وخشية لله تعالى(٢).

فهذا الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله - الذي ضرب مثلا رائعاً في الوقوف عند مذهب السلف ونصرته والدفاع عنه ، يقول :

لست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام في شيء من هذا ، إلا ما كان من كتاب

---

١) الوسيط : ص ١٩٠.

٢) ابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على علم الخلف ص : ٣٧.

المطلب الثالث
منهج مدرسة المجيدري في العقيدة

إن أبرز ما تتميز به هذه المدرسة عقيدتها السلفية ، التي تابعت فيها رجال خير القرون ، فعلى الرغم من سيادة العقيدة الأشعرية في المحيط الذي ظهرت فيه ، فقد اشتهر عنها التمسك بالكتاب والسنة ، وترسم خطى السلف الصالح ، ورفض التأويل ، وعداء علم الكلام ، كما سنرى إن شاء الله تعالى.

يقول مؤسس هذه المدرسة [كمال الدين محمد المجيدري] - رحمه الله - «اعلم يا مكلف أن الله أوجب عليك أن توحده فتعتقد يقيناً بدليل الكتاب أو السنة ، أو هما معاً أن الله موجود لا شبه له مع غيره في ذات ، ولا صفة ، ولا فعل ، ولا إسم ، ولا حكم ، ولا عبادة ، ولا غير ذلك ، فهو واحد لا يقبل الشرك في شيء»(١).

وفي هذا النص تتجلى أبرز سماة المنهج السلفي ، وهي الاعتماد على النقل ، عكس المنهج الكلامي ، فقوله : «بدليل الكتاب أو السنة أو هما معاً» تركيز واضح على النقل في جانب العقيدة ، حيث حصر أدلتها في

---

١) مبين الصراط المستقيم ص ٦٦.

الله ، أو في حديث عن رسول الله ﷺ ، فأما غير ذلك فالكلام فيه غير محمود(١).

ولما رد الحارث المحاسبي رحمه الله على المبتدعة بعلم الكلام ، هجره وقال له : إنما السنة أن يخبروا بالآثار والسنة ، فإن قبلوها وإلا هجروا في الله»(٢).

وهكذا فلم يكن مولود بدعاً من بين علماء السلف في هذا ، وإنما كان متبعاً لسيرتهم في عدم الرد بعلم الكلام والجدل ، لأنه بدعة ، والبدعة لا ترد بالبدعة ، وبالجملة .. فقد كان مولود ملتزماً في النزاع الذي دار بين المدرسة السلفية التي ينتسب إليها ، والمدرسة الأشعرية التي يتزعمها المختار بن بون ، باتباع منهج السلف في مواقفهم المشابهة مع المدارس الكلامية.

توفي عام ١٢٤٣هـ(٣).

---

١) تقدم تخريج كلام الإمام أحمد في الفصل الأول من هذه الرسالة.

٢) راجع : صون المنطق ، المصدر السابق ١/١٨١.

٣) راجع ترجمته في الكتب التالية : الوسيط ، المصدر السابق ص ١٩٠-١٩٤ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٤٥٨-٤٦٢ ، ومحمد المختار بن أباه ، الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٧٣ ، والخليل النحوي ، المرجع السابق ص ٥٣٢.

الكتاب والسنة وفي هذا مخالفة للأشاعرة، وغيرهم من المتكلمين.

ومع أن المجيدري - رحمه الله - ظهر في حقبة تاريخية سيطر فيها المذهب الأشعري، وانتشر في العالم الإسلامي، فقد اشتهر بآرائه القوية والجريئة، وكان صريحاً في بيان العقيدة السلفية، لا يخشى في ذلك لومة لائم.

فبين أن صفات الباري عز وجل، يجب الإيمان بها على الحقيقة، حيث قال: «وصفاته تعالى على الحقيقة، فحياته، وعلمه، وقدرته، وإرادته، وسمعه، وبصره، وكلامه، واستواؤه على عرشه، وكل صفة وصف الله بها نفسه، أو وصفه بها رسوله ﷺ، فصفه بها على الوجه اللائق بجلاله وكماله، ولا تؤول(١).

ويوجه - رحمه الله - كلامه إلى خصومه الأشاعرة قائلا «وكون الواجب من صفاته ثلاث عشرة منها خمس سلبية، وواحدة نفسية، ومنها سبع يقال لها المعاني، لم يرو عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه رضي الله عنهم(٢).

وقد بين المجيدري - رحمه الله - للمتكلمين أن أصل الضلال هو قياس الغائب على الشاهد، وتحكيم العقل فيما لا يدركه، حيث قال:

---

١) المرجع السابق نفسه : ص ٦٦-٦٨.

٢) المرجع السابق نفسه ص ٦٨.

«اعلم أن أشد ما أضل الخلق هو قياس الغائب على الشاهد ، حتى أحالوا على الله ما لم تدركه عقولهم ، ولم يعلموا أنه ، وهم ، متباينون غاية المباينة ، وهم في ذلك مخطئون»(١).

وفي مسألة القدر : بين المجيدري - رحمه الله - معتقده في القدر في ثنايا كتبه ، وهو معتقد السلف ، الذي تتمسك به هذه المدرسة ، حيث يقول: «وواجب عليك الإيمان بالقدر خيره وشره»(٢).
وفسره النبي ﷺ بقوله : [أن تعلم أنما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك](٣).
وأورد قول الله عز وجل : ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾(٤).

ثم قال : ومعنى الحديث وهو موافق للآية ، أن تعتقد أنما أراد الله أن يقع بك ولو تسبب في دفعه كل أحد لا ينجيك منه شيء ، فلا تخف ،

---

١) المرجع السابق نفسه ص ٦٩.

٢) في صحيح مسلم : أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره.. وفي رواية لمسلم أيضاً : وتؤمن بالقدر كله.. راجع صحيح مسلم بشرح النووي : ١٥٧/١ ، ١٦٥ ، وسنن أبي داود ٢٢٤/٤.

٣) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، ٣١٧/٥ ، و ٤٤٢/٦ ، وأبو داود في سننه ٢٢٥/٤ ، والمنذري في مختصره لأبي داود مع معالم السنن للخطابي : تهذيب ابن قيم الجوزية ٦٨/٧-٦٩ ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، طبعة مكتبة السنة المحمدية ، [د.ت].

٤) سورة الحديد ، الآية ٢٢.

فالخوف لا ينفع فيه ، وينقص مرتبتك عند الله تعالى ، وأن ما لم يرد ولو تسبب في وقوعه كل أحد لا يقع بك ، إلا أن الله عز وجل أمر عباده في الأخذ بالأسباب رحمة بهم ، فصار تركها بدعة(١).

وبالجملة ، فإن منهج مدرسة المجيدري ، هو التمسك بالكتاب ، والسنة واقتفاء آثار السلف الصالح ، رضي الله عنهم -.
وأبيات كمال الدين محمد المجيدري التالية تلقي الضوء على ذلك ، حيث يقــول:

آي الكتاب وأخبار النبي وما ... جاء الثقات به عن صالح السلف
ما اعتاض عنها سوى أعمى البصيرة عن ... نهج الحنيفية البيضاء ذو جنف
رين على القلب يكسوه السواد كما ... يكسو المداد سواداً أبيض الصحف
فالمصطفى حثنا عند اختلافهم ... على التمسك بالقرآن ذي الشرف
وبالذي سن أو سنت صحابته ... طراً وحذرنا من بدعة الخلف
مرجمات ظنون غير مجدية ... شيئاً عن الحق بل تفضي إلى التلف
فالحق إياك أن تعدل سواه به ... لا يعدل اللؤلؤ المكنون بالخزف(٢)

---

١) مبين الصراط المستقيم : ص ٧٩-٨٠.
٢) محمد الأمجد : المرجع السابق ، ص ٨٧.

موقف هذه المدرسة من علم الكلام :

إذا أردنا أن نعرف موقف مدرسة المجيدري من علم الكلام فما علينا إلا أن نتجه شطر مؤلفه المعروف بالأسئلة ، ذلك المؤلف المهم الذي لقي جفاء كبيراً من المتكلمين الأشاعرة ، فقد تضمن هذا الكتاب الصغير الحجم ، ثورة عارمة على التيار الكلامي الممتد يومئذ في موريتانيا ، ومعظم الأقطار الإسلامية الأخرى.

وقد جاءت ثورة المجيدري هذه في وقت سادت فيه العقيدة الأشعرية ، وبلغت فيه الصياغة الكلامية أوجها عمقاً وانتشاراً ، وصارت العلوم الإسلامية منظومات تحفظ(١).

فلم يكن من الغريب أن تلقى تلك الأسئلة ردود فعل قوية وصلت في بعض الأحيان إلى حد التبديع والتضليل(٢).
لذلك ضاقت دائرة مناصريه ، ولم تصادف دعوته صدى إيجابياً في حينها ، وإن كانت فيما بعد أثرت الساحة فكرياً ، وتزايد مناصروها(٣).

وقد بدأ المجيدري - رحمه الله - أسئلته بقوله : أما بعد فإن

---

١) محمد الأمجد : المرجع السابق ص : ٥٠.

٢) أحمد بن الأمين : الوسيط ، ص ٢١٥ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٤٦٦.

٣) محمد الأمجد : المرجع السابق ، صفحة ٥٠.

المحال عند المتكلمين مالا يصح في العقل وجوده ، وقد وجدتهم يختلفون في شيء فيحكم عقل أحدهم بجوازه ، ويحكم عقل الآخر باستحالته(١) ، كاختلافهم في الواسطة بين الوجود والعدم.. وفي الوجود أهو صفة أم عين الموصوف..؟(٢).

وهذا النص في حد ذاته يكفي في نقد المنهج الكلامي العقلي حيث بين فيه أن العقول مختلفة في أحكامها ، فقد يحكم عقل زيد بجواز ما حكم عقل خالد باستحالته ، وهذا اضطراب في المنهج ، يكفي في رفض المنهج الكلامي العقلي.

ويسوق المجيدري - رحمه الله - الكلام في نقد منهج المتكلمين العقلي ، والرد على المؤولة قائلا : «المتأولون للنصوص حسبما تقبله عقولهم هم أهل زيغ القلوب ، ولو أرادوا السلامة لقالوا ما قاله الراسخون في العلم ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾(٣). فالمحال العقلي لا عبرة به ، إنما العبرة بالنقل(٤).

---

١) المحال العقلي موجود والخلاف في الغالب يكون في مثال معين هل هو محال أو جائز؟

٢) المجيدري : الأسئلة : ضمن كتاب : بداه بن البصيري ، الدر النضير ص ٤٦.

٣) سورة آل عمران : الآية ٧.

٤) المجيدري : الأسئلة ص ٤٧ ، راجع عن طوائف المؤولة ومسالكهم في التأويل بحثاً قيماً لشيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه : معارج الوصول ص ٤ وما بعدها ، طبعة الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد بالرياض ١٤١٢هـ.

ويستطرد المجيدري - رحمه الله - في ذم علم الكلام فيقول:

«إن قواعده كلها رميم إلا ما وافق الكتاب والسنة منها..»(١).

وبالتأمل في كتاب المجيدري المسمى بالأسئلة ، والذي سقنا منه هذه النصوص ، تتضح لنا معارضته - رحمه الله - لمناهج المتكلمين ونلحظ من خلال تصفحنا لهذا الكتاب أن الأمور التي رفض على أساسها إقحام العقل بمفرده في مسائل الإعتقاد تتلخص فيما يلي:

١- أن بعث الرسل دليل على أن الحق هو ما بلغوه للناس وإن كان للعقل دور في إدراك الحقيقة فهو ثانوي.

٢- عجز العقل عن إدراك حقيقة الذات الإلهية وصفاتها ، فكان تحكيمه في ذلك سبباً للضلال.

٣- الاضطراب الذي يلف مباحث علم الكلام.

٤- أن حقيقة التوحيد واحدة ، والنتائج التي تتوصل إليها العقول مختلفة.

---

١) المجيدري : الأسئلة ص ٤٧-٤٩ ، ومحمد الأمجد : المرجع السابق ص ٨٥ ، هذا الذي ذكره المجيدري هنا فيه شبه بما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية عند كلامه على مناهج المتكلمين ، حيث قال : «وهؤلاء كلهم ليس معهم من الحق إلا ما وافقوا فيه الرسول ﷺ وهو ما تمسكوا به من شرعه... وكل الأصول العقلية التي ابتدعوها باطلة في العقل والشرع» الفرقان بين الحق والباطل ، ص ١٤٦-١٤٧.

هذا الموقف من علم الكلام أدى إلى ردة فعل من عدد من علماء المدرسة الأشعرية، وعلى رأسهم المختار بن بون، قائد هذه المدرسة في عهده، والمعول على آرائه عند أشاعرة بلاده.

فقد ناصبت المختار بن بون العداء لكمال الدين محمد المجيدري، واعتبر أسئلته تحدياً وتعجيزاً له، ومحاولة للتقدم عليه، حيث يقول:

على رسلك أربع يا بن حبل إنما يقدم هذي الناس منا المتقدما
قريش قفت أهل الضلال ونحن في هدى سلف صنهاجة قد تقوماً(١)

وقد وجه المختار بن بون إلى كمال الدين محمد المجيدري أبياتاً أخرى تحمل معنى السخط، منها البيتان التاليان:

أهدي إلى العاب والشتم جازياً وليس جزائي أن أعاب وأشتما
ألا قبح الله ابن حبل إنه جزاني سنمار(٢) وماكان أظلما(٣)

---

١) أحمد بن الأمين: الوسيط ص ٢٨٠.

٢) أي: جزاني جزاء سنمار، وهو رجل رومي بنيى الخورنق الذي بظهر الكوفة، للنعمان بن امرىء القيس، فلما فرغ منه ألقاه من أعلاه فخر ميتاً، وإنما فعل ذلك لئلا يبني مثله لغيره، فضربت العرب به المثل لمن يجزى بالإحسان الاساءة، ويقال: هو الذي بنى أطم أحيحة بن الجلاح، فلما فرغ منه قال له أحيحة: لقد أحكمته؟ قال: إني لأعرف فيه حجراً لو نزع لتقوض من عند آخره، فسأله عن الحجر فأراه موضعه، فدفعه أحيحة من الأطم فخر ميتاً" أحمد بن محمد الميداني: مجمع الأمثال ١/١٥٩-١٦٠، تحقيق: محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ.

٣) أحمد بن الأمين: الوسيط: ص ٢٨٠.

وقد ألف محنض باب بن اعبيد الديماني(١) رسالة في الرد على كمال الدين محمد المجيدري، ونسبه فيها إلى البدعة والضلال(٢).

كما نسبه البرتلي(٣) في كتابه [فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور] إلى البدعة والضلال أيضاً(٤).

وقد رد كمال الدين محمد المجيدري على خصومه الأشاعرة في اتهامهم له بالابتداع والضلال بنظم قال فيه:

قال عبيد ربه المنتصر من ظلمه محمد المجيدر
وفقه الاله في الأقوال لصالح النية والأعمال
لو كنت بدعياً لما كان الصواب عندي الأحاديث الصحاح والكتاب(٥)

ويلاحظ من هذه الأبيات تمسك صاحبها بالكتاب والسنة، وتجنبه للخوض في علم الكلام، والرد على الخصوم به، وهذه الميزة من

---

١) مخيض باب بن اعبيد الديماني: عالم من مشاهير علماء بلاده، وصفه أحمد بن الأمين بقوله: علامة شنقيط، وعقدها الوسيط، وبدرها المنير، راجع الوسيط: ص ٢٣٦، والخليل النحوي: المرجع السابق، ص ٥٣٠.

٢) أحمد بن الأمين: الوسيط: ص ٢١٥، ومحمد يوسف مقلد: شعراء موريتانيا ص ٤٦٦.

٣) هو أبو عبدالله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، عالم أشعري، صوفي، له اليد الطولى في علم الفقه وأصوله، واللغة العربية وعلومها، ت ١٢١٩هـ، راجع مقدمة كتابه فتح الشكور: ص ١٧-٢٢، والخليل النحوي: المرجع السابق ص ٥٠٨.

٤) فتح الشكور: ص ١٤١.

٥) مبين الصراط المستقيم، المرجع السابق، ص ٢٤، والمختار بن حامد: حياة موريتانيا ٤٧/٢.

الخصائص التي تميزت بها هذه المدرسة واشتهرت بها ، شأنها في ذلك شأن المدارس السلفية الأخرى.

يقول الإمام مالك - رحمه الله - : إن المتكلمين لا يحاربون بالجدال»(١).

ويقول الإمام الشافعي - رحمه الله - : كل من تكلم بكلام في الدين أو في شيء من هذه الأهواء ليس فيه إمام متقدم عن النبي ﷺ وأصحابه فقد أحدث في الإسلام حدثاً(٢).

ويظهر هذا المنهج جلياً في عدم جواب هذه المدرسة بعلم الكلام على الألغاز الكلامية التي كان المختار بن بون يوجهها إليها ، ومن ذلك على سبيل المثال قوله موجهاً كلامه إلى مولود بن أحمد الجواد:

أحاجيك هذا النور قل ما وجوده ... بقلب الذي يتلو ويقرأ بالفم
أينمى لما ينمى له وهو قائم ... بذات العلي العالم المتكلم
أتجعله إذ ذاك وصفاً محله ... ذوات الورى أم ذو الجلال المعظم(٣)

---

١) القاضي عياض : ترتيب المدارك ١/١٠٤.

٢) أبو المغفر السمعاني ، الانتصار لأهل الحديث ، تلخيص السيوطي في صون المنطق : ١/٢٠٠-٢٠١.

٣) سيدي محمد فال بن محمد الديماني : شرح قصيدة المختار بن بون ص ١. مخطوط ، توجد عندي صورة منه ، قال الشارح : حاصل معنى هذه الأبيات أنه سأله عن وجود النور الذي هو القرآن العظيم بقلب القارىء له ولسانه من أي الوجودات ، وذلك أن لكل موجود أربعة وجودات : وجود خارجي ، ووجود في الأذهان ، ووجود في اللسان ، ووجود في البنان ، ثم إن الشيخ لما سأل ببيته الأول عن وجود القرآن بقلب قارئه ووجوده بلسان قائله من أي الوجودات هو؟ سأل ثانياً فقال : أينمي لما ينمي له.. الخ ، أي ينسب لما ينسب له من قيامه بقلب القارىء ولسانه ، وهو مع ذلك قائم بذات الله جل جلاله وذلك لا يصح عقلا لأن فيه قيام

هذه الأبيات من قصيدة طويلة، وجهها المختار بن بون إلى مولود بن أحمد الجواد - كما مر - وهي تدور كلها حول مسألة كلام الله تعالى، وهي مسألة غامضة كثر الجدال حولها، وتشعبت أقوال الفرق الإسلامية فيها(١).

قال الذهبي: رحمه الله: مسألة الكلام غامضة، ويكفي المسلم أن يؤمن بالقرآن العظيم جل منزله أنه كلام الله غير مخلوق، وأنه عين ما تكلم به متشبه، ومبديه عز وجل...»(٢).

وعلى طريقة السلف ومنهجهم في الابتعاد عن الخوض في علم الكلام والرد به على المتكلمين .. ترك مولود بن أحمد الجواد الدخول مع المختار بن بون في الجدل والألغاز الكلامية(٣).

صفة واحدة بمحلين: أحدهما: قديم، والآخر حادث، ثم قال: أتجعله إذ ذاك وصفاً.. الخ، أي استخلص من هذا المستحيل السابق وهو قيام صفة واحدة بمحلين بأن تجعله قائماً بأحد المحلين وتجعل الآخر عارياً منه، وذلك أيضاً لا يصح لأن قيامه بقلب قارئه ولسانه مشاهد حساً وقيامه أي القرآن الذي هو كلام الله بذاته تعالى، واجب نقلا وعقلا.. المرجع السابق نفسه ص ١-٢.

١) قال ابن أبي العز الحنفي: افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال. راجع شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٩-٢٠٢.

٢) العلو للعلي الغفار في صحيح الأخبار وسقيمها ص ١٩٤، تقديم وتصحيح عبدالرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ.

٣) راجع: أحمد بن الأمين: الوسيط ص ١٩٤، ومحمد يوسف مقلد: شعراء موريتانيا ص ٤٦١.

وجاء الرد على لسان المأمون بن محمد المجاور اليعقوبي الذي اتهم المختار بن بون بتوهين الدين والابتداع فيه ، والعدول عن الكتاب والسنة إلى المنطق الاسطاليسي ، وفي ذلك يقول:

قد جرت معتسفاً يا هادي الطرق ... وإنه البحر لا يقتلك بالغرب
أكثرت حزك لو دريت مفصله ... فابدر المفاصل قبل الحز واستفق
ما للدين إلا الذي تسعى لتوهنه ... أي النبي وآثار الهدى العتقى
لا كل خيط عن اليونان مبتدع ... قد سن بين أصول الدين مختلق
تحمي قواعد رسطاليس تحسبها ... ديناً لك الويل نبهناك فاستفق
ان قلت ساغت لمن تمت قريحته ... أو أن يخلص لنا من مسلم تلق
رداً بأن أبا حفص قد أوردها ... وردها المصطفى منه على تأق(١)
كما البخاري في التوحيد أخرجه ... والحبر أحمد والبزار في طرق
إن كنت تورد نسخاً أو معارضة ... لذي الأحاديث فاذكر ما ترى وسق
وإن تكن قاصراً عن كونها ثبتت ... فيما حوى سرحه الحفاظ في الورق
فاعرف مقامك في درك العلوم ولا ... تعرض لمن خاض فيها شاسع الشقق
فأنت ويحك في وهد الحضيض فلا ... تمدد يديك لمأوى فارق الأنق(٢)

---

١) التأقة : محركة ، شدة الغضب والسرعة ، الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ص ١١٢٤.

٢) أحمد بن الأمين : الوسيط : ص ٢١٧-٢١٨ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٨٣ ، والأنق : محركة ، الفرح والسرور ، والكلأ ، وأنق كفرح ، والشيء أحبه ، وبه أعجب ، والأنوق : كصبور ، العقاب ، والرخمة ، وطائر أسود له كالعرف ، أو أسود أصلع الرأس أصفر المنقار ، الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ص ١١١٧.

الفصل السادس

الشيخ [بـــاب] ومنهجه في العقيدة

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : التعريف بالشيخ باب .

المبحث الثاني : منهجه في العقيدة .



المبحث الأول
التعريف بالشيخ [باب]

هو العلامة المحدث ، سيدي بن سيدي محمد ، وقد اشتهر بلقبه [باب] ابن الشيخ سيدي ، ويقال له الشيخ سيدي باب جمعاً بين الاسم واللقب ، وتمييزاً له عن جده الشيخ سيدي الكبير ، وكنيته أبو محمد ، ويرجع نسبه إلى قبيلة تندغ(١) ، إحدى قبائل المرابطين ، الذين أسسوا دولة عظيمة نشرت الإسلام وأرست قواعده في النفوس في شمال وغرب إفريقيا(٢).

وقد ولد الشيخ [باب] عام ١٢٧٧هـ في بلاده ، ونشأ في بيئة علمية متدينة ، فهو من عائلة ذات شهرة دينية ، وعلمية كبيرة ، لها مكانة في المجتمع الموريتاني ، لا تستطيع أن تظفر بمثلها عائلة أخرى في البلاد. يقول محمد يوسف مقلد : أنت إذا طفت موريتانيا ، أو زرت بعض نواحيها فقط فإنك ستسمع أسماء عائلات معروفة مشهورة كأنها أسماء العواصم ، أو أسماء الشعوب ، ولكن عائلة الشيخ سيدي عائلة لا تضاهيها عائلة أخرى في العلمية ، والشهرة ، لا في القديم ، ولا في الحديث(٣).

---

١) أحمد بن الأمين ، الوسيط : ص ٢٤٠ ، وعبداللطيف الدليشي ، المرجع السابق ص ٢٥١.

٢) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، ص ٣٩-٤٠ ، وعصمت عبداللطيف المرجع السابق ص ١٢٧-١٢٨ ، وسلامه الهدفي ، المرجع السابق ، ص ٥٧-٥٨ ، وقد تقدم الكلام في التفصيل عن الدولة المرابطية في الفصل الثاني والثالث من هذه الرسالة.

في هذه البيئة العلمية نشأ الشيخ سيدي باب فكان لها أثرها على شخصيته العلمية.

ولا غرو في ذلك ، فقد كانت مدينة بتلميت(١) التي هي مقر عائلته ، مورد طلاب العلم.

وكان أبوه الشيخ سيدي محمد علامة لغوي ، وشاعر مجيد ، له اليد الطولى في علم النحو ، والآداب ، والتاريخ ، وغير ذلك(٢).

وجده الشيخ سيدي الكبير ، اشتهر بالعلم ، والكرم ، وحسن الخلق ، حتى اتفق أهل زمانه على أنه لم يظهر مثله في بلاده.(٣).

ولكن صاحب ترجمتنا الشيخ سيدي باب ، لم يعش مع أبيه ، وجده سوى بداية الطفولة ، فقد توفي جده وهو في السنة السابعة من عمره ، وتوفي أبوه بعد ذلك بسنة واحدة ، ورغم ذلك فقد حفظ القرآن الكريم قبل بلوغه عشر سنين ، واشتغل بتحصيل العلم على كبار علماء بلاده ، ومن أشهر العلماء الذين أخذ عنهم:

---

٣) محمد يوسف مقلد ، شعراء موريتانيا ص ٣٥٩.

١) تقع مدينة بتلميت : في الناحية الشرقية من مدينة نواكشوط العاصمة على بعد مائة وخمسين كيلا.

٢) أحمد بن الأمين : الوسيط ص ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، وعبداللطيف الدليشي ، المرجع السابق ص ٢٥١.

٣) أحمد بن الأمين : الوسيط : ص ٢٤٠-٢٤٢ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٤٦٨ ، وما بعدها ، وعبداللطيف الدليش ، المرجع السابق ص ٢٤٩ ، وما بعدها.

الشيخ محمد(١) بن السالم البوحسن ، والشيخ محمد(٢) بن حنبل بن الفال البوحسن ، والشيخ أحمد بن سليمان الديماني(٣) جد العالم الجليل المحدث محمد بن أبي مدين ، والشريف الشيخ أحمد بن ازوين ، من قبيلة أهل [بابية].

ويقول طلاب الشيخ سيدي الكبير : إن الشيخ أحمد ابن ازوين هذا ، هو الذي ملأ الفراغ العلمي بعد الشيخ سيدي الكبير(٤).

ولما ناهز الشيخ سيدي باب العشرين من عمره ، تاقت نفسه إلى معرفة الحق من منبعه ، فعكف على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، واستجلب الكتب من الآفاق النائية ، بالأثمان الغالية ، واستنسخ منها ما لم يكن

---

١) هو عالم جليل ، شاعر مجيد ، توفي في بداية القرن الرابع عشر الهجري ، راجع الوسيط : المصدر السابق ص ٢٩٩-٣٠٠ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ، ص ٥٠٩-٥١٠.

٢) هو أحد العلماء الأعلام ، له اليد الطولى في علم اللغة ، والنحو ، والبيان ، راجع الوسيط ، المصدر السابق ص ٣١١-٣١٢ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٥٢١ ، وعبداللطيف الدليشي ، المرجع السابق ص ١٥-١٦.

٣) الشيخ أحمد بن سليمان الديماني : من أعيان قبيلته ، وعلمائها البارزين ، أخذ العلم عن الشيخ سيدي الكبير ، له عدد من المؤلفات ، منها : كتاب الأنساب ، ت ١٣٠٠هـ ، راجع الخليل النحوي ، المرجع السابق ص ٥١٥ ، ومحمد بن أبي مدين : الصوارم والأسنة في الذب عن السنة ، الطبعة الأولى : دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٧هـ.

٤) حدثني بذلك حفيدا المؤلف ، وهما الشيخ ابراهيم بن محمد بن الشيخ سيدي باب ، والشيخ أحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن سيدي باب ، وذلك في مقابلة أجريتها معهما في مكة المكرمة ، والمقابلة عندي مكتوبة بتاريخ ١٤١٢/١/١٦هـ.

مطبوعاً ، حتى اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من أهل بلاده.. وأقبل عليها ، قراءة وتدرساً ، وتصنيفاً ، بجد ، وحرص بالغ على التحصيل ، مع ما يتمتع به من الذكاء المفرط والحفظ النادر..

وكان إذا استعار كتاباً ولو كانت أجزاؤه كثيرة ، كتفسير الطبري ، وفتح الباري مثلا ، لا يضعه مع الكتب التي كانت عنده ، حتى يتصفحه ورقة ورقة ، ويعلق على ما فيه من غوامض وأخطاء ، ويستقصيه استقصاءاً كاملاً.

ولما درس السنة ، جعلها نصب عينيه ، وعمل بها وأصبحت تدور عليها سائر أموره ، عقيدة ، وشريعة ، وسلوكاً ، بل في حركاته ، وسكناته.

وكان لا يخشى في الحق لومة لائم ، ولا يبالي بما يصيبه في سبيله ، وقد أقبل الناس عليه ، والتفوا حوله ، وقاد دعوة سلفية ، تهدف إلى العودة بالإسلام إلى ينابيعه الصافية الأولى : كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، وينبذ الجمود ، والتقليد الأعمى.

ولما كان جل أهل القطر الموريتاني في المعتقد على مذهب أبي الحسن الأشعري الأوسط ، وفي الفروع على رواية ابن القاسم عن مالك في المدونة ، وفي التصوف منقسمين شيعاً وأحزاباً..(١)..

بين لهم أن الصواب في المسألة الأولى هو مذهب أهل القرون

---

١) تقدم الكلام في هذه الرسالة عن الطرق الصوفية المنتشرة في موريتانيا ، في المبحث الأخير من الفصل الأول.

الثلاثة المفضلة ، وهو رفض التأويل الكلامي ، وامرار ظواهر الكتاب والسنة كما جاءت ، من غير تشبيه ، ولا تكييف ، ومن غير تأويل ، ولا تحريف ، ولا تعطيل ، على الوجه اللائق بالله عز وجل.

وفي المسألة الثانية ، بين لهم أن الواجب على العلماء ، أن يعرضوا آراء الفقهاء ، على الكتاب والسنة ، فما كان موافقاً لهما أخذ ، وما كان بخلاف ذلك ترك ، لأن تقليد غير المعصوم ، في كل ما يقول من غير الرجوع إلى الدليل خطأ وخطر.

وكان رحمه الله - يحترم الأئمة ، ومذاهبهم على حد سواء ، من غير تعصب لإمام أو مذهب معين ، يثني على الأئمة ، ويشكر سعيهم ، ويترحم عليهم ، وينظر في أقوالهم ، نظر منصف ، فإن اتفقوا على مسألة بان له دليلهم فيها أو لم يبن له دليل على خلافهم ، أخذ بها ، وإن اختلفوا نظر إلى من معه الدليل ، فأخذ بقوله ، سواء كان واحداً أو أكثر.

وفي المسألة الثالثة - مسألة التصوف - وهي من أكثر المسائل تعقيداً في الحياة الدينية في موريتانيا ، بين للمتصوفة أن السلامة ، والفوز في اتباع الكتاب ، والسنة ، وما ثبت عن السلف الصالح ، والابتعاد عن المحدثات ، والبدع في الدين.

وعلى الرغم من أن أباه وجده كانا صوفيين ، فإنه نبذ التصوف وأنكره

، وانتقده نقداً علمياً موضوعياً(١).

أقوال العلماء فيه :

شخصية الشيخ سيدي باب ، لا تتضح معالمها مما ذكرناه فحسب ، بل تعرف كذلك بشهادات العلماء الذين عاصروه.

فقد جاء في كتاب الدرر النضير للشيخ محمد بداه بن البصيري ما نصه : «إمام الأئمة ، الطود الشامخ ، ناصر سنة رسول الله ﷺ ، النصر المصاحب للعمل»(٢).

أما سبطه ، وتلميذه الشيخ محمد بن أبي مدين ، فيقول عنه : «محي السنة ، ومجدد القرن الرابع عشر»(٣).

وقال عنه صاحبه الفقيه الأديب المؤرخ ، المختار بن حامد : «هو العالم الذي أحيا السنة ، وعلومها ، وقام بنشاط ملحوظ في نشر الدعوة إلى منهجه السني ، السلفي ، وساعده على ذلك ما يتمتع به من جاه كبير ، مع الإحاطة بما في الكتب التي في بلده ، ولقد صدق فيه - يقول المختار بن

---

١) راجع عن هذا الموضوع : حياة باب بن الشيخ سيدي وعقيدته بقلم سبطة ، وتلميذه محمد بن أبي مدين ، ص ١ وما بعدها ، مكتوب على الآلة الكاتبة [د. ت] ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٣٣٧-٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، وأحمد بن أحمد المختار : إكمال تحفة الألباب ١/٣٧٠ ، ٣٧١ ، وأحمد ولد أبو مدين ، المرجع السابق ، ص ٢٧ وما بعدها.

٢) الدر النضير ، المرجع السابق ص ٤٥.

٣) حياة باب بن الشيخ سيدي وعقيدته ، المرجع السابق ص ١.

حامد - قول محمد فال بن عبينه الحسني إذ يقول:

يا من حوى ما حوته الكتب أجمعها وصار يطلب ما لم تحوه الكتب(١)

وقال عنه الشيخ أحمد بن أحمد المختار، إنه «العلامة، المحقق، الموحد، العالم المتبحر، سيف الله المسلول على المبتدعين، والمعطلين، وأهل الخرافة أجمعين»(٢).

أما الدكتور محمد المختار بن اباه، فقد وصفه بقوله: عالم جليل، ورجل سياسة واسع النفوذ، قوي التأثير»(٣).

وقال عنه الشيخ محمد الصوفي، إنه «العلامة المجتهد الذي أحيا الله به السنة وأمات به البدعة»(٤).

أما الباحث عبدالله بن ياياه، فقد وصفه بأنه: العالم المجتهد

---

١) المختار بن حامد: المقابلة السابقة بتاريخ ١٤١٢/٨/٨هـ وهذا البيت مطلع قصيدة جيدة طويلة، يمدح فيها الشاعر الشنقيطي المشهور محمد فال بن عبينه الحسني باب بن الشيخ سيدي، راجع نص هذه القصيدة في كتاب محمد يوسف مقلد: شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، ص ٦٦٧.

٢) أحمد بن أحمد المختار، إكمال تحفة الألباب ٣٧٠/١.

٣) محمد المختار بن اباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، ص ٧٥، وعن النفوذ السياسي للشيخ سيدي باب، وتوليه للزعامتين الدينية والدنيوية في بلاده راجع: شعراء موريتانيا القدماء والمحدثون، المرجع السابق ص ٣٦١.

٤) محمد الصوفي، المرجع السابق ص ٨٠.

المحقق المكب على السنة ، الورع ، الزاهد ، رجل الدنيا والآخرة(١).

وقال عنه الأستاذ أحمد ولد أبو مدين : هو محي السنة ، ومجدد القرن الرابع عشر(٢).

مؤلفاتـــــه :

ألف الشيخ سيدي باب في مجالات عدة ، ولعل مما يصور مكانته العلمية ، واتجاهه الفكري ، ذكر آثاره التي خلفها ، لأن ذلك يلقي الضوء على تنوع معارفه العلمية ، الشيء الذي مكنه من سلوك طريق في التأليف ، بناه على الاستقلال الفكري ، وتمحيص الآراء ، وعرضها على الكتاب والسنة ، بعيداً عن التعصب الأعمى ، والتقليد المذموم.

وفيما يلي عرض لهذه المؤلفات:

١- ارشاد المقلدين عند اختلاف المجتهدين ، طبع في تونس ١٣٨٠هـ.

٢- عقيدة مختصرة. مخطوط.

٣- رسالة في أرجحية التفويض في آيات الصفات وأحاديثها ، مخطوط.

٤- الذكر المشروع وغير المشروع ، مخطوط.

٥- رسالة في حكم الهجرة من البلاد المحتلة ، مخطوط.

---

١) مقدمة ديوان باب بن الشيخ سدي ، ص ١ ، مخطوط ، أملك صورة منه.

٢) محمد ولد أبو مدين ، المرجع السابق ص ٤٧.

٦- رسالة في الزكاة المتفق على إجزائها، مخطوط.

٧- رسالة في إجزاء القيمة في الزكاة، مخطوط.

٨- رسالة في سنية رفع اليدين والقبض في الصلاة، مخطوط.

٩- رسالة في كيفية الصلاة التي لا تبطل في أي مذهب. مخطوط.

١٠- رسالة في بيان إعجاز القرآن، مخطوط.

١١- منظومة في أهل الصفة، مخطوط.

١٢- رسالة في حرف الضاد، مخطوط.

١٣- تاريخ قبائل البيضان وإمارتي ادوعيش ومشظوف، مخطوط.

١٤- أجوبة على أسئلة شتى، مخطوط.

١٥- تعليق على ألفية ابن مالك، مخطوط.

١٦- ديوان شعر، مخطوط(١).

توفي رحمه الله تعالى في بلاده عام ١٣٤٢هـ عن عمر بلغ أربعة وستين عاماً.

وقد أرخ ابن عمه الشيخ سيدي محد بن داداه وفاته بأبيات هذا نصها:

قضى بجيم في جمادى الثانية ... إمام كل حضر وبادية

الشيخ سيدي يوقت الظهري ... وتلك أعظم دواهي العصري

---

١) الخليل النحوي، المرجع السابق ص ٥٦٢-٥٦٣، ومحمد الصوفي، المرجع السابق ص ٨١.

في سنة تاريخها بشمس والعمر دين(١) كضياء الشمس(٢)

---

١) هذه الأبيات فيها جمل استخدم الناظم فيها الرمز بنقط الحروف اختصاراً ، ولغموض ذلك رأيت أنها بحاجة إلى الايضاح ، فقوله : جيم ، أي اليوم الثالث من شهر جمادى ، لأن الجيم تنقط ثلاثاً ، والشمس : رمز لسنة الوفاة ، لأن الباء باثنتين ، الشين بألف ، والميم بأربعين ، والسين بثلاثمائة ، ودين : رمز لعمر المترجم له ، فالدال بأربعة ، والياء بعشرة والنون بخمسين.

٢) محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٣٦١ ، وأحمد ولد أبو مدين ، المرجع السابق ص ٣٢.

المبحث الثاني
نهج الشيخ باب ، في العقيدة

إن أبرز ما تميز به الشيخ سيدي باب ، عقيدته التي تابع فيها رجال خير القرون.

فعلى الرغم من المحيط الثقافي الذي عاش فيه ، والذي يسير في أغلب حاله على العقيدة الأشعرية ، والطرق الصوفية ، فقد كان سلفي العقيدة ، وضرب مثالا رائعاً في الوقوف عند منهج السلف ، ونصرته ، والدعوة إليه ، والدفاع عنه.

ودعا إلى إمرار ظواهر الكتاب والسنة ، كما جاءت على الوجه اللائق بالله عز وجل ، ونبذ التأويل ، وحرم علم الكلام ، وحذر من إدخاله في المعتقد ، تبعاً لأئمة السلف(١).

ومع أن هذا مشهور عنه في بلاده ، فسوف أذكر أمثلة ونماذج تدل عليه وتؤكده ، وأبدأ ذلك بمنظومته التي حررها على منهج السلف ومعتقدهم(٢) في آيات الصفات ، وأحاديثها ، وهي قوله:

---

١) حياة باب بن الشيخ سيدي ، المرجع السابق ص ٢ ، والدر النضير ، المرجع السابق ص ٤٥ ، وقد تقدم موقف السلف من علم الكلام في أول هذه الرسالة.

٢) عطية محمد سالم : مقدمة كتاب الرحلة ، المرجع السابق ص ٨.

ما أوهم التشبيه في آيات — وفي أحاديث عن الثقات
فهي صفات وصف الرحمن — بها وواجب بها الإيمان
ثم على ظاهرها نبقيها — ونحذر التأويل والتشبيها
قال بذا الثلاثة القرون — والخير باتباعهن مقرون
وهو الذي ينصره القرآن — والسنن الصحاح والحسان
وكم رآه من إمام مرتضى — من الخلائق يناظر الرضى
ومن أجاز منهم التأويلا — لم ينكروا ذا المذهب الأصيلا
والحق أن من أصاب واحد — لا سيما إن كان في العقائد
ووافق النص وإجماع السلف — فكيف لا يتبع هذا من عرف
ومن تأول فقد تكلفا — وغير ماله به علم قفا
وفي الذي هرب منه قد وقع (١) — وبعضهم عن قوله به رجع (٢)
حتى حكى في منعه الاجماعا — وجعل اجتنابه اتباعا
وقد نماه بعض أهل العلم — من الاكابر لزب جهنم
فاشهد بربك أيها المحق — على الذي سمعت فهو الحق (٣)

وقد بين الشيخ باب رحمه الله تعالى - في شرحه لهذه الأبيات ما يراه

---

١) هذا قريب من قول شيخ الإسلام ابن تيمية : إن كل واحد من النفاة لما أخبر به الرسول ﷺ من الصفات لا ينفي شيئاً فراراً مما هو محذور إلا وقد أثبت ما يلزمه فيه نظير ما فرضه.. التدمرية ص ١٥.

٢) تقدم الكلام عن كبار المتكلمين الذين رجعوا إلى مذهب السلف وذلك في آخر الفصل الأول.

٣) باب بن الشيخ سيدي ، عقيدته ، صفحة ١ ، مخطوط ، توجد منه صورة عندي ، وبداه بن البصيري ، الدر النضير ، المرجع السابق ، ص ٤٥.

هو الحق ، وهو إثبات كل ما جاء في الكتاب والسنة الصحيحة ، من الصفات ، قولية كانت أو فعلية ، أو ذاتية ، كالنفس ، والوجه ، والعين ، والإصبع ، واليد ، والرجل ، والاتيان ، والمجيء ، والنزول ، والاستواء على العرش ، وغير ذلك ، معرضاً عن التأويل ، متجنباً عن التشبيه ، معتقداً أن الله سبحانه وتعالى ، منزه عن الجارحة ، ومشابهة المحدثات ، لا تشبه صفاته صفات المخلوقات ، كما لا تشبه ذاته ذوات مخلوقاته ، مستشهداً بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، ذاكراً كلام أئمة السلف ، الذين لا ترقى التهم إلى الشك في عقيدتهم..

ثم قال : وعلى هذا مضى سلف الأمة ، وعلماء السنة ، من الصحابة والتابعين ، وفقهاء الأمصار الذين ساروا على هذا المنهج ، كالإمام مالك ، والشافعي ، والسفيانان ، والليث بن سعد ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وغيرهم من الأئمة المتمسكين بهذا المذهب..
كلهم تلقوا آيات الصفات وأحاديثها بالقبول ، وتجنبوا فيها عن التمثيل ، والتأويل ، حيث كانوا يقولون اقرءوها كما جاءت ، بلا كيف ، ولا تشبيه ، ولا تأويل ، عل حد قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾(١).

ثم استطرد في نقول كثيرة عن خيار أئمة السلف ، تثبت وتؤيد ما ذهب

---

١) سورة الشورى ، الآية : ١١.

إليه قائلا : هذا هو مذهب أهل السنة ، ومعتقد سلف الأمة(١).

فكيف لا يوثق بما اتفق عليه أهل القرون الثلاثة ، وهم خير القرون(٢) بشهادة صاحب الشريعة..

ثم إنه من المحال أن يأمر الله نبيه ﷺ بتبليغ ما أنزل إليه من ربه ، وينزل عليه ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾(٣) ثم يترك هذا الباب فلا يميز ما تجوز نسبته إليه مما لا تجوز(٤).

والقارىء لهذا الكلام يلمس تقارباً واضحاً بينه وبين كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، حيث يقول :

«وكيف يتوهم من في قلبه أدنى مشكة من إيمان ، وحكمة ، ألا يكون بيان هذا الباب قد وقع من الرسول ﷺ على غاية التمام ، ثم إذا كان قد وقع ذلك منه فمن المحال أن يكون خير أمته وأفضل قرونها قصروا في هذا

---

١) عقيدة باب بن الشيخ سيدي ، المرجع السابق ، ص ٢-٣.

٢) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا المعنى ما نصه : «من المحال أن تكون القرون الفاضلة القرن الذي بعث فيه رسول الله ﷺ ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، كانوا غير عالمين ، وغير قائلين ، في هذا الباب بالحق المبين ، لأن ضد ذلك إما عدم العلم ، والقول ، وإما اعتقاد نقيض الحق ، وقول خلاف الصدق ، وكلاهما ممتنع.. الفتوى الحموية الكبرى ، ص ١٢.

٣) سورة المائدة ، الآية : ٣.

٤) عقيدة باب بن الشيخ سيدي ، المرجع السابق ، ص ٤.

الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه..(١).

وهذا الالتقاء في الأسلوب، والمنهج الذي تقدمت الإشارة إلى أمثلة منه، يجعلنا لا نستبعد أن الشيخ باب، في اعتناقه لعقيدة السلف، كان متأثراً بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، أو أن الحق لا يختلف.. والله أعلم.

توسل الشيخ باب:

في مجال التوسل، كان الشيخ باب متبعاً للمنهج السلفي، كغيره من مباحث العقيدة، وهو الوسيلة إليه تعالى، بالعمل الصالح وأسمائه، وصفاته، جل شأنه.

فقد عثرت له على منظومة تبلغ تسعة وتسعين بيتاً، يتوسل في كل بيت منها باسم من أسماء الله الحسنى، وهذه نماذج منها:

١) الحموية الكبرى، ص ١٢.

يالله قربني إليك قربى ... وأكرمني بالمقام الأربى
والترحمن من سوء كل ريني ... ضعفي يا رحمن في الداريني
واعطف علينا يا رحيم عطفاً ... يعمنا تفضلا ولطفاً
واغفر ذنوبي وامح من خطايا ... ما كان يا غفار في الخطايا
ولا ترد يا سميع دعوتي ... ولا تقابل بالجفاء جفوتي
وعمنا باللطف يا بصيرا ... بخلقه وكن لنا نصيرا
واجعل حسابي يا حسيب عرضاً ... أسر إن لاقتيه وأرض (١)

وتجدر الملاحظة هنا إلى أن الوسيلة المشروعة هي الوسيلة إليه تعالى، بالعمل الصالح، وأسمائه، وصفاته، كما سبق ذكره.

وبدعاء الأنبياء، والصالحين في حياتهم، أما ما يزعمه بعض المنتسبين للاسلام من أن المراد بالوسيلة مشايخ الطرق الصوفية، الذين يكونون واسطة بينهم وبين ربهم، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾(٢).. فهذا باطل.

قال الطبري عند هذه الآية: المعنى: اطلبوا القربة إليه بالعمل بما

---

١) راجع القصيدة كاملة في ديوانه، المصدر السابق ص ٦٠ وما بعدها.
٢) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

يرضيه»(١).

وقال الشوكاني : الوسيلة : قيل هي التقوى ، لأنها ملاك الأمر وكل الخير والظاهر أن الوسيلة التي هي القربة تصدق على التقوى ، وعلى غيرها من خصال الخير ، التي يتقرب بها العباد إلى ربهم(٢).

وقال الشنقيطي في كتابه أضواء البيان : جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة : القربة إلى الله تعالى ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وفق ما جاء به محمد ﷺ ، بإخلاص في ذلك لله عز وجل ، لأن هذا وحده هو الطريق الموصلة إلى الله ، ونيل ما عنده من خير الدنيا والآخرة..(٣).

أما ما يزعمه المتصوفة من أن المراد بالوسيلة في الآية الشيخ الذي يكون واسطة بينهم وبين ربهم ، فهذا باطل ، لأن اتخاذ الوسائط من دون الله من أصول الكفر(٤).

وقد ذكر الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ ، أن الوسيلة

---

١) جامع البيان عن تأويل القرآن ٦/٢٢٦.

٢) فتح القدير ٢/٣٨.

٣) محمد الأمين بن محمد المختار ، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢م٩٧-٩٨ ، طبعة عالم الكتب ، بيروت ، [د. ت].

٤) المرجع السابق .

المشروعة تكون باتباع الرسل، والنور الذي جاءوا به، وأما الأنبياء والصالحون فليس من المشروع التوسل بذواتهم، ولا جاههم، ولا حرمتهم، وإنما يشرع التوسل بدعائهم، في حياتهم كما فعله المسلمون في زمنه ﷺ وبعده، كما يشرع التوسل إليه جل وعلا بأسمائه وصفاته(١).

---

١) صالح بن عبدالعزيز: هذه مفاهيمنا ص ١١-١٩، بتصرف، الطبعة ١٤٠٧هـ بدون تحديد المكان، ومحمد بن أحمد القول الجلي في حكم التوسل بالنبي ص ٦ وما بعدها، دار صبح الاسلامي [د. ت].

موقف الشيخ باب من التصوف :

نبذ الشيخ سيدي باب التصوف ولفظه ، وعلى الرغم من أن أباه وجده كانا صوفيين ، فإنه أنكر التصوف وانتقده ، واعتبره من المحدثات والبدع في الدين.

وسوف أذكر من منظوماته ما يلقي الضوء على موقفه من الصوفية والتصوف ، ومن ذلك قوله:

كن للإله ذاكراً ... وأنكر المناكـــرا
وكن مع الحق الذي ... يرضاه منك دائراً
ولا تَعد نافعاً ... سواءه أو ضائرا
واسلك سبيل المصطفى ... ومت عليه سائرا
أما كفى أولنا؟ ... أليس يكفي الآخرا؟
وكن لقوم أحدثوا ... في أمره مهاجرا
قد موهوا بشبه ... واعتذروا معاذرا
وزعموا مزاعما ... وسودوا دفاترا
واحتنكوا أهل الفلا ... واحتنكوا الحواضرا
وأورثت أكابر ... بدعتها أصاغرا
واحكم با قد أظهروا ... فما تلى السرائرا
وإن دعا مجادل ... في أمرهم إلى مرا

فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا (١)

وقال أيضاً :

آمن أخي واستقم ونهج أحمد التزم
واجتنب السبل لا تغررك اضغاث الحلم
لا خير في دين لدى خير القرون منعدم
أحدثه من لم يرد نص بأنه عصم
من بعدما قد أنزلت اليوم أكملت لكم (٢)
وبعدما صح لدى جمع على غدير خم
وادع إلى سبيله وخص في الناس وعم
واذكر إذا ما أعرضوا عليكم أنفسكم (٣)

وقد اتخذ الشيخ باب من الأموال التي يستنزفها المتصوفة من أيدي

---

١) أحمد بن أحمد المختار : إكمال تحفة الألباب ٣٧٠/١-٣٧١ ، ومحمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٣٧٩-٣٤٠ ، ومحمد بن أبي مدين : باب بن الشيخ سيدي ، حياته وعقيدته ، ص ٥ ، وشن الغارات على أهل وحدة الوجود وأهل معية الذات ص ١٨٤ ، مخطوط ، توجد عندي صورة منه.

٢) الشطر الأخير من هذا البيت جزء من الآية رقم : ٣ ، من سورة المائدة.

٣) محمد بن أبي مدين : شن الغارات على أهل وحدة الوجود وأهل معية الذات ، ص ١٧٢ ، مخطوط شخصي ، وحياة باب بن الشيخ سيدي وعقيدته ، ص : ٥ ، ومحمد الصوفي ، المرجع السابق ص ٨١ ، والشطر الأخير من البيت الأخير جزء من الآية رقم ٥ ، من سورة المائدة.

أتباعهم بإسم الدين ، وتحت شعارات دينية زائفة ، مدخلا لنقد المتصوفة ، وكشف عوراتهم.

فوصفهم بأنهم مبتدعة ، يأكلون أموال الناس بالباطل ، حيث قال:

آكل مال الناس بالباطل ... مزخرف القول بلا طائل
ميلهم عن سنة المصطفى ... إلى طريق البدعة المائل
محصل المال بلا فترة ... في جمعه المانع للحاصل
عجلان في حظ له عاجل ... كسلان في منفعة الآجل
يصيد إلى زخرفه عاقل ... كأنه من ليس بالعاقل
اتسع الخرق على راقع ... واختلفط الحابل بالنابل
هذا وذو التوحيد عنوانه ... إسناده الفعل إلى الفاعل(١)

وأخيراً نجد الشيخ باب يخاطب الصوفية بلغتهم ، فيبين لهم أنه لا حقيقة للتصوف المؤدي إلى النجاة إلا العلم والعمل الخالصين لوجه الله تعالى ، حيث يقول:

حقيقة الصوفي عند القوم ... أهل الصفاء من دواع اللوم
العالم العامل في إخلاص ... لا غير ملتمس الخلاص(٢)

---

١) محمد بن أبي مدين : شن الغارات على أهل وحدة الوجود وأهل معية الذات ، ص ١٨٥ ، وراجع له أيضاً : حياة باب بن الشيخ سيدي وعقيدته ، ص ٥.

٢) ديوان باب بن الشيخ سيدي ، المرجع السابق ص ٥٥.

الفصل السابع

تلاميذ الشيخ باب وتأثيره العام على العقيدة

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : تلاميذه.

المبحث الثاني : تأثيره العام على العقيدة.

ooo

المبحث الأول

تلاميذ الشيخ باب بن الشيخ سيدي

ذكرنا في الفصل السابق في ترجمة الشيخ سيدي باب أنه لما ناهز العشرين من عمره، تاقت نفسه إلى معرفة الحق من منبعه، كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، وكون مكتبة زاخرة بالمصادر، في مجالات العلوم الإسلامية، وجلس للمطالعة، والتدريس، والتصنيف..

وقد التف حوله طلاب العلم للاستفادة من علمه، ومن مكتبته، فدرسوا عليه، وتخرجوا من مدرسته، وهم يحملون فكره السلفي.

وسوف نتناول في هذا المبحث أبرز تلاميذه الذين تأثروا بفكره، وحملوا لواء دعوته السلفية من بعده، وفيما يلي عرض عن هؤلاء العلماء السلفيين..

* * * *

أولا : الشيخ محمد المهابة بن سيدي محمود:

هو العلامة اللغوي ، والمهابة بن سيدي محمد بن الطالب اميحن الجملي ، وينسبون إلى ادريس بن عبدالله(١).

وقد ولد محمد المهابة في ضواحي مدينة [مقطع الحجار] بدلاية ألاك [البراكنه] عام ١٣٠٦هـ ، وحفظ القرآن الكريم في صغره ، ثم تابع دراسته على علماء المنطقة ، ومن أبرزهم : الفاروق بن زياد الديماني ، والأمين بن الشيخ محمد الحجاجي ، ومحمد سالم بن حد من قبيل [اهل يابيتي].

وبرع في الفقه ، واللغة العربية ، وعلومها ، والحديث ، ومصطلحه ، وكان شديد الذكاء ، متفوقاً على أقرانه في الحفظ والفهم.

واتباعاً لطريقة السلف في الرحلة لطلب العلم ، رحل الشيف محمد المهاية من مسقط رأسه بولاية البراكنة إلى الشيخ سيدي باب في مدينة بتلميت ، وأخذ عنه العقيدة السلفية ، وتأثر بمنهجه القائم على التمسك

---

١) تقدم الكلام عن ادريس بن عبدالله المتوفى عام ١٧٥هـ وكيف استقر بالمغرب وإلى إدريس هذا ينسب الجمليون ، قال الشيخ عبدالرحمن بن محمد بلال الجملي:

انسب الى سبط البني الحسن ... من عرفوه بالمثنى الحسن

وانسب الى المثنى عبدالله ... الكـــامل الحبر الهمام الباهي

وانسب له الشهير ادريس العلي ... ومنه من قد انتموا للجملي

حصلت على هذه الأبيات في مراسلة علمية تمت بيني وبين الشيخ محمد الشيباني الذي ستأتي ترجمته قريباً ، حيث أرسل إلى جميع المعلومات التي طلبت منه مكتوبة وموقعة منه بتاريخ ١٤١٢/١٢/١٣هـ جزاه الله خيراً على حسن صنيعه.

بالكتاب والسنة، ونبذ التعصب والتقليد الأعمى.

وبعد وفاة الشيخ سيدي باب، رحل لأداء مناسك الحج والتزود من العلم وأثناء وجوده في المملكة العربية السعودية، التقى ببعض العلماء السلفيين فيها، ومنهم الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، وفي هذه الرحلة حصل على مكتبة سلفية كبيرة، ولدى عودته إلى وطنه أبدى إعجابه رحمه الله بما شاهده من نصوع الحق على أيدي دعاة السلفية في المملكة العربية السعودية.

وقد تصدى للرد على المبتدعة، من متكلمين، ومتصوفة، وغيرهم، وفند أقوالهم الواهية، بالأدلة القاطعة، من الكتاب والسنة، واشتهر بالرد على المبتدعة، والضلال، حتى لقب بـ [ابن تيمية الصغير].

التدريس والقضاء والفتيا

مهنتــــه :

كان الشيخ محمد المهاية شيخ محضرة ، تعج بطلاب العلم ، وكانت طريقته في التدريس ذات سمة خاصة ، تميزها عن طريق التدريس التي عليها غالبية مشايخ المحاضر..

فيعرض المسألة عرضاً على الطلاب ، ثم يطرحها للمناقشة معهم ، مناقشة علمية ، وإذا ظهر له مخالف من طلابه ، وتبين بعد المناقشة أن الحق مع الطالب ، رجع إلى الحق ، بتواضع وإنصاف ، فكانت محضرته محضرة أخذ وعطا.

وقد تخرج منها عدد من العلماء ، منهم:

محمد عمر بن محمد بلال الجملي ، وسيدي محمد بن تكدي اللمتوني ، ومحمد الشيباني التجمري ، وغيرهم.

وبالاضافة إلى مهنة التدريس كان يتولى القضاء ، والفتيا ، في دائرة البراكنة ، [ولاية ألاك] ، وسار فيهما سيرة حسنة ، وعرف عنه العدل ، والنزاهة ، وحسن الخلق ، والنشاط ، وكان فاضلا ، حسن السمت ، صارماً في الحق ، وقد نال ثقة عظيمة عند الناس ، فكانوا يأتونه من أماكن بعيدة للقضاء بينهم ، أو للفتوى في المسائل التي تشكل عليهم ، ويعودون من عنده

وهم راضون مطمئنون.

وقد شهد له العارفون به من العلماء المعاصرين له بالفضل، والعدل والانصاف.
وظل الشيخ محمد المهاية يزاول نشاطه في هذه المجالات، وفي الدعوة إلى العقيدة السلفية، حتى توفي رحمه الله تعالى(١).

مؤلفاتـــــه :

ألف الشيخ محمد المهاية في مجالات من العلم مختلفة، مما يدل على تنوع معارفه العلمية، وتذكر المراجع أن العديد من مؤلفاته قد ضاع بسبب ضياع مكتبته النفيسة في مدينة [ألاك]، بعد وفاته رحمه الله، وقد تم العثور على مؤلفاته التالية:

١- مذهب السلف في التفويض في آيات الصفات وأحاديثها، وهذا الكتاب قدم له وحققه ابن أخت المؤلف الطالب أحمد بن سيدي حمود، وهو الآن تحت الطبع وستأتي نقول منه في منهج المؤلف العقدي.

---

١) الطالب أحمد بن سيدي حمود : مقدمة كتاب مذهب السلف في التفويض في آيات الصفات وأحاديثها لمحمد المهاية بن سيدي محمد، ص ٢-٤، مكتوب على الحاسب الإلي في شوال ١٤١٠هـ بجدة، ومراسلة محمد الشيباني السابقة، بتاريخ ١٣/١٢/١٤١٢هـ.

٢- عقيدة مختصرة أولها أقسام الدين ثلاثة... الخ.

٣- كتاب في المتشابه.

٤- نظم في أسماء الله الحسنى.

٥- نظم إضاءة الأدموس في اصطلاح القاموس، وشرح عليه.

٦- حاشية على عبد الباقي شارح مختصر خليل، وعلى محشية البناني.

٧- فتاوى مدونة في مجلد.

٨- ردود فقهية على بعض علماء عصره في موضوعات من الفقه مختلفة.

٩- طرة على سلم الأخضري في المنطق.

١٠- وتعليق على نظم عبد الرحمن بن بلال [الكبير] في علم الكلام.

وهذه المؤلفات ما تزال مخطوطة، بعضها في دار الثقافة بمدينة نواكشوط والبعض الآخر عند تلامذة المؤلف.

توفي الشيخ محمد المهابة رحمه الله، في أوائل الحجة من عام ١٣٧٠هـ في مدينة اندر [ساتلويس] بالسنغال(١).

منهج الشيخ محمد المهابه في العقيدة:

كان الشيخ محمد المهابة من العلماء المتمسكين بمنهج السلف الصالح عقيدة وشريعة وسلوكاً، واقفاً عند حدود الشرع، معتصماً بالكتاب

---

١) الخليل النحوي، المرجع السابق: ص ٦١٣-٦١٤، والطالب أحمد بن سيدي حمود، المرجع السابق، ص ٤-٥، والمختار بن حامد: حياة موريتانيا ٤١/٢.

والسنة ، مدافعاً عن عقيدة السلف.

وكتابه [مذهب السلف في التفويض في آيات الصفات وأحاديثها] شاهد بذلك.. هذا الكتاب الذي يظهر فيه التأثر العميق بالشيخ سيدي باب ومؤلفاته ، وذلك أن مؤلفه عندما يعرض آراء الفرق في مبحث من مباحث العقيدة ، ويناقشها ويرجح مذهب السلف منها يقول : «وبهذا قال إمام العصر الشيخ سيدي باب » ثم يسوق نص كلامه نظماً أو نثراً(١).

وقد حاز هذا الكتاب على تزكيات من علماء سلفيين في موريتانيا وعلى رأسهم الشيخ بداه بن البصيري الذي قرظه بما نصه (أما بعد : فقد تأملت كتاب العلامة المحقق محمد المهابة بن الطالب اميجف في التفويض في آيات الصفات وأحاديثها ، فإذا هو موافق لما عندي في تأليفنا المسمى [تنبيه الخلف الحاضر على أن تفويض السلف لا ينافي الاجراء على الظواهر].. فلذلك سلمته تسليم معترف به»(٢).

وقد وصفه الشيخ محمد الشبناني النجمري ، بقوله : «إن تأليف شيخنا العلامة محمد المهابة - رحمه الله - المسمى [مذهب السلف في التفويض في آيات الصفات وأحاديثها لا يختلف ما فيه عن ما هو موجود في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية»(٣).

وقد ذكر الشيخ محمد المهابة رحمه الله - سبب تأليفه لهذا الكتاب

---

١) راجع مذهب السلف في التفويض في آيات الصفات وأحاديثها ، ص ١٠ ، ٥٠ ، ٧٧ ، ٨٢.

٢) المرجع السابق نفسه ، المقدمة ص ١.

٣) مراسلة محمد الشيباني السابقة ، بتاريخ ١٣/١٢/١٤١٢هـ.

بقوله: «ولما كان جل ما يعتمده أهل زماننا في بلادنا هذه الشاغرة عن الحواضر الإسلامية ، في العقائد ، إنما هي تآليف المتأخرين ، كالسنوسي(١) ، المتوفى سنة نيف وتسعين وثمانمائة ، ونحوها ، بحيث تعسر معرفة مع من الحق من هذين المذهبين ، يعني مذهب السلف ومذهب الأشاعرة - أردت أن أبين الحق في ذلك ، وهو ما كان عليه السلف الصالح»(٢).

واستهل - رحمه الله - كتابه هذا بقوله «أما بعد : فقد ظهر لنا بعد الاطلاع على مذاهب الأقديمن ، أنما عليه جل ما بأيدينا من تآليف المتأخرين في آيات الصفات وأحاديثها ، بني على مذهب مرغوب عنه عند السلف ، والفقهاء ، والمحدثين ، وهو قولهم أنها مصروفة عن ظاهرها إجماعاً(٣).

وركز في هذا الكتاب من بدايته إلى نهايته على بيان منهج السلف في آيات الصفات وأحاديثها ، وهو : إثبات كل صفة وصف الله بها نفسه في كتابه العزيز ، أو وصفه بها رسوله ﷺ في الذي صح عنه من سنته ، من غير تشبيه ، ولا تكييف ، ومن غير تعطيل ، ولا تأويل ، كما ركز في بعض المباحث على الرد على الأشاعرة.

---

١) تقدمت ترجمته في الفصل الرابع

٢) مذهب السلف في التفويض في آيات الصفات وأحاديثها ص ٩٨.

٣) المرجع السابق نفسه ص ٧ ، وتقدم دعاوى الأشاعرة للاجماع على وجوب صرف نصوص الكتاب والسنة عن ظاهرها إذا أوهمت غير اللائق بالله عز وجل ، وتم الرد على هذه الدعوة المزعومة.

وسوف نقتطف من هذا الكتاب ما يلقي الضوء على المنهج العقدي لصاحبه ، ومن ذلك قوله:

«...إن السلف الصالح من الصحابة ، والتابعين ، وأتباعهم من الفقهاء ، والمحدثين ، مجمعون على إبقاء نصوص الكتاب والسنة على ظواهرها.. والسكوت عليها من غير تعطيل ، ولا تشبيه ، ولا تكييف ، ولا تأويل ، بل يعتقدونها حقاً بلا تكييف ، مع اعتقادهم أن الله تعالى ليس كمثله شيء(١).

وأضاف - رحمه الله - قائلا : «إن هذا المذهب هو الذي كان عليه مالك بن أنس ، وسفيان بن عيينة ، وعبدالله بن المبارك - رحمهم الله - فقد روي عنهم كلهم أنهم أثبتوا الصفات التي وردت في الكتاب والسنة ، وقالوا : أمروها كما جاءت بلا كيف ، وهو قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة.. وأما الجهمية فأنكروا ذلك ، وتأولوا آيات الصفات وأحاديثها ، وفسروها على غير ما فسر أهل العلم(٢).

رأي الشيخ محمد المهابة في [المعية]:

تقدم قبل قليل ما يلقي الضوء على منهجه العقدي العام ، ورفضه للمنهج الكلامي الأشعري السائد في عصره ، ووطنه.

---

١) مذهب السلف في التفويض في آيات الصفات ، ص ٨.

٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٨-٩.

وأما بالنسبة لآيات المعية وأحاديثها فذكر فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن المعية داخلة في الصفات، فيفوض فيها من غير تكييف ولا تأويل على طريقة السلف في الصفات.

القول الثاني: تأويل المعية بالعلم دون الذات.

وهذا القولان يظهر من كلامه أنهما رأيان لأهل السنة والجماعة مقبولان ولم يرجح بينهما ترجيحاً واضحاً صريحاً، وإن كان قد يفهم من أسلوبه أنه يميل إلى القول الأول منهما.

القول الثالث: هو قول الجهمية: الضلال، وهو أن الله تعالى - في كل مكان بذاته(١).

وقد رد على أصحاب هذا القول الفاسد بمالا يزيد عليه، ثم قال: إعلم وفقنا الله وإياك أيها الناظر أن الرادين على أهل معية الذات فريقان: يرجع كل منهما إلى أصل غير أصل الآخر، ويبدع كل واحد منهما الآخر..

أحدهما: فريق المحدثين الذين يرجعون في صفات الله تبارك وتعالى

---

١) قال الذهبي: قالت الجهمية: إن الله تبارك وتعالى في جميع الأمكنة، تعالى الله عن قولهم، بل هو معنا أينما كنا، بعلمه، ومقاله متأخري المتكلمين: أن الله تعالى ليس في السماء ولا على العرش، ولا على السماوات، ولا في الأرض، ولا داخل العالم، ولا خارج العالم، ولا هو بائن عن خلقه، ولا متصل بهم، وقالوا جميع هذه الأشياء صفات الأجسام، والله تعالى منزه عن الجسم، وقال أهل السنة والأثر: نحن لا نخوض في ذلك، ونتبع النصوص وإن زعمتم.. ولا نقول بقولكم فإن هذه السلوب نعوت المعدوم - تعالى الله جل وعلا عن العدم - بل هو موجود متميز عن خلقه، موصوف بما وصف به نفسه، من أنه فوق العرش بلا كيف .. العلو للعلي الغفار ص ١٠٧.

وأسمائه إلى محض النقل ، فيؤمنوا بظاهر كل ما أخبر الله به عن نفسه ، من غير تعطيل ، ولا تشبيه ، ولا تكييف ، ولا تأويل ، وهؤلاء أهل السنة والجماعة على التحقيق.

والثاني فريق المتكلمين(١) الذين يرجعون في عقائدهم إلى الدليل العقلي فيحكمونه في كل ما ورد نقلا ، فإن وافقه قبلوه ، وإلا ردوه أو تأولوه(٢).

ويسلك الشيخ محمد المهابة - رحمه الله - في مسألة الإيمان مسلك أهل السنة والجماعة - كعادته - فيقول:

«إن الإيمان قول واعتقد ، وعمل يزيد وينقص»(٣).

وبعد هذه النصوص ، التي سقناها عن الشيخ محمد المهابة رحمه الله والتي تلقي الضوء على منهجه العقدي ، أريد أن أذكر ما أشرت إليه من

---

١) ذكر الذهبي : أن رأي المتكلمين في هذه المسألة لا يعقل ولا يفهم ، ونص كلامه : فأما القول الثالث : المتولد أخيراً من أنه تعالى - ليس في الأمكنة ، ولا خارجاً عنها ، ولا فوق عرشه ، ولا هو متصل بالخلق ، ولا بمنفصل عنهم ، ولا ذاته المقدسة متميزة ، ولا بائنة عن مخلوقاته ، ولا في الجهات ، ولا خارجاً عن الجهات ، ولا ولا .. فهذا شيء لا يعقل ، ولا يفهم ، مع ما فيه من مخالفة الآيات ، والأخبار ، ففر بدينك ، وإياك وآراء المتكلمين ، وآمن بالله ، وما جاء عن الله على مراد الله ، وفوض أمرك إلى الله» العلو للعلي الغفار ص ١٩٥.

٢) مذهب السلف في التفويض في آيات الصفات وأحاديثها ص ١٣-١٤.

٣) المرجع السابق نفسه ص ١١٣.

قبل ، وهو أن الشيخ محمد المحابة رحمه الله - لم يقتصر على اتباع عقيدة السلف وبيانها ، بل تصدى للرد على الأشاعرة ، وكانت ردوده علمية ، وهادئة.

فقد بين أن الطريق المأمونة هي: طريق الكتاب والسنة ، وما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم ، والتابعون ، وأئمة المذاهب الأربعة ، وغيرهم من أهل السنة والجماعة..

وشرح للأشاعرة المراحل العقدية التي مر بها أبو الحسن الأشعري ، إلى أن تاب في آخر عمره عن معتقداته التي أخذها من علم الكلام ، ورجع في عقائده إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، إمام أهل السنة والجماعة(١).

والمعروف أن الأشاعرة يقسمون الصفات الإلهية ، فيؤولون أكثرها ، ويثبتون بعضها بدون تأويل.

وقد ركز الشيخ محمد المهابة - رحمه الله - في رده على الأشاعرة على هذا التقسيم ، فبين أنه لم يرد به كتاب ، ولا سنة ، ولا ثبت عن السلف الصالح ، وأن صفات الباري عز وجل كلها من باب واحدة ، لأن الموصوف بها جل وعلا واحد ، وهو منزه عن مشابهة المخلوقين ، في شيء من ذواتهم أو صفاتهم ، فكل ما جاء في الكتاب ، والسنة ، من الصفات ، يجب الإيمان به ، وإبقاؤه على ظاهره ، بلا تشبيه ، ولا تكييف ، ولا تأويل ، كالنفس ،

---

١) المرجع السابق نفسه ص ١١٤.

والعين ، والإصبع ، واليد ، والرجل ، والإتيان ، والمجيء ، والنزول إلى السماء ، والإستواء على العرش ، والضحك ، والفرح ، وغير ذلك..

فالله عز وجل لا تشبه صفاته صفات المخلوقين ، كما لا تشبه ذاته ذواتهم.. كما قال تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾(١).

وبعد أن بين الشيخ محمد المهابة - رحمه الله - للأشاعرة مذهب السلف في الاعتقاد بظواهر النصوص ، والصفات الواردة فيها ، من غير تأويل ، ولا صرف لها عن ظاهرها ، مع التنزيه لله عز وجل وذاته العلية ، عن أن تشبه الذوات ، وتتصف بصفات المخلوقين ..

قال: «على هذا النهج مضى سلف الأمة ، وعلماء السنة ، ولم ينقل عن النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه من طريق صحيح ، تصريح بوجوب تأويل شيء من ذلك ، ولا المنع من ذكره ، ومن المحال أن يترك النبي ﷺ هذا الباب ، فلا يميز ما يجوز نسبته إلى الله مما لا يجوز..(٢).

كما بين رحمه الله - أن أصل خطأ المتكلمين في مبحث الصفات ، هو قياس الغائب على الشاهد ، فقد ذكر مناقشات المتكلمين ، حول حقيقة الذات الإلهية ، وصفاتها ، ثم قال ما نصه:

---

١) انظر المرجع السابق نفسه ص ١٠.

٢) انظر المرجع السابق نفسه : ص ١١.

«... كل خطأ ، والصواب الإمساك عن أمثال هذه المباحث ، والتفويض إلى الله في جميعها..»(١).

ويصف الشيخ محمد المهابة - رحمه الله - علم الكلام بأنه مخترع لا أصل له في دين الإسلام ، حيث يقول:
«.. وحقيقة الدليل العقلي مبنية على تقسيم الفلاسفة العالم إلى عرض وجرم ، وهو أصل مخترع لا أصل له في دين الإسلام»(٢)..

هذا ولم يقتصر الشيخ محمد المهابة - رحمه الله - على بيان الحق للأشاعرة ، والوقوف ضد منهجهم الكلامي ، والرد عليه فحسب ؛ بل لا نكون مبالغين إذا قلنا أن موقفه من الخرافيين ، والمتصوفة ، لا يقل شأناً عنم وقفه من المتكلمين ، وبسبب ذلك وقع الخلاف بينه وبين كثير من معاصريه.

غير أنه لم يكترث بخلافهم ، بل صمد أمامهم صمود من يمتلك الحجة وجرت بينه وبينهم مناظرات ومكاتبات كثيرة(٣)..
وقد اهتم الشيخ محمد المهابة - على وجه الخصوص - بالدعوة إلى حماية جانب التوحيد وتحقيق توحيد العبادة لله تعالى ، والنهي عن دعاء غيره عز

---

١) المرجع السابق نفسه ص ٥٤.

٢) المرجع السابق نفسه ص ١٤.

٣) المرجع السابق نفسه ، المقدمة ص ٣ ، ومراسلة محمد الشيباني السابقة بتاريخ ١٣/١٢/١٤١٢هـ.

وجل.

كما ركز على نقد المتصوفة ، فوصفهم بالغلو والبعد عن الحق ، واستعباد أتباعهم ، وأبياته التالية تدل لذلك ، حيث يقول:

شكى الشجو منتاب الهوى متهالكاً ... وأعطى القياد منه ما كان مالكاً
وأعظم عذل العاذلين متيماً ... سلام سلا فاستعبر الدمع حالكاً
وما ذاك من إلف تقادم عهده ... ولا أظعن مطن الغوير سوالكا
سوى أن دعي داع إلى الله شفه(١) ... اقتحام بنى الجنس الدهور المـ
فأرشدهم للحق لا متخافتاً ... به جزعاً كلا ولا متهالكاً
يقول اجعلوا الله حسب دعاءكم ... اتستوهب المرغوب من ليس مالكاً
فليس الندا يسيء التوسل ثم ذا ... سبيل احتياط ان تذر كنت سالكا
فخاتمة الصوفي(٢) تنمي لمالك ... به الخطر فاحذر أن تخالف مالكا
بلى ومزايا الصالحين كثيرة ... وما هم دعاة الفي ذم اولا لكا
بل المؤمنون المتقون...
فجالس وزروا صحب وباذل وحبهم ... لوجه إله العرش تسعد بذالكا
فما العلم إلا آية ثم سنة ... تخيرها الحفاظ مما هنالكا

---

١) المشفشف : بالفتح ، والكسر ، السيء الخلق ، ومن به رعدة واختلاط غيرة واشفاقاً على حرمه ، واستشفه نظر ما وراءه ، وشفشفه الهم : هذله ، وضمره حتى دق ، وشفشف عليه إذا أشفق ، الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ص ١٠٦٦.

٢) خاتمه الصوفي : كتاب لمحمد سعيد البدالي الديماني الشنقيطي المتوفى عام ١١٦٦هـ وهو كتاب مشهور في موريتانيا ، وما يزال مخطوطاً إلى عهد قريب.

كفوا وضعها بل ضفعها وشذوذها ... واعلالها فلتجني ذلك علكا
والا فرأي من إمام مهذب ... وعن العلم غضاواستبان المسالكا
وإيا والوعاظ عني غلوهم ... فقد جعلوا الأتباع منهم ممالكا
هم صيروا ذاالحق أبلج واضحاً ... من الإفك غر النيرات حوالكا(١)

---

١) هذه الأبيات أوردها محمد الشيباني في رسالته السابقة بتاريخ ١٤١٢/١٢/١٣هـ مستشهداً بها على اتباع الشيخ محمد المهابة للسنة ، ووقوفه ضد الشركيات والبدع.

ثانياً : الشيخ محمد بن أبي مدين

هو العالم الجليل ، المحدث ، واللغوي ، الشهير محمد بن أبي مدين الديماني الشمشوي(١).

ولد في نواحي مدينة بتلميت سنة ١٣٢٢هـ وتربى في حجر جده لأمه الشيخ سيدي باب الذي تولى تدريسه بنفسه ، وأشرف على تكوينه العلمي ، والأخلاقي ، حتى تفقه في الدين ، وكان يلزمه بالمطالعة الدائمة للكتب الضخمة ، والسؤال عن كل مشكل عرض له فيها على الفور..

ومن هذه الكتب على سبيل المثال : صحيحا البخاري ومسلم ، وتفسير الطبري وتاريخه ، ويقال إنه كاد أن يحفظ هذه الكتب عن ظهر قلب ، وكان الشيخ سيدي باب يقول له دائماً : اسأل عن كل ما عرض لك من إشكال فإن العلم إذا كشفته سترك ، وإذا سترته فضحك(٢).

ولم يقتصر الشيخ محمد بن أبي مدين في أخذ العلم على جده الشيخ سيدي باب ، بل أخذه عن غيره من مشاهير علماء بلاده ، فقد درس اللغة

---

١) تقدم الكلام عن أصل هذه التسمية [تشمشه] ، وللتوسع فيما يتعلق بالقبائل الشمشوية ، راجع أحمد ولد أبو مدين ، المرجع السابق ، ص ١١ وما بعدها.

٢) المرجع السابق نفسه ص ٢٠-٢٦.

العربية ، والشعر ، على والده(١).. ودرس النحو في مدرسة يحظيه بن عبد الودود (٢) وظهرت نجابته وذكاؤه في هذه المدرسة ، واستفاد منها ، وأصبح من أبرز علماء البلاد في عصره(٣).
وبعد تخرجه من هذه المدرسة ، عاد إلى المكتبة التي خلفها جده الشيخ سيدي باب ، وجلس فيها للمطالعة والتدريس ، والتصنيف ، بجد بالغ في التحصيل العلمي(٤).

مهنته ، ومؤلفاته :

أ- مهنته :

اشتغل الشيخ محمد بن أبي مدين بالتدريس ، فبعد نهاية دراسته على الشيخ يخطبه بن عبدالودود ، توجه إلى مدينة [بتلميت] وجلس للتدريس واجتمع عليه طلاب العلم ، من أنحاء مختلفة من البلاد ، وتخرج من

---

١) هو أبو مدين بن الشيخ أحمد ، ولد حوالي ١٨٧٠م من عائلة ذات شهرة علمية ، وكان عالماً وشاعراً مجيداً ، ملتزماً باتباع مذهب أهل السنة ، والجماعة ، واشتهر بالسجايا الحميدة ، وكرم النفس ، راجع أحمد ولد أبو مدين ، المرجع السابق نفسه ص ١٩-٢٣.

٢) يحظيه بن عبدالودود ، عالم جليل ، ولغوي مشهور ، ويعتبر من أبرز علماء البلاد ، وخاصة في مجال اللغة العربية ، وعلومها ، ويلقب بـ [سيبويه] وهو من أعيان البلاد ، وشيخ محضرة ذات صيت كبير ، تخرج منها كثير من العلماء ، ت ١٣٥٨هـ ، الخليل النحوي المرجع السابق ، ص ٤٩٨-٥٣٣.

٣) أحمد ولد أبو مدين ، المرجع السابق ، ص ٢٤-٢٦.

٤) المرجع السابق نفسه ، ص ٢٥-٢٦.

محضرته عدد من طلاب العلم.

وفي عام ١٩٤١م انتسب إلى سلك التعليم النظامي ، حيث عين مدرساً في أول مدرسة إبتدائية تأسست في مدينة بتلميت ، وذلك بموجب القرار رقم ٧٩٢ الصادر بتاريخ ١٩٤١/١١/١٤م ، وظل مدرساً في هذه المدرسة حتى فتح المعهد الإسلامي(١) عام ١٩٥٩م ، فاختير للتدريس فيه من بين نخبة من أعيان علماء البلاد ، وأسندت إليه مادة الحديث ، وظل يدرسها فيه حتى توفي رحمه الله(٢).

---

١) افتتح هذا المعهد في مدينة [بتلميت] وقد أسسته جمعية ترقي الثقافة الإسلامية برئاسة عبدالله بن باب بن الشيخ سيدي المتوفى عام ١٣٨٤هـ وتتركز الدراسة فيه على العلوم الشرعية ، واللغة العربية ، ويشترط للتدريس فيه أن يكون الأستاذ متخصصاً في الفن الذي يريد أن يكون مدرساً له ، وتجري للأساتذة المترشحين للتدريس مسابقة لاختيار المتفوقين منهم ، محمد يوسف مقلد : شعراء موريتانيا ص ٨٥-٩٥.

٢) أحمد ولد أبو مدين ، المرجع السابق ص ٤٢-٤٥ ، والخليل النحوي ، المرجع السابق ص ٥٢٠.

ب - مؤلفاته :

اشتغل ابن أبي مدين - رحمه الله - بالتأليف في عقد الثلاثين من عمره وقد ألف عدة مؤلفات في مجالات من العلم مختلفة.

ومن مؤلفاته :

١- الصوارم والأسنة في الذب عن السنة.

٢- شن الغارات على أهل وحدة الوجود وأهل معية الذات.

٣- حياة باب بن الشيخ سيدي وعقيدته .

٤- تحريم علم الفلسفة والمنطق(١).

٥- شرح ألفية العراقي في مصطلح الحديث.

٦- شرح المقصور والممدود لابن مالك.

٧- كتاب المنيحة.

٨- ديوان شعر.

وهذه المؤلفات ما تزال مخطوطة ، ولم يطبع منها إلا الصوارم والأسنة في الذب عن السنة(٢).

---

١) ذكر الشيخ محمد بن أبي مدين في كتابه : شن الغارات ص ١٥٦ ، أنه ألف كتاباً في تحريم الفلسفة والمنطق ولم أستطع الحصول عليه.

٢) أحمد ولد أبو مدين ، المرجع السابق ص ٥٧ - ١٠٣.

نشاطه في الدعوة السلفية :

كان الشيخ محمد بن أبي مدين - رحمه الله - كثير الترحال في الأقطار الإسلامية ، مولعاً بحج بيت الله الحرام ، وزيارة المسجد النبوي الشريف ، وقد أدى مناسك الحج ثماني مرات ، وكان يغتنم هذه الفرص لاستجلاب الكتب ، وإلقاء المحاضرات ، والدروس ، في الأماكن التي يزورها ، وخاصة في الحرم المدني ، وكانت دروسه غالباً في بيان عقيدة السلف ، والرد على أهل البدعة ، وفي الحديث النبوي وعلومه(١).

وقد نال سمعة طيبة في نشاطه في الدعوة السلفية ، ولا سيما في المملكة المغربية ، التي ترتبط بها موريتانيا ارتباطاً علمياً ودينياً بعيد المدى.

فقد كان يزورها من حين لآخر ، ويلقي فيها المحاضرات ، ويحضر الملتقيات العلمية ، والثقافية ، على المستوى الشعبي ، والحكومي ، ويلتقي بالعلماء ، وطلاب العلم.

وقد تأثر بعض المغاربة بفكره السلفي ، وأعجبوا بمستواه العلمي(٢).

وكانت الحكومة الموريتانية تبتعثه في مهام كثيرة إلى الخارج في

---

١) المرجع السابق نفسه ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٦.

٢) المرجع السابق نفسه ، ص ٦٧-٦٨ ، ٧٠.

مجال الثقافة ، والدين ، والسياسة ، ويلتقي بكثير من العلماء ، والمفكرين ، والزعماء السياسيين في العالم الإسلامي.

وقد أكسبه ذلك سمعة طيبة ، في البلاد التي زارها ، وصداقة كثير من علمائها ورجالاتها السياسيين.(١).

وتؤكد الروايات الشفوية من العلماء المعاصرين للشيخ ابن أبي مدين - رحمه الله - أنه كان عالماً سلفياً ، وداعية نشطاً.

ويذكر الشيخ المختار بن حامد ذلك بقوله : "وقد سافرت معه للمشاركة في ندوة الحسن الثاني بالمغرب وألقى محاضرات ودروس إسلامية على نهج السلف ، وناظر العلماء ، ودعا إلى التمسك بالكتاب ، والسنة ، واتباع ما كان عليه السلف ، وانتقد التصوف ، ورد على أهله(٢).

أما تلميذه الشيخ محمد محمود بن أحمد بور(٣) فيقول : "الشيخ محمد بن أبي مدين - رحمه الله - عالم محدث ولغوي شهير ، وقد درست عليه مصطلح الحديث ، وهو من أبرز الدعاة السلفيين في عصره ، ومن أقواهم ردوداً على المبتدعة والضلال ، وهو سبط الشيخ سيدي باب ، وخريج مدرسته ، وقد نهج نهجه في اتباع السنة ، كما أنه تأثر بكتب شيخ

---

١) المرجع السابق نفسه ص ٣٨ ، ٤٥.

٢) المختار بن حامد ، المقابلة السابقة بتاريخ ١٤١٢/٨/٨هـ.

٣) محمد محمود بن أحمد بور ، عالم سلفي ، درس على الشيخ محمد بن أبي مدين ، وسوف تأتي ترجمته في الفصل الحادي عشر

الإسلام ابن تيمية ، وبكتب ابن قيم الجوزية ، وبالعقيدة الطحاوية ، وشرحها ، لابن أبي العز الحنفي ، وكان له نشاط بارز في الدعوة السلفية في عدد من الأقطار الإسلامية(١).

وقد حدثني الشيخ حماد الأنصاري(٢) أنه التقى عدة مرات بالشيخ محمد بن أبي مدين - رحمه الله - وكان صديقاً له ، وقال : إنه عالم سلفي العقيدة ، رد على المبتدعة ، وبين أخطاءهم ، وكانت في مكتبتي - يقول الشيخ حماد - قصيدة جيدة له ، تناول فيها الرد على الأشاعرة(٣).

---

١) حدثني بذلك في مقابلة أجريتها معه في مدينة نواكشوط خلال الرحلة العلمية التي قمت بها لموريتانيا والمقابلة عندي مكتوبة وموقعة منه بتاريخ ١٤١٢/٧/٨هـ.

٢) حماد الأنصاري ، عالم سلفي ، قدم على المملكة العربية السعودية من بلاده جمهورية مالي حالياً عام ١٣٦٧هـ ، وكان تلميذاً للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، وزميلا له مدة تزيد على عشرين عاماً ، وهو من العلماء الذين درسوا في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، مدة طويلة ، أي من عام ١٣٨٥هـ ، إلى وقت قريب ، راجع السديس : المرجع السابق ١/٨٧.

٣) حماد الأنصاري ، مقابلة أجريتها معه في المدينة المنورة بتاريخ ١٤١٠/٤/٢٣هـ.

منهج الشيخ محمد بن أبي مدين السلفي

إن من يطالع في مؤلفات الشيخ محمد بن أبي مدين - رحمه الله - يتبين له اتجاهه السلفي، وعداؤه للبدعة وأهلها، وهذا شيء لا غرابة فيه فهو سبط الشيخ سيدي باب، ولد في بيته، ونشأ وتفقه في مدرسته، فكان بحق - جديراً بأن يتأثر بتعاليمه السلفية.

قال عنه الشيخ بداه بن البصيري: إنه العالم المحدث، السني السني(١).

وقد أعد عنه ابنه أحمد بحثاً تناول فيه حياته العلمية بالتفصيل، وذكر في أماكن متعددة منه تأثره العميق بمدرسة جده الشيخ سيدي باب، وأسباب هذا التأثر ثم قال:

والشيخ محمد بن أبي مدين - والدنا رحمه الله - ولد وترعرع في بيت جده الشيخ سيدي باب، ونشأ في مدرسته، فتأثر بتعاليم مؤسسها، فلذلك كان سلفي النزعة والمعتقدات، والمنهج، بعيداً كل البعد عن روح التصوف، كما برهن على ذلك في كتبه(٢).

---

١) أسنى المسالك في أن من عمل بالراجح ما خرج عن مذهب الإمام مالك ص ٢٨٦، طبعة نواكشوط ١٩٧٣م.

٢) أحمد ولد أبو مدين، المرجع السابق، ص ٣٢-٣٣، ٣٥-٣٦، ٦٤، ٦٨.

وقد ألف الشيخ محمد بن أبي مدين كتباً بين فيها اتجاهه السلفي ومنها كتابه: [الصغير الحجم الكثير الفائدة ، الذي تناول فيه حياة جده الشيخ سيدي باب بالتفصيل ، وسماه : حياة باب بن الشيخ سيدي وعقيدته.. وقد بين فيه أنه يدين الله عز وجل على مذهب السلف في إثبات جميع الصفات لله تعالى ، وإمرار ظواهر الكتاب والسنة ، كما جاءت من غير تأويل ، ولا تعطيل ، ولا تكييف ، ولا تشبيه ، على حد قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾(١).

وقد ذكر رحمه الله - في أماكن متعددة من مؤلفاته أنه يسير على خطى السلف الصالح - رضي الله عنهم - في العقيدة ، والشريعة ، والسلوك ، وفي فهم الإسلام ، وتطبيقه ، قائلا:
«... إن ذلك هو المنجى عند الله عز وجل ، وخلاصة موقفه من قضية التأويل والتفويض أنه يفوض في جميع الصفات على طريقة السلف الصالح ، وأما آيات المعية وأحاديثها فيؤولها حسب ما يناسب المقام من العلم ، والنصر ، والعون ، ونحو ذلك»(٢).

وفيما يلي نذكر أمثلة من كلامه في كتاب [شن الغارات] تلقي الضوء على منهجه العقدي:

---

١) راجع كتاب محمد بن أبي مدين : باب بن الشيخ سيدي ، حياته وعقيدته ، صفحة ١.
٢) سيأتي رأيه بالتفصيل في المعية قريباً إن شاء الله تعالى.

أولا : قضية التفويض والتأويل :

قال - رحمه الله - إن الصحابة والتابعين أصح نظراً ممن جاء بعدهم وقد امتنعوا عن التأويل ، والله عز وجل يقول : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ، ويقول : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ، ونحو ذلك.. فنؤمن بما جاء في الآيات القرآنية ولا نؤولها ، ونكل أمرها إلى الله سبحانه.

أما الغلو ، والتأويل ، فلسنا مكلفين بهما ، قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله - الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، ومثل ذلك ما قال أحمد بن حنبل وسفيان الثوري(١).

---

١) شن الغارات على أهل وحدة الوجود وأهل معية الذات ص ١٣٧.

وقد نظم هذا المعنى في أبياته التالية ، حيث يقول:

لكنما السلف في سواها (١) فوض مما اشتبه اشتباها

مع جهله الكيف وتنزيه الإله عن كل تشبيه بكل ما سواه

وفي طريق السلف النجاة فهي لكل مسلم منجاة

فإن يفوضوا نفوض ومتى أول جمعهم نؤل يا فتى (٢)

---

١) يعني في آيات المعية وأحاديثها

٢) شن الغارات ، ص ١٥٣.

ثانياً : مسألة كلام الله تعالى :

يقول - رحمه الله - والمنقول عن السلف الصالح رضي الله عنهم اتفاقهم على أن القرآن كلام الله ، منزل غير مخلوق ، وتلقاه جبريل عن الله عز وجل ، وبلغه جبريل إلى رسول الله ﷺ وبلغه رسول الله ﷺ إلى أمته(١).

قال : وقد نظم مذهب أهل السنة في كلام الله تعالى - الحافظ أبو عمرو الداني في أرجوزته في السنة فقال:

والقول في كتابه المفصل بأنه كلامه المنزل

على رسوله النبي الصادق ليس بمخلوق ولا بخالق

من قال فيه إنه مخلوق أو محدث فقوله مروق

أهون يقول جهم الخسيس وواصل وبشر المريسي(٢)

ثالثاً : مسألة رؤية الله تعالى - في الآخرة - :

قال - رحمه الله - وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة بالأبصار كما صرح به تعالى في قوله : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾(٣).

وقد صحت السنة المتواترة بإثبات رؤية الله تعالى في الآخرة بالأبصار ولا

---

١) شن الغارات ، ص ١٣٦-١٣٧.

٢) المرجع السابق نفسه ص ١٣٧.

٣) سورة :

التفات إلى المجادلات الواقعة من المعتزلة، فكلها باطلة(١).

رابعاً : مسألة معية الله تعالى :

يعتقد الشيخ محمد بن أبي مدين - رحمه الله - أن معية الله عز وجل على نوعين:

- معية عامة شاملة لجميع مخلوقات الله تعالى، فهو مع كل شيء بعلمه لا يغيب عنه شيء، ولا يعجزه شيء.
- ومعية خاصة : وهي معيته سبحانه - لرسله وأنبيائه وأوليائه بالنصر والعون واللطف ونحو ذلك.

قال : وقد نظمت ملخصاً لحكم المعية فقلت :

حمداً لمن كان مع الأبراري	بالعون والنصر على الفجار
وبالجميع علمه تعلقا	أضل بعضهم وبعض وفقا
وبعد فالمقصود نظم يجمع	حكم المعية لمن يستمع

---

١) شن الغارات، ص ١٦٢، ١٦٤.

فقلت راجياً من المولى العلي غفرانه وصفحه عن زللي
معية الاله جل وعلا للخلق حيث ما أتتك أولا
بالعلم في حال عمومها وفي خصوصها بالنصر واللطف تفي
فمن يؤول ومن لا كالسلف أولها فالكل في ذاك ائتلف(١)

---

١) شن الغارات على أهل وحدة الوجود وأهل معية الذات ص ١٥٢.

وقد تميز الشيخ محمد بن أبي مدين - طيلة حياته - بظاهرتين بارزتين في فكره ومنهجه، وهما:
نصرة السنة، والذب عنها، ومحاربة البدعة وأهلها، وكانت كل واحدة من هاتين الظاهرتين عنواناً لواحد من أهم مؤلفاته.
فبالنسبة لنصرة السنة، والذب عنها، فقد ألف كتابه [الصوارم والأسنة في الذب عن السنة]، أما الظاهرة الثانية: وهي محاربة البدعة وأهلها، فقد ألف فيها كتابه [شن الغارات على أهل وحدة الوجود وأهل معية الذات] وسوف نقتطف من هذين الكتابين ما يدل على تمسكه بالسنة، ومحاربته للبدعة.

وقد عنون الشيخ محمد بن أبي مدين للفصل الأول من الباب الرابع من كتابه الصوارم والأسنة في الذب عن السنة، بوجوب اتباع السنة دون ما عداها، وساق كثيراً من الآيات القرآنية الدالة على وجوب اتباع ما جاء في الكتاب والسنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾(١).

وبعد أن بين أن المنهج الإسلامي السليم هو التمسك بالكتاب والسنة، والوقوف عند نصوصهما، وترسم خطى السلف الصالح رضي الله عنهم في فهم الإسلام وتطبيقه، تمثل بالبيت التالي:

---

١) الصوارم والأسنة في الذب عن السنة ص ٥٥، والآية من سورة آل عمران، رقم: ١٣٢.

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الأهواء عمت فأعمت(١)

والمطالع في هذا الكتاب لا يخفى عليه حرص صاحبه على التمسك بالكتاب والسنة، والدعوة إلى تحكيمهما في كل الأمور، يقول:
«إن من أخطأ منصوصاً في القرآن الكريم أو في صحيح السنة النبوية المطهرة، فقوله وفعله مردود»(٢).
ويقول: إنه لا طريقة إلى الله عز وجل لأحد من الناس إلا بمتابعة سنة رسول الله ﷺ(٣).

وقد قدم الشيخ محمد بن أبي مدين - رحمه الله - عرضاً موسعاً في هذا الكتاب أطال فيه النفس، وبين المنهج الإسلامي الصحيح، الذي كان عليه السلف الصالح - رضي الله عنهم - وجاء بما لا يزيد عليه لطالب الحق، وسار بخطى متأنية، وساق كثيراً من النصوص عن أئمة أهل السنة والجماعة، المعترف لهم بالرسوخ في العلم، تؤيد وتؤكد ما ذهب إليه(٤).

والواقع أن الشيخ محمد بن أبي مدين - رحمه الله - ركز في هذا

---

١) المرجع السابق نفسه ص ١٥٦.

٢) الصوارم والأسنة ص ١٧٧.

٣) المرجع السابق نفسه ص ١٧٠.

٤) المرجع السابق نفسه ص ١٥٤ وما بعدها.

الكتاب من بدايته إلى نهايته على ضرورة التمسك بالكتاب والسنة واتباع نهج السلف الصالح - رضي الله عنهم - والدعوة إلى نبذ البدع، والتقليد المذموم.

ويؤكد الباحثون أن كتاب الصوارم والأسنة في الذب عن السنة، يعبر بوضوح عن سعة علم مؤلفه وسلفيته في التفكير والمنهج، وتحرره من التقليد المذموم(١).

الظاهرة الثانية : محاربة البدعة وأهلها:

ألف الشيخ محمد بن أبي مدين - رحمه الله - في الرد على أهل البدع والأهواء، كتابه [شن الغارات على أهل وحدة الوجود وأهل معية الذات]، وقد اتبع طريقة السلف في هذا الكتاب في الرد على المبتدعة والضلال بالكتاب والسنة، والإحجام عن الخوض في علم الكلام، الذي يكن له العداء، ويعرفه بقوله: «هو ما تنصب فيه الأدلة العقلية، وتنقل فيه أقوال الفلاسفة(٢).

وقد قدم الشيخ محمد بن أبي مدين لكتابه : شن الغارات، بمقدمة تلقي الضوء على محتواه يقول فيها : هذا كتاب صغير الحجم لكنه بعون الله تعالى يشتمل على كثير من العلم تقذي به أعين أهل البدع، والأهواء

---

١) أحمد ولد أبو مدين ، المرجع السابق ص ٦٧.

٢) محمد بن أبي مدين : باب بن الشيخ سيدي ، حياته وعقيدته ص ٢.

، ويلجأ إليه حزب الله عند هجوم الأعداء ، اختطفته من بين نيوب الملمات ، لما كثير القول بوحدة الوجود ، ومعية الذات ، ورتبته على مقدمة ، وأربعة فصول ، وخاتمة.

المقدمة في تأويل السلف والخلف ، كل ما أوهم معية الذات ، من الكتاب والسنة ، والفصل الأول في حكايات الإجماع على ذلك ، والثاني في شبه أهل هذه المقالة ، والثالث في إبطال شهادة من يقول بها ، والرابع في تراجم أئمة أهل هذه المقالة ، والخاتمة في الكلام على أهل وحدة الوجود وسميته شن الغارات على أهل وحدة الوجود ، وأهل معية الذات(١).

وهذه نماذج من ردوده على المبتدعة والضلال:

١- رده على أهل معية الذات :

قال ابن أبي مدين - رحمه الله - بعد أن ذكر أن بعض الضلال يقول : إن معية الله تعالى تكون بعلمه وذاته ، قال : سبحان الله ، كيف يسوغ لعاقل إطلاق كلام موهم على الله عز وجل مخالف لاجماع المسلمين ، من أهل السنة ، إذ من المعلوم أن بذاته لم ترد في كتاب ولا سنة ، ولا في إجماع ، ولا خلاف بين المسلمين في منع إطلاق الموهم غير الوارد على

---

١) شن الغارات على أهل وحدة الوجود وأهل معية الذات : ص ١.

الله - تعالى - وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من العلماء(١).

وقد خصص الشيخ - رحمه الله - مساحة كبيرة من كتابه [شن الغارات] للرد على القائلين بمعية الذات ، وبدأ ذلك بقوله : «إن معية الله تعالى في الكتاب والسنة تختلف أحكامها بحسب الموارد ، فلما قال الله عز وجل : ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾(٢) دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم عالم بكم ، وهذا هو معنى قول السلف إنه معكم بعلمه.

ولما قال جل شأنه لموسى وهارون : ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾(٣) ، كانت المعية هنا بمعنى العلم والنصر والتأييد ، وكذلك قوله تعالى : ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾(٤).

فلفظ المعية قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع تقتضي في كل موضع أموراً لا تقتضيها في الموضع الآخر.

فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع ، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها.. وإن امتاز كل موضع بخاصيته.

---

١) شن الغارات ص ٩٤.

٢) سورة الحديد ، الآية : ٤.

٣) سورة طه ، الآية : ٤٦.

٤) سورة النحل ، الآية : ١٢٨.

وعلى التقديرين ، فليس مقتضاها أن تكون ذات الله عز وجل مختلطة بمخلوقاته ، تعالى الله عن ذلك - حتى يقال : صرفت عن ظاهرها(١).

قال : وقد نظمت أبياتاً بينت فيها المذاهب الضالة التي يرجع إليها القول بمعية الذات فقلت:

أما المعية بذاته فما	يملأ ذو ديانة بها فما
لأنها من مذهب النجاري	ومن على مذهب جهم جار
ومذهب الغلاة والمعتزلة	وكل من يرضى بتلك المنزلة
كما عزاه لهم أبو الحسن	أي في الابانة كتابه الحسن(٢)

٢- رده على أهل وحدة الوجود :

بدأ ابن أبي مدين - رحمه الله - الرد على أهل وحدة الوجود بقوله:
قال جامعه - وفقه الله - إنما جمعت بين الكلام على معية الذات ووحدة الوجود لأني رأيت التصريح بالثانية في كلام بعض إئمة الأولى ، وسمعت بعض مشايخي يقول : إن القول بمعية الذات يفضي إلى القول بوحدة الوجود ، وكفى بمقالة تفضي إليها قبحاً وفساداً فإن جل مقالات أهلها صريح في كفر من يقوله ، فهم يقولون بقدم العالم ، وينكرون بعث الأجساد

---

١) شن الغارات ، ص ٣.

٢) شن الغارات ، ص ١٥٣.

وحشرها(١).

كما أن من أمهات مقالاتهم المؤذنة بكفرهم ، تصريحهم بأنهم يرونه تعالى في دار الدنيا يقظة ، وذلك مبني على زعمهم أنه سبحانه عين خلقه ، أو حال فيه ، كما نص على ذلك شيخهم الحلاج(٢) بقوله : «أنا الحق وما في الجبة إلا الله».ز

وقد أجمع العلماء في عصره على تكفيره بما قال ، وعلى وجوب قتله ، فرفعوا أمره إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله(٣) ، فأمر بضربعنقه ،

---

١) شن الغارات ، ص ١٥٤-١٥٥.

٢) هو أبو معيث الحسين بن منصور الحلاج ، نشأ بواسط ، ودخل بغداد ، وتردد إلى مكة المكرمة وجاور بها وسط المسجد الحرام ، وكان يجلس في شدة الحر على جبل أبي قبيس ، ولا يأكل إلا بعض قرص ، ويشرب قليلا من الماء معه وقت الفطور ، وكان قد صحب الجنيد بن محمد النهاوندي ، وجماعة آخرين من الصوفية ، وتختلف الصوفية فيه : فبعضهم ينفي أن يكون الحلاج منهم ، وآخرون يقدسونه ، ويعتبرونه عالماً ربانياً ، وينتسب إليه بعض المتصوفة ، ويغالون فيه ، حتى إن بعضهم قال : إن كان بعد النبيين والصديقين موحد فهو الحلاج.. وله أشعار على طريقة الصوفية ، وقد صرح فيها بالحلول والاتحاد .. قال ابن كثير : دخل الحلاج في الحلول والاتحاد فصار من أهل الانحلال والانحراف ، واتفق علماء بغداد على كفره ، وزندقته ، وأجمعوا على قتله وصلبه ، وكان علماء بغداد إذ ذاك هم الدنيا.. ت ٣٠٩هـ راجع البداية والنهاية ١١/١٣٢-١٤٣.

٣) هو أبو الفضل جعفر بن أحمد أمير المؤمنين العباسي ، ولد عام ٢٨٢هـ وبويع له بالخلافة عام ٢٩٥هـ كان من أهل العبادة ، كثير التنفل بالصلاة والصيام ، مطعاماً ، جواداً ، وله عقل جيد ، وفهم وافر ، وذهن صحيح ، وقد توسع في النفقات ، وزاد في رسوم الخلافة ، وأمور السياسة ، وكان كثير التلون والعزل لولاته ، ت ٣٢٠هـ ابن كثير ، البداية والنهاية ١/١٦٩-١٧٠.

وقتل ، وأحرقت جثته ، ورمي برمادها في دجلة. وكان على نحو مذهب الحلاج جماعة آخرون فصلبهم أهل السنة وقتلوهم(١)..

وقد كشف ابن أبي مدين - رحمه الله - حقائق أصحاب القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود الزائفة المنافية للإسلام ، والمناقضة له ، ثم قال : ودعوى أصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد ، في غاية البطلان ، لأن الأدلة النقلية ، والبراهين العقلية ، قاطعة باستحالة ما يقولون على الله - سبحانه تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً - فمن زعم أن الله عز وجل هو عين مخلوقاته ، أو أنه حل في شيء منها ، فهو ضال ، وكافر بالإجماع(٢).

وقد رد على ابن عربي(٣) وغيره من القائلين بوحدة الوجود بقوله: «إذا كان الوجود واحداً فمن الحاجب؟ ، ومن المحجوب؟ ولم كانت الزوجة حلالا والأخت حراماً؟ ثم قال: وأقوال هؤلاء الإباحية أبعدهم الله تعالى

---

١) شن الغارات ص ١٥٦-١٥٧.

٢) المرجع السابق ، نفسه : ص ١٦٥-١٦٧.

٣) هو أبو الوليد محمد بن علي بن عربي الطائي الأندلسي ، رحل إلى مكة المكرمة ، وأقام بها مدة ، وصنف فيها كتابه المسمى [الفتوحات المكية] ، وله كتاب يسمى [فصوص الحكم] وفيه أشياء كثيرة ظاهرها كفر صريح ، وله مصنفات أخرى كثيرة ، وله ديوان شعر ، وكلام طويل على طريقة التصوف ، أقام قبل وفاته مدة طويلة في دمشق ، ولقي بها إقبالا من بعض الناس ، وتوفي بها عام ٦٣٨هـ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٥٦/١٣ ، ومحمد مخلوف : شجرة النور الزكية ص ١٥٥.

وطهر الأرض منهم قد بلغت من البطلان والتناقض والتهافت، والقول على الله بلا علم، والزهد في كتابه وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، مبلغاً كبيراً، لانهيار قواعدها، وطمس بصائر جامعيها، إذ كلها جهالات لا يتفوه بها من له أدنى مسكة من معقول، ومعتقدها منحل العقيدة مخذول، لوضوح فساد جميعها لأوائل المعقول، ولمصادمتها لجميع المنقول.

ولا غرو، فإن القول إذا كان على غير أصل يعتمد عليه كان واضحاً عواره، وكل من رد الحق مبرح عليه أمره، فهم كما قال الشاعر:

ومن يكن الغراب له دليلا يمر به على جيف الكلاب (١)

قال: وأهل وحدة الوجود والحلولية، والاتحادية، طوائف من غلاة الصوفية، ولهم كلام طويل، ينبوا عنه سمع كل من كان على فطرة الإسلام، فليحذرهم المسلمون، فإنهم ربما لبسوا على ضعفاء العقول، فأضلوهم وحملوهم على ما يسرونه من العقائد الفاسدة.

وقد حكى المؤلفون في الملل والنحل، كابن حزم، والشهرستاني، وغيرهما، إجماع الأمة على عد غلاة الصوفية من الفرق الزائفة، كأهل وحدة الوجود، والحلولية، والاتحادية، وأنهم دعاة إلى ما يعلم بالضرورة

---

١) شن الغارات، ص ٢١٥، ٢١٦، ٢٣٧.

أنه خلاف ما جاء به محمد ﷺ(١).

٣- رده على بعض الزنادقة :

قال ابن أبي مدين - رحمه الله - ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريق يستلزم هدم أحكام الشريعة الإسلامية ، فقالوا : إن قصة الخضر وموسى عليهما السلام يستفاد منها أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة ، والأغبياء ، وأما الأولياء والخواص ، فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص ، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ، ويحكم عليهم بما يغلب على ظواهرهم ، لصفاء قلوبهم عن الاكدار ، فتنجلي لهم العلوم الإلهية ، والحقائق الربانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ، ويعلمون الأحكام الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات. كما اتفق للخضر ، فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى(٢).

وقد رد - رحمه الله - على هذا الزعم الفاسد بردود جيدة نقل فيها كلام العلماء ، على كفر أصحاب هذه المسألة ، ولخص ذلك كله في منظومة رجزية نكتفي بها في معرض رده على هؤلاء الزنادقة ، وهذا نصها:

ومن يقل من مدعي ولاية ... أن له من ربه عناية
دون اتباع المصطفى خير البشر ... في باطن وظاهر فقد كفر

---

١) شن الغارات ص ١٦٧ ، ٢١٤.

٢) شن الغارات ، ص ٢٥٨.

وقصة الخضر والكليم لمٍ يكن لهم فيها احتجاج قد ألم
لأنَّ موسى لم يكن بمرسل للخضر النبي في القول الجلي
فما على الخضر أن يتبعه لذاك لما اختلفا ودعه
مصرحاً بأنه علم ما لم يك موسى ذو العلوم علما
ومن يقل كمثل ما قال الخضر للمصطفى نبينا فقد كفر
فالمصطفى عن البرايا فضلا ولجميعهم بشيراً أرسلا
فلو أتى الخليل والكليما وخضراً لاتبعوا الكريما
وما جرى من خضر إذ سبر يوافق الكليم فافهم واعتبر
لذاك لما بين الأسبابا وافقه وترك العتابا
فانظره في الزرقاني والفرقان تجده في الفرقان والزرقاني
وانظره في الفتح وفي الرياض شرح الشهاب لشفا عياض
والقرطبي المرتضى للمسلم بينه في شرحه لمسلم
وانظر له إن شئت في النهاية لابن كثير تكمل الكفاية (١)

١) شن الغارات ، ص ٢١١.

ثالثاً : عبدالودود بن عبدالملك

هو الفقيه اللغوي ، والمقرئ الشهير ، عبدالودود بن عبدالملك بن عمية ، ولد في ضواحي مدينة [بتلميت] ، وحفظ القرآن ، ودرس مبادي من علوم الدين ، واللغة العربية في صغره ، قبل البلوغ ، ثم رحل إلى مدرسة محمد أحمد بن الرباني(١) ، فدرس عليه اللغة العربية ، وعلومها ، ثم درس الفقه ، وبعض العلوم الأخرى في مدرسة آل أحمد فال التندغيين(٢) ثم عاد إلى مسقط رأسه في [بتلميت] ولازم الشيخ سيدي باب ، رحمه الله - وأكمل دراسته عليه ، وتأثر بعقيدته السلفية ، وبعد نهاية دراسته ، جلس للتدريس ، وأصبح شيخ محضرة تعج بطلاب العلم ، واشتهرت محضرته بالتركيز على تدريس القرآن الكريم ، وعلومه ، والعقيدة السلفية.

مؤلفاته :

ألف الشيخ عبدالودود - رحمه الله - عدة مؤلفات ، جلها في علوم القرآن ، وما تزال كلها مخطوطة ، ومنها:

---

١) محمد أحمد بن الرباني التندغي ، عالم جليل ، له اليد الطولى في القرآن الكريم وعلومه ، واللغة العربية ، وعلومها ، من مؤلفاته : منظومة في سور القرآن وناسخه ومنسوخه ، راجع المختار بن حامد : حياة موريتانيا ٤٤/٢ ، ٥٠ ، ٥٤ ، والخليل النحوي ، ص ٥٦٩.

٢) مدرسة آل أحمد فال التندغيين : من أبرز محاضر البلاد ، ولها تاريخ مجيد وعريق ، وقد تخرج منها عدد من العلماء الأجلاء ، راجع : الخليل النحوي ، المرجع السابق ص ٥٢٢.

١- التنوير في علم التفسير.

٢- الاشارات في علم القراءات.

٣- المأمول في القراءات.

٤- الفواصل.

٥- التكميل الأوفى.

٦- منظومة تبلغ ألفاً ومائتي بيت، سماها الرقوم في علم الرسوم.

٧- منظومة سماها : الأعلام.

٨- منظومة سماها : المصفى في الدني من الرسم بخطي[١].

منهجه السلفي :

كان الشيخ عبدالودود - رحمه الله - معتصماً بالكتاب والسنة، واقفاً عند حدود الشرع، متمسكاً بمذهب السلف الصالح في العقيدة، والشريعة، والسلوك، فقد كان يدين الله عز وجل على مذهب السلف، في الاعتقاد بظواهر النصوص والصفات الواردة فيها، من غير تأويل، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تشبيه، على حد قوله تعالى : ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾..

---

١) حصلت على هذه المادة العلمية في مقابلة محمد محمود بن أحمد بور السابقة، بتاريخ ١٤١٢/٧/٨هـ، وراجع كتاب : المختار بن حامد : حياة موريتانيا ٤٢/٢.

وكان يقول : إن الصحابة والتابعين ، كانوا جميعاً يثبتون الصفات الواردة في الكتاب والسنة ، ويقولون أمروها كما جاءت ، وامتنعوا عن التأويل ، وهم أتم نظراً ممن جاء بعدهم ، لذلك قال مالك -٠ رحمه الله - حين سئل عن الاستواء في قوله تعالى : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ كيف استوى؟ الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة.

وقال الشافعي : رحمه الله - : آمنت بلا تشبيه ، وصدقت بلا تمثيل ، واتهمت نفسي في الإدراك ، وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك..

ومثل ذلك ما قاله أحمد بن حنبل ، وسفيان الثوري ، رحمهما الله - وأهل الحديث قاطبة.

وكان رحمه الله محيياً للسنة ، محافظاً عليها ، مقدماً لأقوال الصحابة رضي الله عنهم - على أقوال من جاء بعدهم ، ويعرض آراء العلماء على الكتاب والسنة ، فما وافقهما أخذ به ، وما خالفهما طرحه.

واشتهر رحمه الله بالمواظبة على تلاوة القرآن ، والعبادة ، والزهد على طريقة السلف الصالح ، وقد نبذ التصوف ، وانتقده ، ورد على المتصوفة بردود علمية وهادئة.

وظل رحمه الله على هذا المنهج داعية إليه ، ناصراً للسنة ، ومدافعاً عنها ، وواقفاً عند حدودها ، لا يتساهل في أي بدعة مهما صغرت عند الناس حتى توفي رحمه الله تعالى(١).

---

١) مقابلة محمد محمود بن أحمد بور ، السابقة ، بتاريخ ١٤١٢/٧/٨هـ.